كريستيان شينو جورج مالبرونو

مذكّرات رهينتين



مذكرات رهينتين

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والمفارة الفرنسية في لبنان - قسم التعاون والعمل الثقافي - وذلك في إطار برنامج جورج شحادة للمساعدة على النشر

Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Shéhadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères, et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban

كريستيان شينو
جورج مالبرونو

مذكّرات رهينتين

تعريب

حسين حيدر   جوزف منصور

عويدات للنشر والطباعة
بيروت ـ لبنان

ص ب 628 ـ تلفاكس: 853757 1 961 ـ تلفون 616033 3 961
E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

ISBN 9953-28-073-8

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 9953 - 28

الطبعة الأولى 2005

في اللحظة التي نوجّه فيها هذا النص المليء بالتأثّر
كانت أفكارنا تسري وراء فلورنس أوبيناس.

إلى إينزو بالدوني، زميلنا الإيطالي الذي أُعدم لأنه
كان يريد تقديم شهادة مثلنا عن المأساة العراقية.

إلى جميع الرهائن المحتجزة ظلماً في العراق.

إلى عائلتينا وأقربائنا وأصدقائنا.



لا أحد يستطيع بلوغ الفجر

دون المرور في طريق الظلام .

جبران خليل جبران

Belle est la Patience

«الصبر جميل»

مثل عربي



كلمة شكر

نعتبر هذا الكتاب فرصتنا لتوجيه الشكر للفرنسيين الذين تحرّكوا بسخاء على امتداد أربعة أشهر من الاحتجاز. وقد تلقينا العديد من الرسائل والكتابات الإلكترونية المُرسَلَة من جميع المناطق ومن الأطفال والطلاب ورجال الدين والمسنين والمنتخبين ومن فرنسيين من اتجاهات مختلفة. رسائل تعاطف كانت كلها أكثر تحريكاً لمشاعر البعض من البعض الآخر. فأحدثت لنا حرارة في القلب، ونحتفظ بها إلى الأبد في رؤوسنا وقلوبنا.

نريد كذلك توجيه التحية لمسلمي فرنسا الذين قدّموا الدليل على جرأة عالية بإرسال مندوبين عنهم، وحملوا بشرف قِيَم التسامح في الإسلام وفي جمهورية فرنسا، وتوجيه شكر كبير لشخصيات عالم الفنون والمسرح والرياضة الذين كانوا يقرأون كل صباح في الإذاعة رسائل التضامن، وإلى جميع الصحافيين الزملاء الذين وقفوا معنا.

هذا التحرّك لم يكن مقتصراً على فرنسا، بل امتد إلى خارج حدود الخريطة الفرنسية، وخصوصاً إلى أفريقيا، إلى المغرب والشرق الأوسط، إلى شعوب الشاطئ الآخر للبحر المتوسط والحكومات ووسائل الإعلام والمجتمعات المدنية، نريد أن نوجّه إلى الجميع شكراً لا حدود له، لهذا الاندفاع التضامني الكبير. وستبقى هذه الشهادات التضامنية، مثل جميع الأصوات التي ارتفعت في العالم طالبة لنا الحرية، وستبقى هذه الشهادات رسالة أخوّة باهرة إلى الساحة التي يلوح فيها خيال صِدَام الحضارات.

بين جميع هؤلاء الذين تحرّكوا لصالحنا، نحب على الأخص أن نذكر بعض الأشخاص الذين نجد أسماءهم في تشكراتنا في نهاية هذا الكتاب


تركيا
الموصل
اربيل
كركوك
حلبجة
سوريا
تكريت
سامراء
إيران
فلوجة
بغداد
رمادي
الرطبة
دجلة
كربلاء
الكوت
عمارة
النجف
الناصرية
الفرات
البصرة
المملكة العربية السعودية
الكويت



28 أيلول/ سبتمبر : إطلاق سراح رهينتين إيطاليتين من محبي العمل الخيري، كانتا معتقلتين من قِبل مجموعة مسلّحة أخرى.

29 أيلول/ سبتمبر ـ الأول من تشرين الأول/ أكتوبر: مغامرة النائب الفرنسي ديديه جوليا ومرافقه فيليب بريت. إعلان هذا الأخير على قناة العربية الإطلاق القريب للرهينتين، ثم تأكيده على قناة أوروبا ـ 1، أنه «يراهما على بعد 20 متراً عنه».

1 تشرين الأول/ أكتوبر: ديديه جوليا يعلن فشل عملية إطلاق سراحهما.

8 تشرين الأول/ أكتوبر: إعدام الرهينة البريطانية كينيث بينغلي.

13 تشرين الأول/ أكتوبر: رئيس الوزراء الفرنسي جان بيار رافارين يعلن أن الرهينتين على قيد الحياة وأن اتصالات غير مباشرة تجري مع الخاطفين.

15 تشرين الأول/ أكتوبر: نقل رابع للرهينتين إلى مكان الاحتجاز نفسه في 21 أيلول/ سبتمبر، في ضاحية لبغداد.

8 تشرين الثاني/ نوفمبر: تسجيل «شريط الأزمة» وهجوم واسع للجيش الأميركي ضد الفلوجة.

11 تشرين الثاني/ نوفمبر: النقل الخامس للرهينتين إلى مكان الاحتجاز السابق في 3 أيلول/ سبتمبر.

وفاة ياسر عرفات في باريس

12 تشرين الثاني/ نوفمبر: السائق محمد الجندي وُجد حياً في الفلوجة من قبل الجيش الأميركي.

16 تشرين الثاني/ نوفمبر: تنفيذ إعدام مارغريت حسن المديرة لمنظمة غير حكومية في بغداد.

22 – 23 تشرين الثاني/ نوفمبر: مؤتمر شرم الشيخ حول إعادة بناء العراق. وفرنسا تقترح توحيد المجموعات المسلّحة في المسار السياسي إذا ألقت أسلحتها.

18 كانون الأول/ ديسمبر: تسجيل فيديو لـ«شريط إطلاق سراح الرهينتين»

21 كانون الأول/ ديسمبر: بعد مئة وأربعة وعشرين يوماً في الأسر، إطلاق سراح الرهينتين الفرنسيتين. الجزيرة تعلن ذلك في الواقع في الساعة 17:03 (حسب توقيت باريس).

22 كانون الأول/ ديسمبر: وصول كريستيان شينو وجورج مالبرونو إلى فيلا كوبلاي حيث استقبلا من قِبل عائلتيهما ورئيس الجمهورية جاك شيراك.

المواقع التي حدّدت بالاستنتاج وخلال تحقيقنا المعتاد[1]

1 - نداء جورج مالبرونو إلى RTL في 20 آب/ أغسطس 2004، الساعة 55 : 8 حسب توقيت العراق.

2 - 20 آب/ أغسطس، مكان الاختطاف.

3 - التوقيف الأول والاستجواب الأول.

4 - «المزرعة» المكان الأول للاحتجاز، من 20 آب/ أغسطس إلى 3 أيلول/ سبتمبر.

5 - مكان احتجاز جديد «البيت الأول»، من 4 أيلول/ سبتمبر إلى 22 أيلول.

6 - البيت الثاني، الأقرب لبغداد، من 23 إلى 26 أيلول/ سبتمبر.

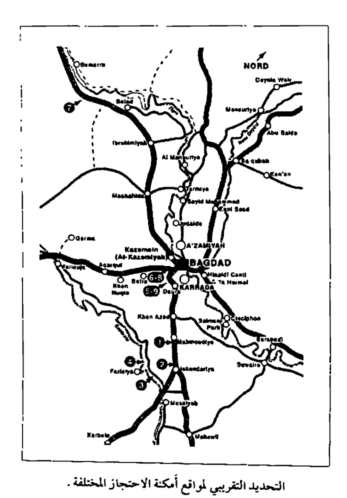
7 - البيت الثالث، من 27 أيلول/ سبتمبر إلى 15 تشرين الأول/ أكتوبر.

8 - عودة إلى البيت الثاني.

9 - عودة إلى البيت الثالث.

---

(1) انظر الخارطة في الصفحة المقابلة.



التحديد التقريبي لمواقع أمكنة الاحتجاز المختلفة .



إطلاق السراح

دخل رجلان مقنّعان إلى الغرفة. فعرفنا السجانين العاديين بلا جهد: الفتى، ومن نسمّيه الملاك الحارس. إنه فرد بطين قليلاً، ذو بشرة كامدة وصوت رقيق. وكلاهما كانا بثياب مدنية، لكنهما كانا مسلحين كل منهما بمسدس وكلاشينكوف ذي نموذج جديد مزوّد بسبطانة طويلة سوداء من الفولاذ تشبه كاتماً للصوت.

وجهّا لنا أمراً بالوقوف، بينما وجّه لنا الفتى كلاماً مفاجئاً «ماي باي باريس»، كنوع من الوداع يعطينا أملاً معيناً. ثم، بدون أية كلمة، أحدا جوازَي سفرنا الموضوعين على فراش من القش ودساهما في جيبينا. وقاما بتغطية عيني كل منا بقناع لُفّ على الرأس كله، أما كريستيان فقد لُفّ رأسه بجورب أسود، وقُيدت قبضتا كل منا بسلك حاسوب إلكتروني، دون أن تُشدّا كثيراً، ولم يبق لنا أكثر من القدرة على إدخال قدمينا في حذائنا.

كنا في 21 كانون الأول/ ديسمبر يوم ثلاثاء، الساعة كانت

15:50 . وكانت الخاتمة قد بدأت . ماذا سنكتشف في آخر الأمر؟

عبرنا مطبخاً يجاور الغرفة . وبينما دُفع جورج في صندوق سيارة مرسيدس كانت متوقفة إلى الخلف وراء المدخل، شعرت بالقلق ينتاب خاطفينا . فميزتُ أشكالاً غامضة لُفّت بالقماش، وتظاهرتُ بوقوع تماسكت بعده، لكي أعطي الانطباع بأنني لم أر شيئاً ولم أجد نفسي في حالة من الخطر . وسألتُ بالعربية :

ـ هل انتهينا؟

ـ اسكت يا كريستيان!

الوضع لا يحتمل أية إجابة . وكان رجل ثالث ينتظر قرب السيارة . وعند إغلاق الصندوق، خلصنا الخاطفون من أقنعة الجوارب . وانكمشنا في شكل زناد بندقية في وضع غير مريح، ثم أغلق الصندوق علينا بقسوة .

وخلال ما يقرب من ربع ساعة تحركت السيارة على طرقات مشوشة . وكنا نترجرج كثيراً . ولم يكن يصل إلينا أي صوت من الخارج . وحاولنا أن نهدئ من روعنا ونتبادل بعض الجمل الصغيرة .

ـ كيف الحال؟

ـ هكذا . الحال ممكن . وأنت؟ لا أذى كبيراً في اليدين؟

غالباً ما كان جورج يشكو ألماً في اليدين بسبب الوثاق المشدود كثيراً. ولم يكن المزاج يروق للتحدّث، بل الأحرى للصلاة. كنا نردد نحن الاثنين بصوت منخفض أحبك يا مريم، نحن في القيود، وأنتِ سندنا الوحيد. كنا نتعلق بكل ما يمكن أن يعتقد به الإنسان. وهل سنعود إلى الحرية في نهاية هذه الرحلة؟ إننا نصلي مبتهلين، ونتضرع إلى الله أن يصير كل شيء إلى نهايته الحسنة. نعم نصلي لنجد في أعماقنا كل القوى المادية والأخلاقية التي تُعدّنا لكل احتمال. وإن كان لا بد أن نموت، فلنكن على الأقل مستعدين لذلك.

كنا نلتقط أنفاسنا عند كل إبطاء. وكان بإمكان الخاطفين إيقاف سيارتهم، وإخراجنا من الصندوق، والقيام بإعدامنا وإلقاء جثتينا في حفرة، وإنهاء قضية الرهينتين الفرنسيتين بمظهر عنفي. لكنهم لماذا فاوضونا لمدة أربعة أشهر، ليقتلونا في آخر الأمر؟ مرة أخرى تخطر الأفكار المتناقضة في البال، حتى ولو تذكرنا الأحاديث التي وُجهت إلينا قبل أيام: «سنطلق سراحكما اليوم أو غداً». وكنا قد سمعنا هذا الكلام المكرّر عدة مرات، لكن هذه المرة أردنا أن نصدّق ذلك. واستنتجنا صحة ذلك بنسبة 99%. ويبقى الواحد بالمئة لأمر غير منتظر، يمكن أن يطرأ دائماً ضد رغبة خاطفينا. ففي العراق، لا شيء متوقع، إلاّ الخطر. وكانت سيارة

السفارة الفرنسية هي الدليل الثابت الوحيد لاستعادة حريتنا، كما رددّنا كثيراً عندما كنا نظن الوصول إلى خاتمة قريبة

عندما كنا نتوقع رؤية الشارة الثلاثية الألوان تحت واقية هوائية، أو ممثّل الحكومة الفرنسية وهو ينزل من سيارته ليضمنا إليه ـ هذا الاتصال المادي الذي تحيلناه مرات كثيرة، وحتى رغبناه ـ ذلك وحده فقط يدفعنا إلى اعتبار أننا أصبحنا أحراراً.

الصندوق والظلمة، دون أية إشارة حياة حولنا. . . والشعور العريب بالصعود نحو الشمال الغربي هو بالتالي ابتعادنا عن بغداد. فكانت تتسلط علينا جملة أسئلة، كما في كل انتقال رُمينا في أرض الصندوق ماذا سيفعلون بنا؟ هل هذا وقت الرحلة الأخيرة وأية رحلة أخيرة؟ وهل ستقع السيارة في كمين، وتتعرض لإطلاق النار، وتُقطع طريقها عند حاجز عسكري، رغم أن جملة هذه الأمور تكون قليلة في بلد يعيش حالة تمرّد تقريباً؟

بعد حوالي عشر دقائق، قامت المرسيدس بارتداد نصف دائري على ذاتها، لتغادر الطرقات الترابية وتأخذ طريقاً تؤدي بنا إلى طريق السيارات. وشيئاً فشيئاً، تصل إلى أسماعنا أصوات حركة السير. بقينا صامتين لكي نرصد بشكل أفضل. كنت أشعر

أن كريستيان يرتاح لتفاصيل لا قيمة لها. وبدا لي مطمئناً مثلي. تذكرتُ دروس الفن المسرحي التي ستخدمني في الأوقات الصعبة. المهم أن أبقى «متنبهاً وهادئاً» كما كان يقول أستاذي عن صورة البهلوان المتوتر. هذا صحيح: كنا نتقدم على خط السير ولم نعد بعيدين عن الهدف، وحذار من السقوط من السيارة. الآن أصبحتُ متأكداً أن فيلم الأحداث الذي بدأ منذ اثنتين وسبعين ساعة هو فيلم إطلاق سراحنا. وبقي الأمل أن ينتهي بشكل إيجابي. وبعد حصرنا في هذا الصندوق، وأثناء سريان الدقائق المتبقية استعدنا هذا الفيلم في المخيلة.

بدأ كل شيء مع تسجيل شريط إطلاق سراحنا، قبل ثلاثة أيام، يوم السبت في 18 كانون الأول/ ديسمبر، في رسالة الفيديو التاسعة خلال أربعة أشهر. وكنا قد توصلنا إلى اعتياد أدلة تثبت أننا لا زلنا على قيد الحياة استجابة لما يطلبه الفرنسيون من الخاطفين. «كريستيان شينو وجورج مالبرونو، يُعاملان جيداً» .. وذاك اليوم لم يتغيّر النص. لكنه، لأول مرة يجري تصويرنا في أفلام من الأمام، وجانبياً ومن الوراء، وفي حالة المشي. وتلتقط آلة التصوير الصور من الأعلى إلى الأدنى، وعلى الساقين والفخذين والذراعين والوجه لتثبت للفرنسيين أننا ليس فقط على قيد الحياة، بل كذلك أننا سالمان من الأذى، وولّدت

فينا جملة أُطلقت بالإنكليزية قبل التسجيل، أملاً جونياً: «هذا هو الفصل الأخير، حريتكما قريبة».

بعد ذلك، تركونا وحدنا وانتظرنا في زنزانتنا كنا نعلم أن لا شيء يحصل الأحد، فكان يجب إطلاع الفرنسيين على الشريط ليتحقّقوا من صحته. وفي أفضل حال لن تُفتح نافذة الحرية إلاّ بعد غد.

ومر يوم الاثنين دون حصول شيء والثلاثاء صباحاً في حوالي الساعة التاسعة، وبينما كنا نحمي أنفسنا من البرد الجليدي تحت أغطيتنا، وصل الملاك الحارس يحمل مشطاً وقطعة مرآة قدمهما لنا طالباً:

ـ سرّحا شعركما، واضبطا هندامكما، سيأتي مسؤول يأخذ لكما شريطاً مصوراً.

وانتهى بالصيغة التالية:

ـ سيطلق سراحكما اليوم أو غداً.

منذ بداية احتجازنا، لم ننظر أبداً إلى أنفسنا في مرآة، وتسبّبت هذه النظرات في صورتنا الشخصية بنوع من الصدمة. أما أنا فقد برزت تقاطيع وجهي وبدت عيناي متعبتين، أما كريستيان فقد اكتشف أن سيماءه قد تميّزت بانقباض نفسي.

وبعد مرور ساعتين، دخل رئيس دوائر مخابراتهم، سعد إلى غرفتنا مع أحد معاونيه. وكانوا قد أحضروا أريكة وكرسياً

لتسجيل آخر شريط «قبل إطلاق سراحكما». كان سعد ذا طبع جيد. كان ينصرف إلى رواية الممازحات: بشاربينا سنحظى بإعجاب النساء عند عودتنا إلى فرنسا، كان يقول. في العراق، الشارب يصنع الرجل، وكلما كانا كبيرين كان صاحبهما أكثر رجولة. جلسنا على الأريكة، ووجه لنا أسئلته على امتداد ساعة كاملة، خلال تصوير الفيلم. كان يتكلم بالعربية، وكان كريستيان يترجم لي بعض التفاصيل، وكنت أجيب بالإنكليزية. لم تكن الأسئلة جديدة، ولم نكن نقوم بأكثر من تكرار كل ما كنا قد قلناه لهم عدة مرات. لكن هذا اليوم كان يشبه حوار من كل وادٍ عصا: «هل لقيتما معاملة جيدة؟ كيف تريان هذه التجربة؟ ما هو رأيكما في الحجاب الإسلامي، وفلسطين، والوجود العسكري الفرنسي في أفغانستان. . . . ؟».

دامت جلسة التسجيل ما يقرب من ساعة. تعرضنا للبرد، فلم نكن نرتدي إلاّ قميصاً قطنياً ذا أكمام قصيرة، وفي نهاية التصوير سألنا سعد متى يتم إطلاق سراحنا، فأجاب «اليوم أو غداً». الأمر الذي فاجأنا. وكان خاطفونا يقطرون الشك باستمرار، ويلعبون بأعصابنا. اعتقدنا حينذاك بأنه لا بد أن ننتظر حتى الغد. وكان الوقت ظهراً تقريباً. نمنا تحت غطاء سميك إسباني الصنع، لكي ندفأ.

وبعد فترة قصيرة أحضروا لنا ساعتينا وبطاقتينا الصحافيتين، حتى بطاقة كريستيان للهاتف المحمول، مقابل ذلك، فإنهم احتفظوا بمفكرتي وبكتابنا عن عراق صدّام الذي كان معنا أثناء الاختطاف. أما المال الذي كان أعيد إلينا بعد أسرنا، فإنه كان قد اختفى. وقال لنا «الملاك الحارس» وهو يبتسم أنه كان يحتفظ بجوازَي سفرنا للذكرى، ثم انتهى بإعادتهما لنا. وهذه فكاهة لا بد منها إذا كان الوضع لا يفرحنا في رحيلتنا مع ذلك كنا نعسر خزعبلاته كدلالة جيدة. وغالباً ما كنا نقول في أنفسنا إن اليوم الذي يعيدون لنا فيه أوراقنا وأغراضنا الشخصية قد صار قريباً. وعن غير قصد كنا نشكل خليطاً مع حياة الاحتجاز. فعندما يُسجن الشخص، تؤخذ منه جميع أغراضه وإعادتها له تعني إطلاق سراحه. وفي نظرنا كان جوازا سفرنا يشكلان قبل كل شيء بطاقة خروجنا من السجن.

وقبيل خروجنا أعطانا سعد شريطاً مسجلاً «ذكرى لعملياتنا العسكرية في العراق. فهل تستطيعان بثّها في فرنسا»؟، مصراً على تأكيد ذلك.

وقدّم لنا شابان مقنعان كنا نسميهما «المتدربين»، قطعاً من الكوكا، هما أيضاً كانا يمزحان. لا بد أنهما في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. وطلبنا منهما معرفة الوقت الذي كنا

فيه : الساعة الثانية والربع . لأول مرة يجيب خاطفونا على طلبنا . فشعرنا بأن الفرج يقترب .

ونحن في الصدوق كنا نسمع أكثر فأكثر، أصوات السيارات والشاحنات . بدأ كريستيان يلمح ، عبر فتحات الغطاء الخلفي ، شارات حمراء . فالكثير من مظاهر الحركة لا يمكن إلا أن تشير إلى ضواحي بغداد، والتوتر العصبي يتراخى شيئاً فشيئاً . كنا نتصور أنهم سيقومون بتصفيتنا في أرض مجهولة واعتقدنا أنهم سيسلموننا إلى وسيط محايد في مسجد أو سفارة . وهذا أحد السيناريوهات الممكنة .

كانت قصص الرهائن في لبنان وإطلاق سراحهم في دمشق حاضرة في ذهننا على الدوام . إضافة إلى ذلك، قال لنا خاطفونا ، منذ عدة أسابيع أنهم سيسلموننا إلى السلطات السورية أو اللبنانية . هكذا فإن بلداً ثالثاً يقوم بدور وقائي تجنّباً لأي لقاء مباشر بين الفرنسيين والخاطفين بلداً ثالثاً أو مسجداً . كنا ننتظر في إحدى الغرف . وكان خاطفونا قد نزعوا عنا كماماتنا قبل تركنا وحيدين . ثم وصل شيخ المسجد، برفقة رجال من دوائر المخابرات السرّية الفرنسية ، وقدّم لنا الشاي وانطلقنا بطمأنينة مع أصحابنا .

سرنا حوالي عشر دقائق . ولم نر أية ترتيبات أمنية حول

المكان، ولا أية حراسة، فقط حركة مرور السيارات ومقاطع من أحاديث سجانينا. كنا نحبس أنفاسنا دائماً أمام جهل ما يجري.

وفجأة توقفت السيارة عند ممر جانبي، فقلت لكريستيان:

ليس هذا ممكناً، أن يطلقوا سراحنا هنا، على حافة الطريق!

ولم يتوفر له الوقت لإجابتي. وفُتح الصندوق. وفي الضوء المعاكس ظهر الوجه غير المقنع لأحد مقاتلي الجيش الإسلامي، لشاب نظم لحيته بدقة. ورأينا وراءه الشعار الأزرق - الأبيض - الأحمر - لسيارة من السفارة كانت واقفة على بُعد أمتار. وسمعنا حواراً بالعربية، كنا نحن موضوعه. فقال عراقي:

- أتريد رؤيتهما.

أجابه فرنسي بجفاء:

- لا أريد رؤيتهما. إنني أريدهما!

خرجنا الواحد بعد الآخر، مع الشعور، مرة أخرى، بأننا أمام ممثلين غير طوعيين في فيلم أسود، نريد بشكل مطلق أن يصل إلى نهاية جيدة، وها نحن واقفان على حافة الطريق المؤدية إلى المطار، ويدانا موثقتان، والسيارات تمر، وكانت الساعة تشير إلى 16.30، والسماء زرقاء صافية. كان يُطلق سراحنا، في زحمة السير، ومع رجال مسلحين، والناس يمرّون كما لو أن الوضع طبيعي.

وقريباً منا كانت تقف ثلاث سيارات تابعة للسفارة الفرنسية. كذلك سمعنا كلاماً بالفرنسية. وشعرنا بالارتياح الكبير!

ـ كريستيان، اركب. انتهى كل شيء. هيا جورج، تقدم!

وتقدم M X رئيس موقع الإدارة العامة لأمن الدولة الفرنسية في بغداد الذي نعرفه، ومد لنا يده. كان هناك، واقفاً، ومرتدياً بدلة وكرافات، وشعره أملس إلى الوراء، كما كنا نلقاه غالباً، وكأن شيئاً لم يتغير في غيابنا، وكأننا نرى حلماً رديئاً. إلى جانبه كان يقف عضو في الجيش الإسلامي، ويضع على رأسه كوفية بيضاء ذات بقع حمراء، وبيده مسدس مصوب نحو السماء. لا شيء بلغ نهايته. كل شيء يمكن أن ينقلب. وفي هذه اللحظة لا أدري بما كان يفكر كريستيان، المتفائل الأبدي. ورأينا عن بعد قليل، عدداً من الأعضاء من دائرة العمل في الإدارة لأمن الدولة، وكانوا على استعداد للتدخّل. وأيديهم قرب المسدس الرشّاش المخبأ تحت واقية للرصاص. وكان وراءنا واحد من الخاطفين يحمل رشاش كلاشينكوف وكانت نظراتنا تلتقي دون أية كلمة كأننا نحيي بعضنا بوداع صامت. إنه شعور غريب. في هذه اللحظة أحسسنا أن كل شيء قد انتهى.

هذا الوجه من عملية إطلاق سراحنا دام ما يقرب من خمس دقائق. ولم نر حصول أية هدية ولا صندوق صغير ولا حقيبة

صغيرة مقابل أي رهان كنا إذن؟ ولا تفاوض نحن مدينون في إطلاق سراحنا؟

كانت قيودنا رخوة للغاية، نزعناها بأنفسنا وصعدنا إلى مؤخرة إحدى سيارات الشرطة الأمنية العرنسية، وإلى شمالنا جلس رجل آخر، وفي الأمام، السائق وM.X رئيس مركز الإدارة العامة. وابتعدت السيارة ولن نعود أبداً، كما لو أنه لم يكن يجب التفكير بما جرى حتى الآن، وكما لو أننا نريد إفراغ كل ما في نفوسنا.

ولأول مرة منذ عدة أشهر، كانت تحيط بنا وجوه صديقة ودون أقنعة وفي اتصال إنساني حقيقي.

وفضحت كلماتي الأولى قلقي. وإليكم الطرفة الطائشة التالية:

ـ إنكم هواة! نُسترجع هكذا على قارعة الطريق.

ـ لا وسيلة للتصرّف بشكل آخر، يا جورج. أجابني قائد مركز الإدارة العامة M.X ، وهذه هي الخطة التي اتُبعت، وكانت الطلبات من حولنا تشعرنا بالوقوع في الفخ، وكان يُراد إقامة جهاز أمني. وأنا سعيد برؤيتكما هنا، بعد أن بحثنا عنكما خلال عدة أيام وليالي، وأشهر. ولا يمكنكما تصور العمل الذي مثله ذلك. لقد ذهبنا، عدة مرات، في مواعيد كاذبة، في منتصف الليل، على أمل استعادتكما.

حرى استجوابا كثيراً، خلال أربعة أشهر من الاحتجاز.
فكنت أقول لكريستيان مازحاً: أين هي شبكات M X ؟!!.
فلدينا الآن الدليل على أنهم ناشطون، حتى وإن كان ذلك طويلاً بقدر معين.

كانت هذه الفكاهة العصبية دائماً، وتحملنا كثيراً هذا القلق منذ زمن طويل. إنها طريقة لإفراغ القلق بالصور الجيدة. وفي السجل نفسه كان M.X يقول لنا كم فوجئ هو ورجاله عندما رأونا نرتدي بشكل عادي. فكانوا يعتقدون أن خاطفينا قد موهونا باللباس النسائي، بالحجاب والعباءة السوداء، لكي نمر دون أن يعرفنا أحد. وأدى طرح مثل هذه الصورة إلى انتزاع الابتسام منا، بينما انفجر M.X من الضحك، قبل أن يُطلب منا... تاريخ شرعية تأشيراتنا! وتركنا همٌ مفاجئ منذهلين.

لكن سرعان ما فُسِّر كل شيء: كانت الإدارة العامة لأمانة الدولة الفرنسية تتمنى إخراجنا عبر المطار في الليل أو في الغد. فكان يجب بالتالي التأكد في أسرع ما يمكن من أن أوراقنا قد تمّت تسويتها، وفي الحالة المعاكسة كان لا بد لسفير فرنسا من الحصول على إجازة المرور.

وسلمنا شريط التسجيل الذي «قدمه لنا» خاطفونا قبل إطلاق سراحنا إلى M.X ثم انفجرت المسألة التي ألهبت الشفاه:

- متى نستطيع التحدث مع عائلتينا؟

- ليس ذلك ممكناً طالما أنكما على هذه الأرض. فيستطيع الأمن العراقي أو الأميركيون قطع الاتصال وحتى يكشفوننا. ومن غير المفيد خلق إرباكات جديدة.

أيعني هذا أن علينا أن نخشى المآرب العدائية من كل نوع؟ ربما لا. لكن الأفضل، في حال الريبة، مضاعفة الحذر.

وعرض لنا M X تتابع الأحداث.

- ستنقلان غداً في طائرة خاصة. وتهبطان في الشرق الأدنى، لكنني لا أستطيع أن أقول لكما أين. وبعد ذلك إلى فرنسا حيث يكون هناك من ينتظركما.

وسألناه عن تأثير اعتقالنا في فرنسا.

- تعرفان ذلك قريباً، أجابنا باقتضاب.

تابعنا السير نحو جهة مجهولة، في صمت مخيم، وكثيراً ما كنا ننتظر هذه اللحظة لنعيشها في حالة أخرى. وأظهر الرجال الذين كانوا يحيطون بنا، وهم معتادون الحالات القصوى بشكل واسع، يظهرون رباطة جأش أمام كل امتحان. فكانوا مدججين بالسلاح. ومنذ اللحظة التي فتح فيها الصندوق تهيأ الشباب للقتل إذا استوجب الوضع ذلك، من أجل إعادتنا أحياء. ومن هنا كانت الحالة العصبية لدى خاطفينا الذين كانوا يجدون

أنفسهم فجأة في مواجهة قوة نارية غير متوقعة. وفي السابق، كانوا يحاولون الحصول من الإدارة العامة لأمن الدولة على مجيئها إلى منطقتهم من أجل الاحتفاظ بمراقبة الأحداث، لكن المخابرات الفرنسية توصلت «لعرض الخطة ب» بتحديد مكان إطلاق السراح قرب المطار.

عندما وصلنا، كانت فرقة المغاوير في انتظارنا منذ ربع ساعة، وكان بعضهم قد بدأ يتصور تغيّراً أو فخاً في اللحظة الأخيرة، ومن هنا ظهر توتر المجموعة عند خروجنا من الصندوق. وأكثر من ذلك، ففي الساعة 16,30، في وضح النهار، لم يهتم رجال مسلحون لخطر الظهور على جانب الطريق. وكان يمكن أن تظهر دورية أميركية أو أفراد آخرون ذوو نوايا سيئة. وفي هذا الشأن، كانت الإدارة العامة لأمن الدولة لا ترى حولها إلاّ أشخاصاً معادين للحكومة العراقية مروراً بالأميركيين. وكان الوسط الشديد الخطورة يفرض عملية حرب حقيقية.

بغداد لم تتغير، ويسود فيها التشوّش. وجد حراس السفارة أنفسهم محصورين داخل سدادات، وابتعدنا وفقدنا رؤية السيارة الخلفية التي كان يجب انتظارها دقيقتين أو ثلاث لنجدها متوقفة على أحد الجسور. وجاءت لحظة توتر أخرى لدى رجال الإدارة العامة لأمن الدولة. أما نحن فقد كنا نتأرجح بين الإثارة

والتعب. وبقينا متمرجين صامتين كل واحد في عالمه الداخلي وفي مواجهة أفكاره.

وبعد ثلاثين دقيقة وصلنا ليس إلى السفارة الفرنسية كما كنا نتصور، بل إلى أمام فيلا في حارة سكنية كان يعرفها جورج مظهرها عادي، والمبنى محروس كأنه قلعة. ففي طرفي الشارع حاجزان يمنعان الوصول إليها، وتفتيش في محيطها من قبل رجال مسلحين، وإجراءات احتياطية عند الخروج، ووضع في العزلة المباشرة في الداخل. هنا نكون في حالة آمنة. وفي الصالون جهاز تلفريوني يبث برامج أورونيوز. فقُدِّم عرض للموضة ونساء! وصور الإغراء الأولى التي نشهدها غير الأشكال النسائية المحجبة.

واستقبلنا طبيب، وطرح علينا بعض الأسئلة لكي يحكم في وضعنا العام قبل التحقيق الذي جاء M X يعلنه لنا. وفي بعض الأحيان يبقى بعض الرهائن صامتاً عدة أيام، بعد توقيف يلي ضربات أو سوء معاملة تعرضوا لها، فتتقدم الحالة العصبية على إطلاق السراح، لكن الطبيب يقرِّر بسرعة أننا على استعداد لتحمِّل الاختبار. وشيئاً فشيئاً تبدأ حالة الاسترخاء والابتسام، وعبر باب الصالون المفتوح نرى رجال الإدارة العامة لأمن الدولة يتخلون عن تجهيزاتهم كما يفعل فريق الهوكي بعد أن يفوز في

مباراة ساكنة ومبتسمة. وما كدنا ننتهي تقريباً مع الطبيب حتى وصل سفير فرنسا في العراق، برنارد باجوليه، حاملاً قنينة شامبانيا وملفات في يده. ونحن نعرفه جيداً. كنا قد التقيناه عدة مرات عندما كان يؤدي عمله في عمان، في نهاية تسعينات القرن الماضي.

ألا تخشيان أن تعكر الشامبانيا صفوكما بعد أربعة أشهر؟

إنها لفتة لطيفة من جانبه، لكن لا شيء يمنعنا من رفع كؤوسنا.

ومع ذلك، قام جورج الذي أشعل سيجارته بكسر كأسه فور ذلك. وجمعنا السفير حوله وفتح ملفاً أخضر، من عشر صفحات، يعني أنه وثيقة من وزارة الشؤون الخارجية مدموغة بعبارة «سرّي» وتلخص ما جرى خلال احتجازنا.

بدأ يشرح لنا بإيجاز ما جرى فعله من أجلنا: تدخلات جاك شيراك، والوزير الفرنسي للشؤون الخارجية ميشال بارنييه في القاهرة، وصلوات البابا... البابا؟ أما أنا كريستيان، الكاثوليكي، فقد تلقيت هذا الخبر كشرف قدسي! لا نصدق أذنين في ذلك! والسلطة الدينية العليا المصلية من أجل مصير صحافيين مستقلين فرنسيين! وكان احتجازنا قد تجاوز حدود السداسي الفرنسي. فنستمد منه الوعي لكن بشكل لا زال غامضاً.

وتلا برنارد باجوليه سبحته لتحديد الموقف من البعض

والبعض الآخر، في أوروبا والعالم العربي، كما من هذا القدر من الالتماسات لدى خاطفينا. وأدهشنا هذا الالتماس من عرفات والحركات الراديكالية الإسلامية. ولم نعرف شيئاً من التعبئة غير العادية للرأي العام الفرنسي. فقام بها شيئاً فشيئاً كما لو أنه يعتني بأمر صحتنا النفسية، وفي النهاية استأذن بالانصراف وأعطانا موعداً إلى الغد صباحاً في 9,30، ليمر ويأخذنا إلى المطار.

ذهب، وبدأ التحقيق ليدوم ثلاث ساعات على الأقل. وكلف بنا اثنان من الإدارة العامة لأمن الدولة؛ بشكل منفصل. واستمر الطابع غير السريالي لما كنا نعيشه:

ـ عجباً! كم العالم صغير، صاح جورج وهو يرى الرجل الذي سيسأله.

كان قد التقى هذا الخبير في الشؤون العراقية، قبل سنتين في باريس، حين كنا نعد كتابنا عن صدام حسين. وكنا نروي ما جرى يوم إطلاق سراحنا، من بدايته حتى نهايته. ثم استجوبنا الضباط استناداً إلى وثائق سجلت فيها المعلومات التي تبحث عنها دوائرها:

كيف جرى توقيفكما؟ هل حفظتما أرقام لوحات السيارات؟ هل تبادل خاطفوكما أسماءهم؟ وهل ذكروا مواقع خاصة؟ وهل استطعتما تحديد مواقع أمكنة احتجازكما؟

كنا نرد بأفضل إجابة، لكن بعض النقاط بقيت أسئلة، فلم يتنادَ خاطفونا بأسمائهم. أما من جهة وصفهم المادي، فإن جورج، هو الأكثر فراسة منا نحن الاثنين، وقد تذكر تفاصيل فاجأتني. ونحاول معاً وصف الأماكن التي حجزنا فيها، والسيارات المستخدَمة في الانتقال بالحد الأقصى من الدقة. وتوالت التهكمات المتابعة للأسئلة.

ـ هل جاء أحد لرؤيتكما؟ بأية لهجة عربية كان يتكلم سجانوكما؟

ـ كانوا يتكلمون لهجة عراقية قريبة من العربية الفصحى لكنها كانت صعبة الفهم. وكانوا يشاهدون قناتي الجزيرة والعربية.

ـ هل تكلموا معكما بالفرنسية؟ هل كنتما تخرجان من وقت لآخر؟ ماذا كانت أسلحتهم؟ ألم يكن بينهم عراقيون أم كان بينهم أجانب؟

بعض التفاصيل التي تبدو ثانوية تبدو مهمة لرجال الإدارة العامة لأمن الدولة.

ـ هل كان حراسكما يستخدمون هواتف محمولة؟

ـ نعم، حتى أننا أصبحنا مع الوقت نعرف الرنات المختلفة. في وصفنا سنصل إلى حد تفصيل طلقات الصواريخ التي كنا

نسمعها في بعض الأحيان، في الليل. فالانعزال يرهف بعض الحواس القليلة السمو في الأوقات العادية.

وكان أعضاء الجيش الإسلامي يخوضون معارك حقيقية، كان يمكننا تمييزها عن عمليات التدريب البسيطة وكان يحصل أن نسمع سجانينا يقومون بنشر المعادن أو تهريب الأشرطة الكهربائية من أجل صنع القذائف أو أسلحة هجومية أخرى. وذات يوم، قالوا لنا أنهم أطلقوا بعض القذائف على قاعدة عسكرية أميركية. هل كان ذلك صحيحاً؟

الطريقة التي عاملونا بها، وشروط احتجازنا وتطورها كانت موضوعاً لأسئلة عديدة، وهل أبقونا في أقبية أم في منازل؟ وهل كنا ننام على أسرة؟ فالمخابرات السرية بحاجة لأقصى حد من التفاصيل لأجل التحقق من المعلومات عنهم وتثبيت الروايات الكثيرة الخيوط التي كان يُزعم وصولها إلينا.

لقد ظهر الضباط شديدي الانتباه للتواريخ التي نحددها لهم. وهذا مجال لعبت فيه انعكاساتنا المهنية دورها. وكان خاطفونا قد أخذوا منا ساعة اليد بعد 15 يوماً وكنا محتجزين في غرفة معتمة. ومثل القرويين قديماً، كنا نلجأ إلى مَعْلم الشمس أو الظل المنعكس في النافذة الصغيرة للمرحاض. وفي بعض الأحيان كنا ننجح في رؤية منبه في الغرفة المجاورة لنا والتي كان خاطفونا

يقومون فيها بالحراسة . هكذا كنا نستطيع أن نعد الأيام . كنا نعلم التاريخ كل صباح ونردده حتى ينطبع في الذهن . وبسبب فقدان الورق أو القلم كنا نطبع فينا هده الروزنامة التذكرية ، إلى درجة أننا لا نستطيع اليوم نسيانها . وأصبحنا متأكدين أننا أمضينا أسبوعين بدءاً من الجمعة في 20 آب/ أغسطس في المكان الذي عمدنا فيه «المزرعة» . هذه المعلومات تسمح للإدارة العامة لأمن الدولة بالتحقق من أنها رأت الأمور بشكل صحيح في تقصياتها الخاصة ، ولوضع رسم مستقبلي لخريطة مواقف المجموعات الإسلامية .

لقد تكلمنا كثيراً ، وشعرنا بالحاحة إلى ذلك . فإلى جانب التأثّر طويلاً ، كانت أفكارنا تفيض رغبة في مغادرة هذا البلد وسجنه ، لكي نعود إلى أصحابنا .

وكنا في بعض الأحيان نجري مناقشات طويلة مع خاطفينا لمدة ساعة أو أكثر . في هذه اللحظات ، ودون أن نفقد الانعكاسات الصحفية ، كنا نصل إلى أفكار لمقالات مستقبلية ، وكنا نحدد التفاصيل الهامة فيطبخها عقلنا ، ويشكل مسار التذكر جزءاً من علم نفس الرهينة . وكنا نسمع بغير وضوح أصداء صوت الجزيرة آتية من الغرفة المجاورة ، ونحاول التقاط بعض المعلومات . لم تكن لدينا صحف وكان لا بد أن نهمس بين بعضنا بالقليل الذي

كان يمكننا التقاطه عبر ما يفصلنا عنها، وهكذا علمنا خبر موت عرفات، لكن دون أن نعرف حلقة نقله إلى فرنسا والمعالجات الطبية التي بُذلت من أجله. وقد أعلمنا خاطفونا بإعادة انتخاب بوش. وتباهوا بعملية الاعتداء على طابا في مصر وبعلاقتهم «بالشيخ أسامة» كما كانوا يسمون بن لادن، لكن خلال هذه الأشهر الأربعة لم نحصل إلاّ على القليل من المعلومات.

فالرهينة المعزولة عن العالم تنتهي إلى إعطاء أكبر قدر من الانتباه لأدق التفاصيل الصغيرة. وكانت كل الإشاعات الخارجية تنطبع في ذاكرتينا: التلاميذ يحدثون الضجيج والكلب والدراج الناري والحمار قرب المزرعة... وكلما كان الوقت يمضي، كنا نلتقط أقل خبر. وكانت القدرات الفكرية ترهف، حتى وإن شعرنا في بعض الأحيان أننا نفقد ذاكرة الأسماء، كان عقلنا يحلل كل شيء. وعندما يكون غذاؤه جيداً، نفسره علامة إيجابية، وينتعش الأمل فينا. وعندما نُحرم من الشاي، نرى في ذلك نية مقصودة وفعلاً متعمداً. وهل كانوا عصبيين؟ وماذا تحضر جميع هذه الأسئلة؟ هي التي تبدو ساخرة اليوم، كانت تسمح لنا بإبقاء الذهن متيقظاً. وقد حفظنا غيباً كل ما كان يمكننا حفظه: ذات يوم، كان عنوان المطعم على كيس بلاستيكي يحتوي غذاء لنا. وكانت عاملات الخياطة قد ارتكبن حظاً جعل فترة السجن تجر

نفسها . ومرة أخرى، ظل تغليف الدجاج مع الرز تحت أنظارنا . وهكذا كان لدينا تأكيد للمكان الذي كنا محتجزين فيه في إحدى ضواحي بغداد في العامرية، على طريق أبو عريب .

وفي مواجهة الضباط الذين قاموا بالتحقيق، كنا في الوقت نفسه الرهينتين السابقتين والصحافيين . «رهينتان» بذلنا جهودنا لمقاومة التحارب والتوترات المستمرة لتقييم الوضع، و«صحافيان»، كنا مدركين بأن نعيش تجربة خارج المألوف وكنا نريد سردها بأفضل صيغة إذا تخلصنا منها .

كانت الساعة الواحدة والعشرين عندما اكتمل التحقيق . وكنا قد اشتركنا حينها في وليمة برفقة رئيس الإدارة العامة لأمن الدولة، وأحد مساعديه الذي لم نكن نعرفه، وشخص ثالث ينتمي كذلك إلى المخابرات السرية الفرنسية وتكونت الوجبة من السلطة العراقية والدجاج والرز والفواكه والنبيذ الفرنسي . وفي الحقيقة لم نكن جائعين كثيراً . ولأول مرة منذ اختطافنا، نجلس إلى طاولة الطعام ونستخدم الشوكة والسكين والصحن، وكان ذلك كافياً لإشعارنا بالسعادة . وكنا نناقش بشكل متقطع، في مزيج مشوش من الثقة والتباعد . وكنا نعرف الموظفين المحيطين بنا، ونحن مدينون لهم باستعادة الحرية . فقد تجاورنا معهم بارتياح، لكننا لم نكن نجهل أنهم يخفون عنا بعض الأمور .

كنا نروي ونؤكد ونكرر . . وبقدر ما نروي نستعيد وعينا لما لقيه مصيرنا من اهتمام أكثر من مصير بعض الرهائن الأخرى، وخاصة الذين كانوا قد احتجزوا خلال عدة سنوات في لبنان .

وكشف لنا صيوفنا أن المخابرات السرية قد انهارت سريعاً تحت تأثير المعلومات التي لا يمكن التحقق منها، وحتى الغريبة في بعض الأحيان . وكان العديد من الوسطاء يطرقون باب السفارة الفرنسية لكي يعرضوا خدماتهم . ومن البدو من كانوا يؤكدون أن بحوزتهم بعض المعلومات، وكانوا يحاولون تقاضي مقابلها قطيعاً من الماعز أو مبالغ من المال . لكن الإدارة العامة لأمن الدولة المتشككة كثيراً بمثل هذه الآثار لم تكن تستطيع إهمالها أمام خطر الانتقال إلى جانب عنصر أساسي . فكان يجب بالتالي اختبارها بسرعة لكي لا تتطفل على البحث، وتحديد هوية الاتصالات الجيدة للوصول إلينا لم يكن مهمة سطحية . ومن المستحيل أن تُروى لنا جميع اللقاءات التي كان يتمكن محررونا من الوصول إليها دون معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بمخبأ أم بفخ

ورغم أن عقلنا كان في حالة غليان، كان تأثير الخمر والتعب وارتخاء التوتر العصبي يلعب دوره . وبدأنا في حالة النعاس، حتى رحنا نغط في النوم . وحوالي منتصف الليل حدد لنا مضيفونا عرفنا في الطابق الأول . وكانت كل أغراضنا تنتظرنا

هناك! وبعد ثلاثة أسابيع من اختطافنا، كان رجال أمن السفارة العرنسية قد أعادوها إلى الفندق. ويا له من شعور غريب أن يجد المرء أغراضه الشخصية بعد فترة طويلة من الانقطاع فبدت لنا فرشاة أسناننا ومشطنا . . . وأشياؤنا الأليفة غريبة جداً.

ومنذ أن رأى جورج حقيبته سارع في البحث عن بطاقته الزرقاء التي كان قد تركها في أحد جوارير غرفته في الفندق. وطغى الهمُّ المادي على كل شيء، في حالة من الانعكاس. وبالطبع لم يجد هذه البطاقة، وكان يخاف أن يكون بعض الانتهازيين قد سرقوها من أجل القيام بمشتريات عبر الإنترنت. فكانت تقلقه هذه البطاقة الزرقاء، أثناء احتجازنا. وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر كان يريد توجيه رسالة إلى أهله عبر تسجيل الفيديو القريب لكي يدفعوا باسمه إلى خطيبته سيلفيا، سلفة لأحل البيت الذي كان يبنيه، كما كان قد وعد بذلك قبل القبض عليه.

ومع المراجعة، أدركتُ حالات انحراف مفاجئة بأن الاحتجاز قد ولّد في قدراتنا العقلية · إرادة إدارة البطاقة عبر أشرطة من خاطفينا تتعلّق بمنعكس صادر عن الآخرين ويكون مثيراً للاستهزاء بنا.

أما أنا، فإنني أتذكر بالتفصيل هذا الصباح يوم العشرين من

آب/ أغسطس، وكنت قد تركت في الفندق عدستيْ وزجاجة مطهِّرة، وأخذت نظارتيَّ، ووضعت حاسوبي ومفكرني في أمكنة محددة. وفي الأيام السابقة كنت قد قرأت نصف رواية جيمري أوجنيدس التي تروي تاريخ عائلة يونانية مقيمة في تركيا منذ أجيال، وكانت تهرب من تقدم جيوش أتاتورك. ولم أجد هذا الكتاب بين أغراضي، ومع ذلك فلن أفقد الأمل لأن رجال الإدارة العامة لأمن الدولة الفرنسية قد خلطوا أمتعتنا بإعادة ترتيبها. ففي حقيبتي وجدت الآلة الطابعة العائدة لجورج الذي ربما يكون قد وجد في حقيبته روايتي كما مفكرتي وسجلاً للعناوين لدي. وها نحن الاثنان قد انطلقنا بحثاً عن خريطة زرقاء، ومفكرة وكتاب باشر في وضعه.

رغم التعب، لن نستطيع تقريباً إعلاق العين ليلاً. فلأول مرة نستسلم لمتعة الجدل بين طرفين دون قلق الحاضر وشكوك الغد. وكان وقت التجارب قد اكتمل. وسنكون قادرين في النهاية على التفكير في المستقبل، وإعادة بناء معالمنا، والعودة إلى عائلتينا والآخرين الأعزاء على قلوبنا. وتطال مبادلاتنا كذلك الملف الذي سلمه لنا برنارد باجوليه حول تعبئة جميع الذين أتاحوا لنا العودة للحرية.

وبينما كان كريستيان يحاول أخذ حمام دون جدوى لأن المياه

كـانت مقطوعة، كنت أقرأ الوثيقة بصوت عال. وفجأة تعرضت لانهيار. وشعرت بالدموع تطفح من عيني، ولم أستطع الإمساك بها، وغرقت بالبكاء خلال بضع دقائق. فأدى اكتشاف التدخّل المتلغز لجاك شيراك، في 29 آب/ أغسطس في الساعة العشرين، قبل الجريدة اليومية بالضبط، إلى إدراكي للذعر الذي أصاب المواقع العليا في الدولة، بعد أربع وعشرين ساعة تقريباً من الإنذار الموجَّه إلى فرنسا من قِبل خاطفينا. وكان كل واحد يتذكر أنهم كانوا يطلبون سحب القانون، المتعلق بمنع لبس الحجاب في المدرسة خلال يومين. كان مثل هذا الصعود إلى مواقع رئاسة الجمهورية استثنائياً. فهل كنا نقترب من الموت؟ وكانت المسألة تملأني رعباً.

وهل صلينا معاً ذاك المساء، كما اعتدنا ذلك أثناء الاحتجاز؟ مستحيل أن أتذكر ذلك.

ونمنا تلك الليلة، وأسهم الإحساس بملمس الشراشف النظيفة في إعادتنا إلى الحياة الطبيعية. وكان سحب القماش والغطاء على جسدينا يشعرنا بالرائحة الطيبة للشراشف النظيفة، بقدر من مشاعر السرور التي كنا نتحسسها بابتهاج. وأثناء احتجازنا، كنا ننام على فراش رقيق من القش يتسبب لنا بالآلام في الظهر. وفي

هذه الليلة الأولى، عدنا أخيراً إلى الفراش المريح المتين الوثير.

وفي صباح الغد، في الساعة السادسة، بعد ليلة بيضاء، ذهبت إلى النافذة. كان الفجر يبزغ على بغداد، حاملاً معه الرياح الرملية. وتذوقتُ نهوضي الأول كرجل حر، ورؤيتي الأولى لشمس الصباح. وفي غرفة الحمام المجاور للغرفة، أنهيت حاجات هندامي ثم لبست ثيابي «المدنية» التي أخذتها من حقيبتي. وتحليت أخيراً عن اللباس الوحيد الذي أعطانا إياه الخاطفون، والمكوَّن من بنطال فوقاني وقميص قطني، وكنزة أمريكية عليها كتابة ساخرة، معهد لانغلي النسائي (سخرية غير متعمدة: لانغلي، هي مقر المخابرات المركزية الأميركية). ولم أعد أستطيع رؤيتها في سلة المهملات ما عدا الكنزة التي احتفظتُ بها. ونزلت إلى الطابق الأرضي، حيث كان ينتظرني فطور وافر مع المربى والفواكه والقهوة. واستشعرت من جديد أحاسيس المتعة المنسية. فمتعة القهوة مثلاً، تمحو من ذاكرتي الشاي العراقي القوي جداً. فالتهمت، متحمساً شهية قوية للحياة وشعرت بما يشبه أنني لم أنم. ومنذ عدة ساعات كان لدي الشعور بإعادة تعلم المشي والأكل وصعود الأدراج. وبعد ساعة تقريباً، ظهر كريستيان أخيراً.

ـ إنك تستعيد بسرعة وتيرتك في النوم العميق. تهاني لك.

ـ العادات الحسنة، تُستعاد دائماً. والبرنامج يتوقع الذهاب في التاسعة والنصف، وليس لديّ أي مبرر للاستعجال.

ـ الساعة الآن الثامنة والنصف تقريباً!

ـ دعني أعتقد أن عودتنا إلى الحياة العادية لا تعني ديكتاتورية المنبه على الأقل، ليس على الفور.

وتناول فطوراً بشهية ممتازة، وهو يروي لي الإحساس الذي شعر به في غرفة الحمام. فموسى الحلاقة القديم ذو الشفرة المنبسطة، وقنينة العطر الشانيل، ومعجون الأسنان والفرشاة، كل هذه الأشياء اليومية سمحت له بشكلها المتواضع باستعادة الشعور بحياته: بحلق دقنه وباستخدام الماء في الحمام، وبإعادة ارتباطه بالناحية الصحية والرفاهية. وبدوري قلت له كيف استعدتُ الإحساس بجسدي، بارتداء الملابس الشخصية النظيفة.

فقد التقى قميصي القطني مع قميصك في قعر سلة المهملات.

وصل السفير إلى المنزل في الساعة المتوقعة، في سيارته المصفحة رقم 607 والحاملة الشارة الوطنية للسفارة الفرنسية. وكان الوضع يقتضي حضوره من أجل حل الصعوبات المحتملة المرتبطة بتأشيراتنا المنتهية مدتها أو لاجتياز الحواجز للوصول إلى

المطار. كنا ننتظر بفارغ الصبر الضوء الأخضر في المطبخ، أمام فضلات ما ستشكل دون شك أحد أهم تطور لنا في حياتنا. وعندما تصبح الطريق حرة، نأخذ مقعدينا في مؤخرة البيجو، من هذه الجهة والجهة الأخرى للسفير. وبرفقة عدة سيارات، وبعد انتهاء المهمة، يعود رجل مفرزة الإدارة العامة لأمن الدولة مثلنا إلى البلاد.

أثناء توجهنا نحو المطار، كان الدبلوماسي يعرض لنا بالتفصيل الجهود التي بذلها من أجل الحصول على إطلاق سراحنا. فأكد أنه بدأ الحوار مع الخاطفين عبر الرسالة الإلكترونية، الأمر الذي لم ينقصه أن يثير مفاجأتنا. ثم ذكر ببعض الكلمات بمغامرة جوليا في آخر أيلول/ سبتمبر، كمفاجأة أخرى، كبيرة مثل الأولى، قبل أن يرسم لنا لوحة عن الوضع السياسي في العراق. ففي لحظة حطفنا في 20 آب/ أغسطس، كانت القوات الأميركية تحاصر النجف، وكان مقتدى الصدر لم يزل في مسجد الإمام علي. وأعلمنا برنارد باجوليه أن قائد التمرد ألقى السلاح. أما الانتخابات التي كان يعتقد الكثيرون أنها لا يمكن أن تجري، فقد ثبتت في الثلاثين من كانون الثاني/ يناير 2005.

فأذهلنا هذا الخبر. وتابع قائلاً أن العلاقات بين فرنسا

والعراق سيئة، وخاصة مع رئيس الحكومة علاوي، إلى درجة أن الرئيس شيراك الذي كان لا بد أن يلتقيه في بروكسل، اتخذ من مناسبة وفاة الشيخ زايد المسؤول الأول في الإمارات العربية المتحدة، مبرراً لتجنّب مقابلته. هذا الإيضاح للوضع استأثر باهتمامنا. لكنه قطع تقريباً باتصال هاتفي من ملك البحرين الذي تمنى لبرنارد باجوليه عيد ميلاد سعيداً. ورسمنا ابتسامة مريحة. فسيكون عيد ميلاد عام 2004 أسعد الأعياد التي مررنا بها وسيبقى مميزاً إلى الأبد.

وصل الموكب إلى أول مركز مراقبة. وتجاوزناه دون عائق. وفي المركز الثاني، بعد أقل من كلم واحد، قرب المطار، اضطر مندوبو الإدارة العامة لأمن الدولة والسفارة للتفاوض. فكان بإمرة أميركي ومساعدة فيجيين مسلحين، مكلفين من قبل جمعيات خاصة القيام بالتحقق من هوية العابرين. وكان يماثل الجندي بمظهره. ويشبه بالأحرى حارساً خاصاً يرتدي الجينز وصدرية واقية من الرصاص، ويحمل بندقية رشاشة صغيرة. ورغم الإعلان عن إطلاق سراحنا على قناة الجزيرة ليلة البارحة، فهو كان يجهل بشكل واضح من نكون نحن. وبقينا دون تحرك عدة دقائق قبل عبور الحاجز، وحتى دون إبراز جوازي سفرنا.

ووصل الموكب إلى المطار . ويعرف الفرنسيون المنطقة جيداً . ولم يسلك موظفو السفارة طريقاً سورية أو أردنية ، تجنباً للمرور في المناطق الخطرة . ولا يتنقلون إلا عبر الطائرة . ومع ذلك فهو خيار يحمل الكثير من المخاطر . وفي الرحلتين اليوميتين من بغداد إلى عمان ، في الساعة 8و13 ، تشكل طريق المطار في الصباح تهلكة حقيقية . فمن أحل الحضور ، كما يجب ، قبل ساعتين من موعد الإقلاع يضطر المسافرون لعبور ليلي لحوالى 20 كلم عن بغداد . وفي كل صباح تقريباً ، تقع هجمات على هذه الطريق التي تمتد إلى منطقة للمقاومة . ومن هنا كان عزاؤنا الذي وجهناه البارحة عندما علمنا أن طائرتنا تقلع في حوالى الساعة 13

أصبحت منطقة النقل الجوي معسكراً حقيقياً مقتطعاً . وسدت السلطات الطرق الرئيسية للوصول إليها . تتبع سياراتنا طريقاً جانبية ، وتركن قرب المدرج . وتدخل إلى محطة المطار عبر مدخل يقع وراء المبنى . ويحمل رجال الإدارة العامة لأمن الدولة الفرنسية حقائبهم وربما على الصدور ، لكن دون أي سلاح ظاهر ، وكان عراقيون منتظرون لرحلتهم ينظرون إلينا غرُ دون ردة فعل خاصة . وتقدم أحد مسؤولي المطار موجهاً التحية للسفير وتعرّف إلينا .

ـأهلاً وسهلاً، قال لنا بالعربية، قدوم مبارك وعودة جيدة إلى الحياة الطبيعية.

كانت مجموعتنا تعد حوالى عشرين شخصاً. وبعد الوصول إلى مراقبة جوازات السفر، وقفنا في صف هندي واجتاز أول رجل من الإدارة العامة لأمن الدولة المراقبة دون أية مشكلة، ومرَّ كريستيان بدوره أمام مستخدم الجمارك، وكان هذا الأخير قد رأى أن تأشيرته قد انتهت مدتها، لكنه ختمها دون أن يقول أية كلمة، فهل كان قد دُسَّ إليه بخشيش سراً؟ وهل عرفنا ولا يريد إرباك رحيلنا؟ أم بكل بساطة، يظهر استرخاء مألوفاً في بعض المصالح الإدارية للشرق الأوسط؟ ومرَّ السفير بدوره، لكن دون تقديم جواز سفره للختم لأنه باقٍ في بغداد. وأصبح الجميع بالتالي بعد منطقة الشرطة. ولم تظهر أية لحظة توتر واحدة. وأظهر عراقيون رسميون أنهم مسرورون برؤيتنا وهنأوا رجال الإدارة العامة لأمن الدولة الفرنسية بعمليتهم الرائعة. وهنأنا البعض. نحن معكم، برافو. مؤكدين لنا أن الفرنسيين سيكونون دائماً مرحباً بهم في بلدهم.

ثم سار كل شيء بسرعة، وما كدنا نطلب الشاي حتى أعلن لنا وصول الطائرة الآتية لتأخذنا.

وقمنا إلى الخارج. وحطت طائرة هيركول C130 في آخر

المدرج، وتعرف سلطات المطار هذا النوع من الطائرات التي تؤمن نقل موظفي السفارة والحقائب الدبلوماسية. بدا الصمت على الجميع، فقد كانت المخاطر جدية. وفي خارج المبنى أشار لنا أحد موظّفي السفارة إلى آثار قذائف الهاون التي تطلق كل ليلة. ورأينا في زوايا المدرج الأربع، وعلى ارتفاع حوالى مئة متر، مناطيد مراقبة مزودة بآلات تصوير.

يقوم عسكريون بتثبيت دواليب الطائرة، وينقلب جسدها الخلفي، وتجتاز مسافة المئتي متر التي تفصلنا عن المعبر. وتتحرك سيارات الجيب حتى الطائرة، حاملة الأمتعة والحقيبة الدبلوماسية ومعدات الإدارة العامة لأمن الدولة. كان الطقس جميلاً جداً ذاك الصباح. ورغم الشتاء كان الطقس صافياً. وظهرت صورة للجيش في بعض الكليشهات، وحيينا الفريق وصافحنا بعض الأيدي. ثم قمنا بمهمات الوداع للسفير.

- سنبقى على اتصال. وسيُقدم غداء في باريس، قال لنا مع ابتسامة كبيرة منفعلة.

كذلك كنا نحن منفعلين. ولم نتوصل لتصديق أننا نغادر الأرض العراقية بسلامة ومعافاة!

إضافة إلى مغاوير الإدارة العامة لأمن الدولة الفرنسية كان M.X يشارك في السفر، وكذلك صاحب الموقع الثاني في

السفارة، فرانك جيليه، والطبيب الذي تبعنا منذ وصولنا إلى الفيلا كما حضر معنا عالم نفس قادماً من باريس.

كان جورج قد سافر في طائرة الهركول C130 عندما كان يعمل في الدائرة السياسية لهيئة الصليب، أما أنا فقد كنت أضع رجلي في طائرة عسكرية لأول مرة. وتعرفتُ على صفي المقاعد الملتصقين بحجرة الطيار، والأحزمة الكبيرة المستحيل ربطها تقريباً. . . وفي وسط جسم الطائرة قام الرجال بجمع كومة من الأمتعة، والحقيبة الدبلوماسية، ودولاب كبير للنجدة تساءلنا حول ما يمكن أن يؤديه من خدمة.

وعرض علينا أن نشهد الإقلاع من حجرة قائد الطائرة. فقمت بذلك بسرور وفضل جورج البقاء في مقعده. وفي الواقع، فقد تطور كل ما، منذ إطلاق سراحنا، في خط متواز تقريباً. ليس لأن علاقاتنا قد توسعت، بل لأننا نستطيع تصور عودتنا إلى فرنسا في مثل هذه الظروف. وتجري مغامرتنا العراقية بشكل عريب جداً. . . وها نحن محاطان بأشخاص يبتسمون لنا بحرارة، لكن هذه الوحدة تثقل علينا قليلاً. ولم نزل يتملكنا الشعور بأننا لسنا حرّين في حركاتنا، وفي موقع لن يُفتح على حرية تامة إلاّ عندما نجد أننا أصبحنا عد عائلتينا.

وكان ملاحو الطائرة يعلموننا بأمر مفرقعات كنا نخشى

سماعها. وفي الواقع كانوا يطلقون في حال الخطر ملاوح تبعد الصواريخ المحتملة عن الطائرة، كما فعلوا خلال عملية الهبوط في بغداد. وشعرتُ حينذاك بلحظة الخوف الأخيرة في الأرض العراقية، عند تذكر الطلقات المعادية المحتملة، قبل أن أستعيد رباطة جأشي بعد ذلك. حتى وإن كان الماكرون أمامنا ليسوا لطفاء أعرفهم بعد أن جمعت عدة تحقيقات في أبو غريب المجمع القريب من المدارج فإن الإقلاع من بغداد يجب ألا يشكل تجربة لا يمكن تجاوزها، خاصة بعدما مررنا به.

كان الإقلاع يتم بشكل لولبي، كتقنية أخرى لتجنّب الصواريخ. ويقوم المبدأ على الصعود إلى الأعلى في المجال الأدنى الممكن. وتبقى الطائرة فوق المدرج، وداخل المنطقة الآمنة، حتى تصبح مرتفعة بالقدر الكافي لتأخذ اتجاهها المقصود.

كل شيء كان يجري على أفضل وجه. ولم نتعرض لأية رماية، أو أية خديعة. وبعد ذلك لمحت بغداد بكاملها ورأيت القصور المشهورة لصدّام حسين، التي كان بعضها يجاور المطار. وأُحصيت منها ستة قصور فخمة وضخمة ومحاطة بالحدائق الجميلة. وكانت الشمس تنعكس في أحواض ماء تمر الجسور فوقها في الرؤية الأخيرة لبغداد.

وبينما كان كريستيان في غرفة الملاحة، بقيتُ منشغلاً بأفكاري في قلب الطائرة. واستعدت نفسي أصل إلى الشرق الأدنى، قبل أحد عشر عاماً، في صباح يوم من كانون الثاني/ يناير عام1994 نازلاً في مرفأ حيفا الإسرائيلي، وراء مقود سيارتي 205 المسجلة في باريس، لمدة أسبوع سفر في البحر المتوسط، وكانت السماء صافية ذاك اليوم. كنت أشعر بالحرية وكانت المغامرة في بدايتها. واتفاقات أوسلو بين الإسرائيليين والفلسطينيين حديثة التوقيع. وكان الأمل في السلام يولد، وذهبت في رحلة لمدة ستة أشهر. وبالإجمال كنت آمل البقاء أكثر من عشر سنوات، عشر سنوات مثيرة للاهتمام ومثيرة للحماسة في معظمها، لكنها كادت تنتهي بشكل سيىء جداً. واختلط سرور الأحلام بالخوف من مخاطبة الموت بصيغة المفرد. كان ذلك هو الالتباس في ذهني. وذهبت مجهولاً، لأعود إلى بلدي مع أشكال التكريم من الجمهورية ورغماً عني، فأية صورة أحتفظُ بها للشرق الأوسط؟

عاد كريستيان ليجلس بيننا. وكان رجال المغاوير قد تجمعوا في مؤخرة الطائرة. وكان معظمهم بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين من العمر، وقلما يتكلمون. واحتل الركاب الآخرون مقدمة الطائرة، وكان أحد مسؤولي الإدارة العامة لأمن الدولة يراجع بجدية دروسه العربية. وعلمنا تتمة البرنامج: اتجاه نحو

القاعدة العسكرية بافوس في قبرص، ودام السفر أربع ساعات.

ولم يكن لدى هركول رخصة بالتحليق فوق إسرائيل وسوريا، فكان مضطراً اتباع دورة كبيرة عبر الأردن ومصر والعقبة والبحر الأحمر وسيناء والإسكندرية.

وكان عالم النفس يريد أن يكسر عزلتنا الظاهرة، فعرض علينا مناقشة خلال المسير، فانزويت معه، ودام الحديث بيننا نصف ساعة. وكان لا بد من تحقق أكثر عمقاً وانفعالاً من البارحة. وفضلاً عن ذلك أدركتُ أنني منكمش كما لو أنني على كرسي الاعتراف.

لقد جمعت كثيراً من التوتر العصبي خلال أربعة أشهر ويجب إخراج هذا التوتر. والتدرّب على الكلام ضروري.

وذكرت الصلوات التي كنا قد اعتدنا القيام بها معاً، اعتباراً من بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وهز رأسه قائلاً:

ـ كانت تلك طريقتك في طرد حالة الضيق.

ثم كان دور كريستيان بالتحدث معه، بينما كان العسكريون يفتحون خزانة الطعام، وفيها الخبز والسجق والفطائر والكفتة والقناني والكبد على طاولة بلاستيكية لينة في وسط الطائرة. أخذ كريستيان شطيرة خبز مع الكبد في وسط الطائرة. وقال لي بعد ذلك أنه في الوقت ذاته. أسرَّ إلى عالم النفس بالذعر الذي ألمَّ به عند تسجيل الشريط، تحت التهديد، في تسجيل ظنَّ خلاله أنه

يموت. وشرح له الطبيب بتعابير فرويدية أن هذا الشعور يُدعى الرعب: ويشعر به شخص معين حين يكون في مواجهة موته الحقيقي. فحينذاك يحدث نوع من العنف الداخلي، ليصل إلى أحد مستوياته الأكثر ارتفاعاً على مقياس ريختر للخوف. ولم تقلقه حالتنا لأننا وصلت إلى التعبير عن رأينا بشكل صحيح، وفضلاً عن ذلك لم نتحمل الضربات ولا إساءات المعاملة. وقد لقي الصحافي الفرنسي ألكسندر يوردانوف الذي خطف في نيسان/ أبريل 2004 من قبل المجموعة ذاتها، مصيراً أقل رغبة فيه وأذله خاطفوه وأخفوه في مصنع للإسمنت وتعرض للضرب وقلة التغذية. ورغم أن احتجازه لم يدم إلاّ بضعة أيام، فقد عاش بعد إطلاق سراحه أسبوعاً في غاية الصعوبة كان خلاله يعاني من ضعف القدرة على الكلام. أما نحن، فقد كان من حسن حظنا عدم توفر الفرصة للفصل بيننا. وبالإجمال فقد توصلنا إلى أن يدعم أحدنا الآخر.

ومع خاطفينا كنا نتكلم بالعربية، ونبذل الجهود للاتصال إلى درجة أصبحنا فيها مطالبين في بعض الأحيان إذا لم نقم بالكثير منها. فعالم النفس يعيد تأطير الأمور:

ـ كانت استراتيجيتك للبقاء تمر من هنا. فكل فرد، في وجه أية كارثة، يرد بشكل مختلف تبعاً لماضيه أو طبعه. وموقفك لا

يستوجب النقد وتستطيع أن تبكي دون احمرار، اليوم كما غداً. ويمكن أن تجتاز حالة اكتئاب خلال أربعة أو ستة أشهر. فيجب إخراج الضغط المتراكم. سأتبعك وأبقى تحت تصرفك في فرنسا من أجل مساعدتك

ثم أرسل لنا رئيس الإدارة العامة لأمن الدولة مجلة صحفية كثيفة من حوالي خمسين مقالة مصورة. وأدركنا هذه المرة بشكل حقيقي الإنذار الذي كان يقتضي، بعد أسبوع من خطفنا، إلغاء القانون المتعلق بالحجاب خلال ثمان وأربعين ساعة. واكتشفنا التعبئة غير العادية التي سادت في فرنسا، والعناوين الصحفية التي تحدثت عن الحساب إلى عكسه، عن جلجلة عائلتينا. وأدت هذه العصا الحديدية التي فرضت على شعب عبر حياتيا، إلى خنق صوتنا. لكننا نجد في هذه المقالات كل شيء وضده. فيقال هنا أننا تعرضنا للبيع والشراء من مجموعة إلى أخرى. وهناك أننا شكلنا معايير للجيش الإسلامي. حتى وصل الأمر إلى أن تزعم مجلة أسبوعية أننا رقصنا في المساء في زنزانة الاحتجاز بعد أن زودنا مبعوث سري بشريط إلكتروني CD!

لكننا ندقق خاصة، ولأول مرة، في هول قضية بريت جوليا. وبدأنا ندرك ما جرى في فرنسا حول اختطافنا. ويشكل الملف الذي كان قد أعطانا إياه السفير في بغداد موجزاً لذلك. لكن

التفصيل فيها كان مذهلاً، ونحن نقلب الصفحات التي عرضت صورنا فيها.

وكان M X قد وصف لنا عمق الموجة التي حركت الرأي العام الفرنسي، والعريضة التي جمعت 70 ألف توقيع، وصورنا في فندق مدينة باريس. والرسائل المبثوثة يومياً على الهوائيات الفضائية وعلى ألسنة ممثلين ومطربين: أدجاني، ودونوف. . . وكنا نقرأ سيرتنا الشخصية، بالقدر الكافي من الصحة في مجملها. واعتقدنا، في بعض الأحيان، أنه كان يمكن اعتبارنا أشخاصاً متهورين ومتحمسين لساحات الحروب. . . وعلمنا أن معظم المقالات تقول جيداً من نكون نحن، وماذا كنا نفعل هناك، وكان هذا يمسنا.

بالطبع كنا نقلل نسبة جرعة البؤس التي تُرش في بعض الصفحات، فيُشكى من نظامنا في الأجر الصحافي على السطر، بينما نكسب عيشنا ولا نطلب شيئاً من أحد. وإذا كلفتنا كتبنا ومقالاتنا قدراً من الحرية، فإن شرط الاستقلال يلزمنا بأن نتدبر أمرنا وحدنا. ولا نخضع لرقابة دائمة في عملنا. ولم نفاجأ بالعودة وحدنا إلى باريس بعد شراء تذكرة الطائرة في بغداد.

ولم نكن نتصور أن قصتنا قد أخذت مثل هذا البُعد. ويتجاورنا حدث مماثل، كما فعلت الفيغارو التي كانت تنشر صورتنا كل

يوم مع التذكير التالي: شينو ومالبرونو، أيام في الاحتجاز. وفي الواقع، عبْرنا ومعنا، كانت فرنسا كلها تعتبر نفسها رهينة. رهينة شعب ليس فقط أدت إليها سياستنا بل كانت تنتظم إلى جانبها دائماً. رهينة إسلامية كانت فرنسا تعتقد أنها عرفت الإمساك بأشكال فجورها.

وبكل أسف أن هذا الاختطاف يمكن أن يشجع عندنا بعض الأمزجة العجولة والطائشة والموجبة للأسف بسرعة. ونتمنى أن يتمكن الفرنسيون، الذين ليسوا هم في واقع الشرق ودقائق العالم العربي، من الإطلاع على واقع الأمور.

تابعت الطائرة مسارها دون عائق وكان كريستيان غارقاً في التفكير. وكما البارحة مساء في غرفتنا في بغداد، تفحصت بانتباه جميع الوثائق، وكل المجلة الصحافية. واكتشفتُ صورة ظهر فيها أهلي يذرفون الدموع. وقبل ساعات من موعد الإنذار، تؤكد الأسطورة قلق السيد والسيدة مالبرونو. فانفجرتُ باكياً وسط هؤلاء الرجال المدربين على الحرب في جميع الأوضاع وأهملت النظر إليهم. وتخليت عن كل حياء واستسلمت للتراخي. ألم أكن أتحمّل تبعة الإهمال؟ أيجوز تعذيب الوالدين بهذا الشكل؟ وتحميلهما فوق عبء السنين السبعين معاناة خطف ابن خطفاً مشفوعاً بإنذار وتهديد بالموت؟!

وفي الصورة، أصاب الانهيار أبي أيضاً. وفي الواقع لم أكن قد رأيته يبكي أبداً ومع ذلك فقد شهد الجلجلة، منذ زمن بعيد. ولم أكن قد شاركته أوقات ضيقه. واليوم، يذكرني ألمه بكل ما أمكنه تحمّله، هو الذي كان قد فقد والديه وأختي الفتية. وعدت بالقسوة إلى جذوري وعائلتي التي لم أتمكن من الاحتفال معها بعيد ميلادي، منذ عشر سنوات. أما والدي المسكين الذي كان يعيش بعيداً عن الحياة العامة، فقد تواجه فجأة مع شهية الوسائل الإعلامية. وعلمت بعد ذلك أن صحافيين جعلوا البيت العائلي مركزاً لهم، وأن عربات التلفزيون كانت مركزة في الحديقة، حول خيمتهم حيث تجري حياة هادئة. «وهم أشخاص يقومون بالمهمة ذاتها التي تقوم بها أنت، سيقول لي والدي. وكبحهم يعني التبرؤ منك. وفي كل حال، إذا لم نكن نتصل في الحد الأدنى، فإنهم يختلقون قصصهم الخاصة».

فنهضت وذهبت إلى آخر الطائرة. ونظرت عبر الكوة للتخلاص من صورة والدي في دموعه واختليت بنفسي صامتاً. ولم أعد أعرف أين هو كريستيان.

كنت أرى جورج في أفكاره، وعيناه تغوصان في الفراغ. ولم أجرؤ على إزعاجه. كانت الساعات تمر. وبدأ الزمن يثقل علينا. وجرت الأمور سريعاً قبل الإقلاع... والآن يغفو كل

واحد في زاويته . وسألني M X إذا كنت أحب الموسيقى . بالطبع أحبها حتى العبادة! وخصوصاً الجاز . كنت أحلم بها في الاعتقال . وأستعيد الأسطوانات في خيالي . وأتصرف بالطريقة نفسها مع الوجبات فكنت أتخيّلها . وكنت آكل افتراضياً حوالي عشرة محارات مع الخبز الطازج والنبيذ الأبيض الجيد، وهكذا اكتشفت ما هي ذاكرة الذوق . فهو يحتفظ بالأحاسيس المعروفة . وكنت أستطيع أن أتذكر اللحم مع الجبن إلى درجة يسيل معها لعابي كما لو أنه يحصل أمام قطعة لحم حقيقية وصلصتها الموقظة لحليمات عصبي المصري . . .

لذلك قدم M.X لي عوناً عبر جهاز إيبود الذي طُبعت عليه آخر أسطوانة للمغني رينود فأصغيت إليها هنا في الفضاء كأنني في الجنة .

وقبل الهبوط على أرض بافوس، القاعدة العسكرية الإنكليزية السابقة في الجزء اليوناني من قبرص، أعطي كل منا سُترة الطيار المشهورة . فهل يجب أن نلبس برة كاملة لأجل المرور غير المرئي؟ إنه لا جدوى من ذلك . ولا ينتظرنا على المدرج إلاّ ضباطاً بالـلـباس المدني، ومنهم ميشال بارنييه وبيار بروشاند ومسؤول الإدارة العامة لأمن الدولة . وقبل النزول من الطائرة، وجهنا التحية للرجال المغاوير شكراً لهم . فأجابوا برد تقريبي .

وكانوا قد قاموا بمهمة لم يكن الاغتباط فيها من نهجهم . واستمروا في طائرة الهركول متابعين طيرانهم نحو فرنسا . أما الآخرون وعالم النفس، فرانك جيليه، وM.X نزلوا معنا . وكانت طائرة الفالكون 900 التي يجب أن تنقلنا إلى فرنسا قد أصبحت على المدرج ومستعدة للإقلاع .

واستقبلنا مسؤولون قبرصيون . ثم تقدم الوزير نحونا، مسترخياً في معطفه الرياضي وبنطاله الرمادي .

أنا مغتبط لرؤيتكما في صحة جيدة . وسعيد للتعرف إليكما، حتى وإن كان لديّ الشعور بأن أعيش معكما خلال أربعة أشهر .

ثم عرض علينا الناطق باسمه أن نستدعي أقاربنا .

لا همّ، لقد قمنا ببرمجتها، قال ذلك وهو يقدم لنا جهازي التقاط لقمر الثريا .

وفي الطرف الآخر أدركت أمي الإشارة على الفور . وكانت مع ابنة أخي وسيلفيا في سيارة وفي الطريق إلى فيلا كوبلاي . غريب أنني أحسست بنوع من الاحتباس بيننا، وبشيء من الفتور، في خليط من الكرامة والتعقل . فهل ابتعدت عنا هذه الأشهر من التمزق؟ وصار العقل يقود أكثر من القلب، والدرع الذي كانت «سيلفيا مصفحة به» من أجل البقاء في الانتظار، لن يبدأ في التشقق إلاّ عندما نصبح على رصيف فيلاكوبلاي .

وطمأنتُ أهلي بأن كل شيء جيد. وأنا في حالة جيدة صحياً ونفسياً. وعلمت حينذاك أن والدي في حالة توعك. فقد أدى القلق به إلى مشكلات صحية استلزمت معالجة صغيرة. وصممت على الذهاب إليه في أسرع ما يمكن، الأمر الذي سأقوم به بعد غد، وترك كريستيان وعائلته في قاعدة سيركوت.

أما الآن، فقد أنهى اتصاله بشقيقته آن ماري.

ـ تحيتي لك، هذا أنا. لقد انتهى الأمر وزال الكابوس. أنا في أحسن حال. وأنا قادم، لا تقلقي، نحن في أمان مع وزير الشؤون الخارجية الفرنسية.

ثم نكلم مع أمه، وهي امرأة قوية، ولا تنهار أبداً. وسمعت كريستيان يقول لها.

ـ لقد تلقيت الأمر بثبات وأعود سليماً. حضري المحار وكبد الاوز المسمن. سأكون عندك هذا المساء

كانت طائرة الفالكون على بعد عشرين متراً عنا. حتى لن ندخل إلى مبنى المطار. وبعد دقائق تقريباً من مغادرة طائرة الهركول نلتقي بحوالى عشرة أشخاص في الطائرة النفاثة حيث يستقبلنا مضيف كامل التهذيب ويتوجه بنا إلى صالون صغير. وجلسنا أربعة حول الطاولة، مع ميشال بارنييه وبيار بروشاند الذي كنت أعرفه في أواسط التسعينات، حين كان سفيراً في

إسرائيل. وأعلمنا الوزير أنه حلب بعض القناني من قبو وزارة الخارجية في الكيه دورسيه. سانت إيتيف وبوياك وغراف!

ـ أيها تفضلان؟

ـ أوه... البوياك.

ثم قال الوزير، سنتذوقها كلنا جميعاً. يا سيد مالبرونو، ألا تريد نزع كنزتك القديمة؟ فأقدم لك كنزتي إذا رغبت في ذلك.

نبيذ بوردو، وكنزة وزارية من قماش كشمير. . تبدو الحياة جميلة فجأة. وتُقدم لنا وجبة ممتازة، الأولى منذ إطلاق سراحنا. لنبدأ بسلطة القريدس والقشريات والسلمون، ثم كبد الاوز المسمّن، والسمك، وأخيراً الحلوى بالشوكولا والقهوة.

وروينا للوزير بارنييه المراحل الكبرى لاحتجازنا في سرد للوقائع المجردة من الانفعال قدر الممكن. أما هو فقد شرح لنا مطولاً تصاعد الضغط في البداية، وبعد الإنذار الشهير. وكان جاك شيراك قد طلب على الفور القيام بجولة في المطقة. ونددد البعض «بدبلوماسية العمامة» التي كان بارنييه قد مارسها في العواصم العربية. وعبَّر عن أسفه لهذه التفسيرات بينما كان يبذل الجهد لدفع ملفنا إلى الأمام. وقد شرح لمدة عشرين دقيقة على قناة الجزيرة أن القانون المتعلق بلبس الحجاب لا يمت بأية صلة لشيء من اللذة واللهو! وكثيرون من أبناء الشرق الأوسط، بدءاً

بخاطفينا مقتنعون بأن مسلمي فرنسا يعيشون تحت الاصطهاد، وأنهم يُحرمون من الحريات الأساسية . فكان بارنييه مضطراً لشرح الموقف الفرنسي . وفي مواجهة الخطر، كان لا بد من تشديد القول والتصرف لجعل مسألة إعدامنا شأنا مستحيلاً ووضع الخاطفين في مواجهة الرأي العام العالمي، بما فيه الرأي العام للشعوب العربية . وسيتمكن خاطفونا من فك رموز الرسائل .

ولم توفر الانتقادات بيار بروشاند . فالاثنين الماضي، وجّه البعض اتهامات المراوحة في المكان والتراخي في بذل الجهود، للإدارة العامة لأمن الدولة . ومن المستحيل وخاصة حملة إدوارد بالادور الذي كان يتساءل ما إذا كانت دوائر المخابرات على مستوى الوضع .

أثناء ذلك، كان عشرات الأشخاص منشغلين ليلاً نهاراً، في أزمة الحزب الشيوعي في ثكنة مورتييه في باريس: تعبئة الأقمار وعمليات الإصغاء والاعتراض لأكثر من 70 ألف اتصال هاتفي، والتقاطع الدقيق للمعلومات، وتفحص الميادين الأكثر إثارة للشكوك .

ثم تناول ميشال بارنييه قضية حوليا . وأفضى لنا بغضه ضد الدور المزدوج الذي يُتهم به خصوصاً بتسهيل الحصول على

التأشيرة لهذا النائب. وقال إنه لم يكن معترضاً على ذلك · وكان يعود إلى ديديه جوليا بأن يثبت صدقيته. فلم يثبت في الواقع إلاّ عدم كفاءته. وأدى رد من الوزير في الساعة اللاحقة إلى مؤتمر صحافي اتهم فيه الحكومة بوضع عائق أمام إطلاق سراحنا وإذ جاءت النتيجة وخيمة لنا فقد تحولت هذه القصة إلى شأن للدولة. فهل كنا التقينا ديديه جوليا أو أي وسيط فرنسي؟ كلا لم نر أحداً، ولم نعلم شيئاً عن هذه الحادثة الخيالية أثناء احتجازنا. ولم نُنقل في أية حالة إلى الحدود السورية، كما لم نر أبداً فيليب بريت، ولا أي أجنبي في زنزانتنا. وإن كان تجرأ أن يقول إنه كان برفقتنا، فإنه يثير استنكارنا.

وحسب بيار بروشاند، فإن قضية جوليا قد حطمت بوضوح واحداً من محالاتهم الجدية ونحن نحقّق في الوقائع والذكريات. ففي ذاك الوقت، في نهاية أيلول/ ستمبر، كنا نشعر بعصبية الخاطفين حيال أمهم. وكانوا يشتكون من وجود الوسطاء الكثيرين جداً ويتساءلون إذا لم يكن الفرنسيون يقومون بدور مزدوج من أجل كسب الوقت.

ونعود في مكان لاحق إلى هذا الشأن المؤسف.

وخلال هذا الحديث الطويل، قدّم لنا المضيف علبة صغيرة فيها شريطان زخرفيان باسمنا، وشبكهما بدقة على سترتي

الطيار اللتين قدمتا لنا. وناقشتُ مع الوزير في السياسة الفرنسية. وكانت ذكرياتي بعيدة، لكنني أتذكر أن ميشال بارنييه كان أصغر نائب من فرنسا في سبعينات القرن الماضي.

هل تتذكر ذلك، أجابني! مع ذلك، عندي طرفة حول هذا الموضوع.

وروى لنا الوزير كيف كانت أمه اليسارية قد رجرت جاك شيراك، في مهرجان داعم لترشيحه نائباً حينذاك.

وكان الهبوط على أرض المطار يقترب. وظهر لنا السفر قصيراً. وأعلمنا ميشال بارنييه أن الرئيس شيراك قطع إجازته في مراكش من أجل أن يكون في استقبالنا. وأنه سيكون برفقة وزير الدفاع ميشال أليوت ماري ورئيس الوزراء. وكانت النية الأصلية لرئيس الدولة البقاء في باريس، لكن جان بيار رافارين نصحه بالسفر لقضاء إجازاته، ويمكنه العودة في حال تلقي معلومة جديدة وحدد ميشال بارنييه المراسم المطلوبة: توجيه التحية إلى العائلات ثم إلى الرئيس دون التوجه إلى الصحافة، ولم يكن جاك شيراك راغباً في التعبير عن رأيه أمام وسائل الإعلام.

وها نحن أصبحنا أحراراً! ونشعر بالحاجة لبث السرور لدى الجميع. كما نريد توجيه الشكر للبلاد بأسرها، فإن هذه التعبئة

الرائعة تؤثّر فينا . ولن نستطيع أبداً أن نرد الوفاء للجميع بالقدر الكافي .

لقد أصبحنا على مدرج فيلاكوبلاي ، وننظر عبر المنافذ . والليل مخيم ، والرياح تهب ، ويهطل المطر ، كم هو جميل هذا المطر !

نحن في الانتظار . وهذا سيكون دوركما . قال لنا ميشال بارنييه .

وفي حزمة الأضواء الكاشفة التي تنير المدرج ، كنا نميز شرفة الصحافة المثقلة بالصحافيين . وكان من المستحيل أن نرى عائلتانا وسط كل هؤلاء الناس . واللحظة أكثر إثارة للمشاعر مما في قبرص أو حتى في سيارة إطلاق سراحنا . وتحت ضغط الأدرينالين ، كانت العيون تمتلئ بالدموع . .

ونزل جورج أولاً . فلبست سترتي . ونصحني ميشال بارنييه بإغلاقها لأن الطقس بارد . وارتجفت من الانفعال ولم أبلغه . لكن إذا شوهدت أنزل المعبر منطوياً على ذاتي . وهذه السترة الخضراء ، يلبسها جميع الرهائن المطلق سراحهم . وقد باح لنا جان لويس نورماندين ، وهو ينظر صور وصولنا ، أنه استعاد إطلاق سراحه ، قبل عدة سنوات .

كانت زهوة النور المنطلق من مصابيح الإضاءة التي تنشر النور

على منحدر المعبر مريحة من زوايا كثيرة وكانت البقع الضوئية تبهرنا والناس يصفقون، والمطر يضرب حصباء الرصيف، والمشهد يبدو غير واقعي، وكنا نتقدم كأننا في حالة بين النوم واليقظة. وكان جورج يبحث عن عائلته بنظراته عندما وجدت أمي. فتعانقنا، وأجهشت أمي بالبكاء. والدي وأختي وأخي وصديقتي المصرية كلهم كانوا هنا. كان التأثر في غمرته القصوى. ثم توجهنا إلى الرسميين. وحيينا شيراك ورافارين، وأطلقتُ صرخة إلى ميشال ألبوت ماري: «أعانقك!»، وقرنت القول بالحركة. واضطر دونديو فابر أن يعرّف بهويته من أجل أن أعرفه: أنا وزير الثقافة. كما رأينا الرئيس كلوزيل، من راديو فرانس، وأنطوان شوارتز، مدير راديو فرنسا الدولي، وطلب مني بيار غاتز من هذا الراديو نفسه بضع كلمات لصالح قناته الفضائية.

وعانقت ميراي لومارسكييه، رئيسة الدائرة الخارجية لفرانس إنفو وقدّمت لها اعتذاري.

ألوم نفسي لعدم إرسال الورقة التي كانت طلبتها مني عشية اختطافنا.

كانت قد اتصلت بي في بغداد، يوم الخميس في 19 آب/أغسطس، من أجل أن تطلب مني تحقيقاً حول الفريق العراقي

لكرة القدم، لتسليمه يوم السبت وكان الأمر طبيعياً، كما لو أنه يتعلق بمحادثة في غرفة التحرير:

ـ كنت قد قلت لك بوضوح ألا تذهب إلى النجف.

أما جورج من جهته فقد وجّه التحية إلى بيار روسلين، مسؤول الدائرة الخارجية في صحيفة الفيغارو، وحوله الفريق الجديد المسؤول عن الصحيفة، نيقولا بيتوت وفرانسيس موريل. وبعد عدة كلمات ترحيب حارة، وجّه له بيار صديقه منذ زمن طويل، السؤال التالي:

ـ هل تستطيع أن تعطينا مقالاً غداً؟

فنظر إليه جورج مندهشاً:

ـ انتبه... إلى الغد ربما لا، لكن إلى بعد غد!

والتقينا جميعاً في صالون الشرف. وتبادل جورج بضع كلمات مع الرئيس بينما وجهتُ الشكر لرئيس الوزراء. وأخذنا الشامانيا والتقطنا الصور. وقبل ذلك بحوالي 30 ساعة، كنا نتساءل إذا لم ينته بنا الأمر في إحدى الحفر، وبرصاصة في الرقبة. هل هذا هو السبب الذي من أجله يبدو كل ما نتعرض له شأناً سريالياً؟ وإذا تذكرنا اليوم جيداً الأحاديث التي جرت هذه اللحظة مع عائلتينا، نكون قد علمنا الكلام المتبادل مع الرسميين، فيقمعون هناك، في قعر الزخرفة، ودون تحقيق إنجاز

حقيقي. وبعد ذلك، قال لي أحدهم فور مصافحة يد الرئيس، غرسته هنا، كما لو أن الأمر يعني معرفة غامضة. إنني لا أتذكر شيئاً.

وتذكرت بعض الكلمات على الأقل. ورددنا أمام رئيس الوزراء أننا لقينا معاملة جيدة، وشكرناه لعمل فرنسا غير العادي. وجدلنا الأكاليل لـ M.X.

ورسم الرئيس ابتسامة عريضة، لكن الزملاء أحاطوا بنا.

جلسنا أمام مكبر للصوت. وانطلقت الأسئلة كالصواريخ. وأطلق جورج العنان لحبل أفكاره. وكان قد كرّر النظر في تاريخنا عشرات المرات، منذ اعتقالنا. وكان سردها سهلاً جداً. فيتكلم. ويجيب عن الأسئلة الأولى، وبقيتُ على حدة. وفي الطائرة رأيته غاضباً جداً من رواية قصة جوليا وكذب فيليب بريت الذي كان قد زعم أننا التقيناهما. وشكرت الله في هذه اللحظة على عودتنا أحياء.

لم يكن جورج حذراً في كلماته. إنه لم يذكر اسم ديديه جوليا، لكنه عبّر عن احتقاره لكل هذا الفريق من المهووسين بالمبالغة. وبعد ذلك رغم النائب أن تعبير «مهووس بالمبالغة» لم يؤخذ من القاموس الصحافي وأن جورج كان بشكل معين تحت تأثير ميشال بارنييه! ولم يكن الوزير بحاجة للتأثير فينا، فوحدها قراءة

الصحف في طائرة الهركول بين بغداد وبافوس، حين لم نكن قد التقينا بعد الوزير، كانت كافية لتلقي الضوء أمامنا.

وبينما كان جورج يعبّر عن رأيه أمام آلة التصوير، بقيتُ صامتاً حول هذا الموضوع. فلا يكون من المفيد أن يضاف شيء على الفور، حتى وإن كان ما أفكر فيه ليس أقل من ذلك.

كما نجيب عن أسئلة الزملاء حلال حوالى عشر دقائق. ثم أشار لنا رجل من الإدارة العامة لأمن الدولة بأن نلحق به. وكانت طائرة طوافة تنتظر لتنقلنا إلى أورليانوس. وصعدت عائلتانا معنا، والدي وأختي وأخي، وأم جورج وابنة أخيه ورفيقته سيلفيا. وأقلعت طائرة الكوغارد. وحلقنا فوق فيلاكوبلاي، وخلّدنا صورة هذا المطار، كأكثر ذكرى مؤثرة فينا عن إطلاق سراحنا.

قبل أن تحط الطائرة، وصلنا إلى قاعدة الإدارة العامة لأمن الدولة في سيركوت، مركز التدريب لدائرة العمل فيها. وهي تقع في وسط غابة، بعيدة عن الأنظار المتطفلة، وتضم مجموعة من الأبنية والبيوت الصغيرة. وتشمل أيضاً مستشفى، ومركز استقبال للمدعوين. وهنا وجدنا أنفسنا محميين من الضغوط الخارجية، في إطار جدير بصفة الخمس نجوم. وفضلاً عن الإزالة

الضرورية للضغوط، تتيح لنا هذه الإقامة في سيركوت إجراء تقييم صحي وتحقيقاً آخر.

كنا هنا في بيتنا ونستطيع أن نبقى ما دمنا راغبين في ذلك، وهذا ما أشار لنا به المسؤول عن هذه الأبنية. وأرشدنا إلى غرفنا، وأعطانا ملابس لنغير ملابسنا: سترة وقميص وأحذية...

وأثناء العشاء، حول شجرة ميلاد ونار مدخنة، كما لو أن الحياة العادية استعادت مجراها، وجدنا نفسينا منفصلين كل واحد من جهة من الطاولة، مع عائلته الخاصة. وأصبحنا جورج وأنا مستغرقين كل منا بأهله وبالحاجة للتحدث معهم وتذوقنا، للمرة الثالثة هذا اليوم، كبد الاوز المسمّن. مرت الأمسية بهدوء وكنا نعيش لحظات سعادة نادرة.

فقلت إلى سيلفيا كم أحببت رؤية منزلها الجديد الذي غالباً ما حدثني عنه جورج. ثم صعدنا لننام. ولما كانت معدتي قلما اعتادت مثل هذه المآدب، فقد حرمتني من النوم طوال الليل. وفي اليوم التالي تناولت فطوراً في مقابلة مع ستيفان باولي على قناة فرنسا الدولية. ثم أجريت فحصاً طبياً. فأشار الميزان إلى الستين كيلو! واعتقدت للحظة أنه معطل، وأخطأ الوزن. لكن لا! يجب ان أعرف الأمر بوضوح. كنت أزن ثلاثة وسبعين كيلو قبل احتجازي وكنت أتخيل أنني لم أخسر إلاّ خمسة كيلو.

أما جورج، فقد أحزنه مرض والده. وبالتالي فقد غادر القاعدة في اليوم التالي في طوافة من أجل اللحاق به في المستشفى. وقبل ذلك، كان يستعيد معكساته المهنية ويتصل بإدارة تحرير الفيغارو للتوافق حول مقال البارحة. فقام بجمع ذكرياته خلال ما يقرب من ساعتين على الهاتف. وبعد ذلك عبر الطوافة وأخيراً بواسطة سيارة أجرة ليصل في الأخير إلى قرب والده، حيث أخذت سيلفيا منه سماعة الهاتف قائلة له: «هذا يكفي».

كان هو قد أصبح نوعاً من آلية الصحافة. وأتاحت مرحلة سيركوت للسلطات توجيه ثناء عام للإدارة العامة لأمن الدولة، الأمر الذي كان نادراً.

أما الآن، فنحن مدعوان لنكرر هنا، في رواية أكثر صراحة واختصاراً، التحقيق الحقيقي الذي جرى البارحة في بغداد، وفي أكبر قدر من السرية.

هكذا نحن جالسان أمام اثنين «موضعي ثقة».

ـ أيها السيدان، إرويا لنا. ونحن نصغي إليكما.



الاختطاف

على امتداد العقد الماضي، ونحن نقوم بتغطية معظم الأحداث التي ستمرق الشرق الأوسط: انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان، وعودة المسؤولين الفلسطينيين إلى أراضي دولتهم المستقبلية، والتغيرات على رأس السلطة في سوريا والأردن، وصعود الأصولية الدينية، وفشل اتفاقات أوسلو، والانتفاضة الثانية، والنزاع العراقي، وسقوط صدّام حسين، والصعوبات أمام قوى الاحتلال الأميركي.

ونحن نجوب آلاف الكيلومترات، ونقوم بما لا يُحصى من الذهاب والإياب بين العواصم الرئيسية في المنطقة، ونلتقي ونسأل المئات من الأشخاص. والعلاقة التي نقيمها مع هذه الأرض إنما تعود إلى تاريخ الحب.

وهي قد بدأت منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

واحدنا كالآخر، تمسك بنا قوة هذه الحضارة القديمة والنبيلة، ثم يعرينا نمط عيش سكانها والإفراط في دقة عاداتهم. ورغم القفزات الفجائية، والأزمات بين الدول، والنزاعات بين

الأعراق وأشكال التمزّق الديني، نبقى متعشين بعاطفة سليمة حيال هذه الشعوب التي نريد أن ندخل إلى أسرار لغتها.

كصحافيين غالباً ما نستعجل الأمور في حالة الرصد الدائم؛ ويصل الأمر إلى حد تبني وتيرة حياة تختلف على نطاق واسع عن المزاج الطبيعي. ويدرك الناس في الشرق الأوسط شيئاً فشيئاً أن العناية المقدمة لبذار اليوم شرط للحصاد الجيد غداً. ونتعلم في مدارسهم فضائل العصر والصبر. ونقيم اتصالات وفية ونحترم كلام المحاور مما يسمح بأفضل إمساك بما هو أساسي.

وهكذا سحول سرعة العطب المفترضة لنظامنا الصحافي المأجور على السطر: فمن يعمل لعدة مطبوعات صحافية لا يكون متنسباً لأحد ويمكن أن يتاح له تفضيل النوعية على الكمية، بل رفض بعض الأوراق التي يعتبرها ليست ذات أهمية كبيرة. وهذه الحرية، نحن اخترناها. ونعيشها كشكل من أشكال الترف.

كان اتصالي الأول مع الشرق الأدنى في عام 1989، وسيبقى هذا الاتصال صدمة دائمة. فالفتى الشاب كريستيان شينو الذي كنته حينذاك، عاملاً في الثالثة والعشرين من العمر، كانت له فرصة الظهور ثانية بعد خمسة أيام من الحصول على شهادة مركز إعداد الصحافيين، في وسط القاهرة للعمل فيها في صحيفة «التقدم المصري» والنشاط المضطرب لهذا التجمع المدني،

والعطور والألوان لأسواقه القديمة، والابتسامة والاغتباط لأبناء القاهرة كل ذلك يغريني بشكل مباشر. إنه حب صاعق حقيقي.

بدأت أدرس اللغة، والتجوال في مصر في كل اتجاه ومع شركاء آخرين، واستخدمت سيارة للأجرة الجماعية، من نوع بيجو 504 في معظمها، وكانت تقنية نقل أكثر أماناً حينذاك، ولم يكن واضعو قنابل الحركة الإسلامية قد جعلوا الرعب مسيطراً اعتباراً من عام 1992. وخلال هذه الإقامة قرب النيل، جاءتني فكرة كتابي الأول: معركة المياه في الشرق الأوسط[1].

كان الغطس في ثقافة وتاريخ كنت أجهلهما بشكل واسع حينذاك، ولم يكونوا محرفين بكليشهات غربية، يشكل انقلاباً فكرياً وانفعالياً. ولم يتركني الفيروس الشرقي أبداً وبعد العودة إلى باريس، تآكل مكبحي بعدم القدرة على العودة إلى الشرق الأدنى.

خلال عام 1994، وبعد إقامة شهرين في عمّان، نجحت في تغطية بعض الأحداث الهامة لعدة صحف. وتوصلت إلى تحرير عدة مقالات حول عودة الجنود الفلسطينيين الأولى من المنفى إلى أريحا. عادوا عبر جسر اللنبي الذي يجتاز نهر الأردن في المدينة التي أصبحت في حالة الحكم الذاتي.

(١) كريستيان شيسو، معركة المياه في الشرق الأوسط، باريس، ١٩٩٦، Harmattan

وبسبب عدم القدرة على البقاء في المنطقة، فتحت قوسين فرنسيين لخمس سنوات عملت خلالها لمجلة مهنية متخصصة، في مشكلات المياه، مما أتاح لي القيام بالسفر كثيراً إلى لبنان وقبرص وتركيا.

في هذا الوقت، أثارت اتفاقات أوسلو ريحاً حماسية في فرنسا، ورأى فيها العديد من المراقبين أكثر من وعد بالسلام، بل النهاية شبه المؤكدة لنزاع مؤلم بين شعبين على أرض واحدة. وفي نظر معظم المراقبين، أن مسار السلام يتحقق بشكل «غير قابل للانعكاس».

بدا لي أن الساعة حانت لوضع موازنة لخمسين عاماً من الصراع عبر شهادات الذين كانوا مجهولين أو معروفين، وشاركوا بالثورة الفلسطينية. فقد ترامن جيل الفدائيين: من الكفاح المسلح إلى الحكم الذاتي[1]، الذي كتب مع جوزفين لم، في عام 1998، وهي صديقة مترجمة، مع الذكرى الخمسين لقيام إسرائيل وللنكبة بالنسبة للفلسطينيين.

ثم عاودني نداء الشرق الأوسط. وشعرت بالحاجة للرجوع إليه للعيش والعمل فيه. لكن أين؟ أعرف القاهرة. القدس،

---

(1) ك. ش. جوزفين لم، فلسطينيو 1948 - 1998 جيل الفدائيين من الكفاح المسلح إلى الحكم الذاتي مارس 1998

حيث يكثر الصحافيون الفرنسيون، تشكل حلاً جيداً خاطئاً. فتبقى بيروت وعمّان. وقد اتضح أن الحياة في العاصمة اللبنانية غالية جداً لصحافي على أساس الأجر بالسطر. وبيروت بعيدة عن مراكز المنطقة. عمان تفرض نفسها إذن.

وقد سبق أن كسبتُ فيها بعض الأصدقاء، وتحتل المدينة موقعاً مركزياً، قلما تهتم به المؤسسات الصحفية الفرنسية الكبيرة، ومع ذلك توصلت إلى إقناع راديو فرنسا، وراديو فرنسا الدولي وصحيفتي «منبر جنيف» و«النقطة» الفرنسيتين، بأهمية الوحود في عمّان، كمركز مراقبة مثالي للإضاءة على فلسطين ولبنان وسوريا والعراق. وفي الأول من أيلول/ سبتمبر 1999، أقمت فيها، بعد أشهر من وفاة الملك حسين، وفي الليلة ذاتها، طردت السلطات الأردنية إلى قطر جميع أعضاء المكتب السياسي لحركة حماس الفلسطينية. ولم يخدعني ميلي، ولن تغيب الحالة الراهنة.

المملكة الهاشمية تشكل في الشرق الأوسط إحدى الجزر النادرة بالاطمئنان في محيط غير مستقر. والهزة السياسية الكبيرة تعود إلى أيلول/ سبتمبر 1970.

تعمل فيها جميع الخدمات بشكل صحيح، من البريد والهاتف والإنترنت. ولا تتعرض الصحافة الأجنبية فيها للرقابة

ولا تستدعي دوائر المخابرات الصحافيين الغربيين لأحل أحاديث معترة مزعجة من قبل السلطات المحلية، كما يجري غالباً في مصر وسوريا وإيران.

رغم عدد سكانها البالغ مليوني نسمة، فإن المدينة تحتفظ بترحيبها الإنساني. ويبدو الناس فيها بسطاء ولطفاء وشرفاء. وهذه طرفة أود أن أرويها شهادة على ذلك. بعد وصولي بما يقرب من ثلاثة أشهر أضعت في سيارة أجرة محفظتي المالية، وفيها جميع بطاقات الائتمان وما يقرب من ستمئة فرنك نقداً. ولمعرفتي باستقامة الأردنيين، انتظرت مرور يوم كامل قبل إعلام مصرفي في باريس والحصول على البديل. وفي المساء ذاته اتصل بي السائق قائلاً إنه وجد محفظتي تحت مقعده. وكان المحتوى سليماً، كما رفض الرجل محاولتي إكرامه بالتعويض.

ولإكمال هذه اللوحة الغزلية الريفية تعرفت بجورج، عندما قَدِمَ البابا إلى الأرض المقدسة في آذار/ مارس 2000.

ويظهر خط مساري الشخصي حالات تشابه كثيرة مع خط كريستيان الشخصي. وفي هذه المرحلة جعلني اهتمامي بتاريخ مسيحيي الشرق أبدو كأنني أنتمي إلى العائلة المسيحية. حتى أنني قبلت في عداد مجموعة من الصحافيين القلة الذين دعوا لاستقبال البابا، الذي سأقبل يده! وعلى

سبيل المزاح أحبَّ أصدقائي في بعض الأحيان مخاطبتي بلقب «أبونا».

وبعد مؤهلات العلوم الاقتصادية والمعهد العملي للصحافة عملت في صحيفة الصليب La Croix قبل أن يتيح لي تحقيقي الخارجي الأول في عام 1988، تغطية الانتفاضة، ومثلت مدة الخمسة عشر يوماً نداء حقيقياً. وللشرق الأوسط تأثير عليَّ لم يكن كاذباً أبداً، مع قوة فيروس حسب تعبير كريستيان في وصفه لهذا التأثير. وبعد عودتي إلى باريس، ذهبتُ لعدة أسابيع إلى الأردن، ثم إلى لبنان في الحرب، وقبل إجراء بحث لمدة أربعة أشهر حول هجرة المسيحيين إلى الأرض المقدسة.

عدت إلى باريس قسراً في 9 أيلول/ سبتمبر 1993. وابتسمت لي الفرصة الصحفية مجدداً. هذا اليوم نفسه شهد إعلان قمة عرفات - رابين في واشنطن. وأقنعتُ بعض وسائل الإعلام بأهمية الرهانات، وأقمتُ في القدس الشرقية، في كانون الثاني/ يناير 1994. وكنت قد توقعت أن أغادر بعد ستة أشهر. وبقيت فيها تسع سنوات، كانت الثلاث الأولى في إسرائيل وفلسطين، ثم في العراق، وإيران وسورية. حتى ذاك اليوم من آذار/ مارس 2000، حين لقي البابا، على غير علم منه، الصحفيين المرتبطين بحبهما للشرق الأوسط. ونحن

نتشاطر العواطف ذاتها ومفهوماً متماثلاً لمهنتنا. وعلى الصعيد الإنساني، فالوفاق تام. ولم يكن بإمكاننا إلا أن نكون أصدقاء.

يعتبر كريستيان من خيرة الرجال. وتربط بيننا نظرة تفاؤلية واحدة، رغم أنها أكثر جموحاً عنده، وأكثر قلقاً عندي وهي ظاهرة نادرة في هذا الوسط، ونجهل كل ذهنية تزاحمية. وتسود بيننا ثقة كلية، ونستخدم معارفنا بشكل مشترك، وغالباً ما نتشارك بالتحاليل ذاتها، حتى وإن كانت طباعنا مختلفة.

ويتصح كل يوم أن عام 2000 أغنى بالأحداث. فالانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، تلاه رحيل حافظ الأسد في سوريا، ثم فشل المفاوضات الإسرائيلية ـ الفلسطينية، وأخيراً الانتفاضة التي انطلقت في نهاية أيلول/ سبتمبر.

ويجلب لنا تكاملنا في العمل التعاضد الضروري لفهم أفضل لهذه الظاهرات المركبة. وأنا أملك تجربة جيدة وكريستيان يتكلم العربية بسهولة. وعندما يأتي إلى القدس، ينزل عندي، وعندما أذهب إلى عمان هو يستضيفني.

في بداية عام 2001، جرى انتخاب أريبل شارون لمنصب رئيس الوزراء فتعززت لدي فكرة أن الانتفاضة الناشئة ستدوم. وبعد ثماني سنوات من التجربة على أرض الواقع، قررت أن أتجاوز قصة يومية الأحداث، لكي أخصص الامتياز لسطور قوة

التاريخ. وهكذا نشرت في السنة الماضية كتاب: من الحجارة إلى السنادق، أسرار الانتفاضة[1]، في رحلة دون مجاملة في كواليس التمرد، من مؤلف لم يرض المقاتلين في المعسكرين.

في الوقت نفسه تتسارع التهديدات الأميركية في العراق. وقد قمت بالكثير من التحقيقات. وتولدت لديَّ فكرة كتاب حول نظام صدام حسين والوضع في العراق. واعتباراً من حزيران/ يونيو 2002 انطلقنا إذن في مغامرة بحث وثائقية: عراق صدام حسين: صورة شاملة[2].

في العشرين من آذار/ مارس، اندلعت الحرب. وغطيناها دون أسف من عمّان. وروى لنا عراقيون عديدون عبر مرورهم في الأردن، ولاجئون ودبلوماسيون وأعضاء في ملاك الأمم المتحدة الوضع بالتفصيل، وشاركونا في التحليل. هكذا فالحصاد العني للمعلومات يُجنى دون مخاطر.

مع ذلك فإن إغراء معايشة الحدث تبقى قوية. فقررنا إثر سقوط بغداد في 9 نيسان/ أبريل، الذهاب إلى موقع الحدث من أجل مشاهدة التحول التاريخي.

بغداد مدينة أخطبوطية تعد خمسة ملايين من السكان، وتقدم

(1) جورج مالبرونو، من الحجارة إلى السنادق، أسرار الانتفاضة، باريس Flammarion، 2002

(2) كريستيان شينو وجورج مالبرونو، عراق صدام حسين صورة شاملة، باريس

لأول وهلة مظهراً محيراً. فلا يُدرك جمالها بصورة تلقائية. وفي القدس والقاهرة أو في دمشق يفرض الإغراء نفسه في الحال على الزائر. ويعود ذلك دون شك إلى طبيعة العديد من الأحياء القديمة. لكن هذه الصدمة في الرؤية في بغداد، كما في عمّان، غير موجودة، وإن مدناً دون أبهة قلما تحرك من الانفعال.

بالمقابل يتوصل سكانها إلى جذب اهتمام الأجنبي عندما يتحدثون عن الموسيقى والرسم والشعر، بحماسة قلَّ نظيرها. فالبغداديون، وبشكل أوسع العراقيون، يحملون في ذاتهم التاريخ السومري والبابلي والآشوري، وبصفتهم متحدرين من شعوب بلاد ما بين النهرين، فإنهم يخلّدون إرث الذين أقاموا الحضارات الأولى في العالم.

والعراق أرض فتح منذ أقدم الأزمان، فكان على الشعوب التي تقطنه تطوير غريزة الدفاع، وكما تظهر هذه الكائنات المبالغة، في الخير كما في الشر، عنفاً خلاقاً كما مدمراً. وينادون باعتزاز بهذه الثقافة التي تجمعهم. ويربط الشرق بهم شهرة غير منتحلة: فتؤكد الأوساط الثقافية في العالم العربي أن الكاتب مصري والناشر لبناني والقارئ عراقي. ويتبين ذلك كل جمعة في سوق الكتاب في بغداد، المؤلَّف من مكتبات عديدة، يحصد بعضها البعض الآخر، في نوع من صالون الكتاب الأسبوعي.

وبعد الحرب مباشرة، تركّز اهتمامنا على أوضاع السُّنَّة، الذين فقدوا السلطة وأُبعدوا إلى وضع معيب تقريباً، وأصبحوا الخاسرين لتاريخ اعتقدوا أنهم كاتبوه لزمن طويل، والباقون أحياء بعد ديكتاتورية شنيعة. وسألنا عدداً كبيراً من الناس حول هذا الأمر. وفي بداية الحرب لم يتم توقيف قدامى النظام، مما أتاح لنا التقاءهم دون متاعب.

ومع الإصرار الملحوظ على الخطأ، أضاع الأميركيون المئة يوم الأولى، وهم يحاولون صرب صفح عن الماضي وإقامة معسكر على مفهوم أيديولوجي. وكان يمكن لهده المرحلة أن تصبح نعمتهم المبررة لكنها اتضحت أنها مفجعة. وفتح الأميركيون صندوق العسكر، وهم يدعون تقديم الحرية للعراقيين المفرج عنهم من بير صدام. وتحولَ الأميركيون من محررين إلى محتلين.

فقد بدأوا بإلغاء تأشيرات الدخول إلى البلد، تاركين الحدود على مصراعيها. وفي هذا خطأ مرعب ستساهم مفاعيله بخلق الفوضى بشكل واسع. ومنذ الأيام الأولى، اكتشفنا أن شاحنات ضخمة تنقل، على الطريق الكبير للسيارات الذي يجتاز صحراء العراق، قطع قمر صناعي ولوازم إلكترونية أخرى، كانت محظورة في نظام صدام. وسرعان ما أصبحت حالات ازدحام

السير ضخمة. والمجتمع العراقي المنغلق على نفسه بقسوة، والذي لم يعرف العالم إلا عبر الصحافة العراقية الخاضعة للرقابة. يكتشف الحرية ونشوة الاستهلاك التي قلما بلغها في السابق.

هكذا وجدت أجهزة التلفزيون ومكنات الغسيل والأسلحة وكذلك الشخصيات غير المرغوب فيها، وخاصة، الإسلاميون الدين اضطهدهم صدام بقسوة، الطريق للتغلغل في البلد عبر المنافذ المسامية للحدود. وغرق العراق في الفوضى. وتضاعفت الجبايات غير القانونية. وشهدنا أعمال السلب والنهب التي أثارت العراقيين. وترك الجنود الأميركيون أوغاد الشوارع يأخذون القطع الصناعية والمخزونات الكاملة من المنتجات المتنوعة، وحتى الكنوز الفنية العائدة للتراث العالمي، كما جرت حالة تعبئة الأكياس بتحف متحف بغداد.

كان الشعب غير القادر يرى في أعمال السلب صدمة لبلده، بينما ترك الأميركيون المعتبرون أنهم سيتيحون إعادة البناء، السارقين يجتاحون كل شيء دون أي رادع. وكان غضب العراقيين يكبر بقدر ما كانت وزارتا النفط والداخلية اللتان كانتا تستفيدان من نطاق الأمن، ولم تتعرضا لكسر زجاج فيهما. وبتجاهل هذه الأشكال العنفية، وترك الإسلاميين يتغلغلون عبر

الحدود، وحل الدوائر الأمنية، نجح الأميركيون بخلق تحريض شبه إجماعي وطني ضدهم.

كما وجد ما يقرب من 400 ألف عسكري لصدام أنفسهم بين يوم وآخر دون عمل، وبالتالي دون أي دخل. وكان هؤلاء الجنود يؤمنون معيشة عائلاتهم المؤلفة من 7 أو 8 أشخاص، والمقطوعة بشكل مفاجئ عن كل المصادر. وسرعان ما عبَّرت مظاهر الحرمان عن نفسها. ففي آب/ أغسطس 2003 انطلقت الشرارة الأولى بالهجوم القاتل ضد السفارة الأردنية، مما أوقع عدة قتلى. وجاء المنعطف في العشرين من آب/ أغسطس مع الاعتداء الدامي الذي أطاح بمقر الأمم المتحدة في بغداد (عشرون قتيلاً، بينهم سيرجيو فييرا دوميلو، الممثل الشخصي لكوفي أنان)

هذا التحليل أدى إلى اعتبارنا من قبل البعض كأشخاص مكدرين للناس. وأشير علينا بالصبر قبل صياغة حكم محدد، إلى الزمن الذي تصحح فيه قوى التحالف الإمساك بدفة الحكم. لكننا بقي مقتنعين بأن الوضع يفلت من أية رقابة وأن الأميركيين سيفوتهم القطار وخلال الأشهر التالية لم يتغير تصرفنا في البقاء متحفظين، والانخراط بأفضل الممكن بين يدي الناس. وأخذنا نرتدي الثياب البسيطة وتركنا اللحى تنمو وتجنبنا

النظارات الشمسية لكي لا نشبه وكلاء المخابرات المركزية الأميركية.

في تشرين الأول/ أكتوبر 2003 التقينا في عمّان شخصاً ممن نتصل بهم، وهو قريب من المقاومة الوطنية السُنّية وتناول الحديث بشكل خاص استراتيجية المجموعات المسماة التحرير وأموراً أخرى، وحول أخذ رهائن، كفعل جرى في الماضي خلال النزاعات، سواء في الشرق الأوسط أو آسيا أو أميركا اللاتينية. وقد شدّد محدثنا على المشكلات اللوجستية الإدارية: «الرهائن عبء ثقيل لإدارته. ويجب مراقبتها ونقلها وتغذيتها، وتوفير الحراس لها... هذا ليس أولويتنا». ورغم هذه التصريحات المطمئنة أدركنا، كريستيان وأنا، أنه عاجلاً أو آجلاً سيأتي هذا الوجه الحزين وغير القابل لمواجهته، في بلد يعيش حالة تمرد ويخضع للاحتلال من قِبل قوى خارجية.

ومع مرور الزمن بنيت المجموعات المسلحة، متوسلة العمليات الأولى من القبض على الرهائن. ففي نيسان/ أبريل خُطف ألكسدر جوردانوف من وكالة على الطريق الدولية بين بغداد وكربلاء. وحجزه خاطفوه في مصنع للإسمنت حيث قاموا بإذلاله وضربه، قبل إخلاء سبيله. وفي أيار/ مايو، ظل فريق فرنسي محتجزاً طيلة عشر ساعات في الفلوجة، قبل أن يقال له

بيجاز: نطلق سراحكم لأنه ليس لدينا شيء ضد فرنسا، لكن اعلموا أننا لا نحب قانونكم ضد الحجاب. ثم احتُجز إيطاليون وكوريون وآخرون أيضاً: «أصبح أخذ الرهائن أسلوب تمويل للمقاومة» قال لنا ذلك متيقظ من محاورينا. ويزداد خطر فقدان الأمن يوماً بعد يوم.

ونأخذ حذرنا أكثر فأكثر. متجنبين بشكل خاص، كل خروج في المساء خارج المنطقة المحمية قرب الفندق الذي ننزل فيه. لكن حذراً دائماً وفي حده الأقصى في مثل هذا التشوش، يكون من الصعب توافقه مع مهنتنا، بقدر ما تكون خطوط المجابهة غير ثابتة ولا مرئية. ففي أيار/ مايو قام جورج بإملاء مقال عبر الهاتف، ومن على حافة طريق تقع في منطقة سنية متمردة. وأحاط به بعض الأفراد بتهديد مفاجئ، واضطر هو لحبس نفسه في السيارة من أجل إنهاء إرسال مقاله.

في ضوء حالة ألكسندر جوردانوف يؤدي اقتناعنا المتواضع دون شك إلى الاعتقاد بأن الجنسية الفرنسية لا تشكل كفالة مطلقة ضد أخذ الرهائن، والأسوأ أنها في حالة الخطف تسمح بإطلاق سراح سريع، وسيثبت المستقبل لنا أن ذلك يتعلق بتعقل رجال حريصين على أداء مهنتهم بحيث لا يدركون جميع المخاطر منها.

وبينما يتابع جورج ذهابه وإيابه بين عمّان وبغداد، منذ

شباط/ فبراير، 2004 اكتفيتُ بالبقاء في الأردن وتبرمتُ من العودة إلى العراق. وفي تموز/ يوليو ناقشتُ مع نيقولا بلهام، في فندق إنتركونتيننتال في عمّان. وكان هذا الصحافي الإنكليزي الذي يعمل لصالح مجلة الاقتصادي، قد عاد بعد أن أمضى في بغداد شهراً ونصف. وكان يتموه وراء لحية كثة لكي ينخرط بشكل أفضل في الجمهور العراقي.

ـ كيف هو الوضع هناك؟

ـ خطر للغاية، ولا أحد في مأمن. ويجب عدم الذهاب إلى هناك، قال لي وتملكني الخوف.

ذات مساء، التقيت محبين للخير من منظمة غير حكومية إيطالية لم تكن لديهم أية مشكلة. من يصدق؟ هذه هي المرة الأخيرة التي أُضطر فيها للذهاب إلى بغداد. ولن أقوم بتأجيل سفري. وظل جورج مصمماً على الذهاب. وكان راديو شالوم لتوه قد أجرى معه بثاً مباشراً من باريس من أجل توضيح الوضع في العراق وسأله المندوب، برنارد أبواف، عبر الهاتف حول الوضع الأمني والمخاوف الناجمة عنه. وأجاب جورج بانتباه بأنه إذا لم يستطع أحد أن يدَّعي ضمان أمن معين، فلا شك في أن الفرنسيين يتعرضون لمخاطر أقل من صحافيين آخرين من البلدان المتورطة في النزاع والبرهان: أن عدداً من زملائنا الأميركيين

ادعوا أنهم فرنسيون، في المناطق الخطرة. وأظهر تعاقب الأحداث أنهم كانوا محقين ومخطئين في آن واحد.

وفي التاسع من آب/ أغسطس أخذنا الطريق إلى بغداد، بهدوء تقريباً. وكنا قد اعتدنا اختيار سيارة أجرة عراقية يقودها سني، إلى محطة طريق عمّان. فيعرف هذا الأخير المثلث السني جيداً، أي منطقة التمرد التي علينا اجتيازها قبل الوصول إلى بغداد، وخاصة مسافة الطريق بين الرمادي والفلوجة، ويتم سفرنا دون عائق.

منذ وصولنا إلى العاصمة جرت عملية خطف لصحافيين كانا يقيمان في الفندق الذي ننزل فيه: الإنكليزي جايمس برونسون في البصرة في الجنوب وأطلق سراحه بعد ثلاثة أيام بأمر من مقتدى الصدر، والأميركي ميكا غارن في الناصرية، في الجنوب أيضاً، وأخلي سبيله بدوره بعد خمسة عشر يوماً.

أثناء ذلك، احتدم الوضع. فقامت قوات التحالف بمحاصرة النجف، إحدى القلاع الشيعية حيث اعتصم مقتدى الصدر ورجاله في الحرم المقدس لضريح علي. وأمام أهمية الحدث قررنا الذهاب إلى هناك. ولم نكن متأكدين أن بإمكاننا الدخول إلى المدينة، لكننا نصل إلى محيطها على الأقل. وبالطبع عهدنا بمهمة نقلنا إلى صديقنا محمد الجندي الملقب أبو أيمن.

كنا قد التقيناه بعد سقوط النظام العراقي. وكان هو من السوريين الذين كانوا يشغلون وظيفة هامة داخل حرب البعث المؤيد لصدام حسين. إنه حزين، وفي رأيه أن العالم توقف عن الدوران في التاسع من أبريل/ نيسان 2003.

كان مقيماً في العراق منذ ثلاثين عاماً، وسرعان ما اتضح أنه أكثر من مساعد لنا، بل يقدم المساعدة إلى الصحافيين لتنظيم محادثاتهم والترجمة، وتحديد التوجه في المدينة. وكان لدينا بعض التحفظ حيال هؤلاء المساعدين المستخدمين من قبل وسائل إعلامية غربية، لكنهم عراقيون قبل كل شيء، وبالتالي أهدافهم صعوط محتملة أو منحرفة.

ولم يتردد بعضهم في عرض لقاء مع من يدّعي أنه «مقاوم» مقابل خمسة آلاف دولار، ولم يترددوا في تنظيم لقاء مع ثلاثة من رفاقهم يلفون رؤوسهم بالكوفية ويحملون الكلاشينكوف علامة على إرادتهم في قتل جميع الأميركيين.

أما مع أبي أيمن فيمر الأمر بشكل جيد، والثقة المتبادلة تتعزز بسرعة وقد تحققنا أن علاقاته ومنشأه الفلاحي الماكر، كلها تجعل منه مساعداً فعالاً بشكل مميز. وإذا أردنا مقابلة مع شخصيات من الدرجة الأولى- مع رسمي عراقي في الحكومة أو وزير، يتكفل بتنظيم المقابلة، دون أن يكون لدينا شيء

نشكو منه، وأكثر من ذلك، هو محب لفرنسا وبالأحرى رأيه مجرد، الأمر الذي هو نادر لدى المساعدين.

مقابل ذلك نقدّم له بعض الخدمات، وخصوصاً في مساعدته لتسجيل ابنه أيمن في المدرسة في فرنسا. وقبل خمسة عشر يوماً، كان الابن الشاب قد فاز بمنحة دراسية في جامعة ما وراء الأطلسي. لكنه يكره الأمركيين ولا يريد الذهاب إلى الولايات المتحدة. فحاولنا إقناعه بأن البلد لا يقتصر على سياسة بوش وأن لا شيء يمنعه من العودة إلى العراق بعد إنهاء دراساته. ورفض بعناد، وكما كثيرين آخرين، فإن أيمن من الأشخاص المكونين عبر العديد من سنوات الديكتاتورية البعثية.

وبقيادة والده محمد أخذنا طريق النجف. وبعد وصولنا إلى نقطة تبعد حوالي 10 كلم عن مركز المدينة، أوقف رجال الأمن العراقيون سيارتنا. ولم نعد نستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك. وكانت أعمدة الدخان تتصاعد من المدينة المقدسة فنزلنا حينذاك عند حاجز تفتيش حيث أجرينا مقابلات مع الشرطة ومع بعض سكان النجف الذين نجحوا بمغادرة مدينتهم المحاصَرة. فوصفوا لنا المساكن والشوارع المدمرة بعمليات القصف، وبالقدر نفسه بعمليات السلب، والسكان الذين بدأوا يشعرون بالحاجة للمياه والغذاء. وفي بداية ما بعد الظهر، وبسبب عدم القدرة

على تجاوز الحواجز، عدنا على أعقابنا ورجعنا إلى بغداد دون عائق. وفي الذهاب جرى توقيفنا على حافة الطريق من أجل أن يتمكن كريستيان من نقل تحقيقه عبر الهاتف لقناة فرنسا الدولية.

بعد عدة أيام وجهت الحكومة العراقية إنذاراً لمقتدى الصدر، ملوّحة بالتهديد بحملة نهائية على النجف. وتساءلنا حينذاك حول ملاءمة الفرصة للقيام بذلك، آخذين الخطر بعين الاعتبار. ترددنا، وفي النهاية أقنعنا مثال بعض الزملاء الذين ذهبوا إلى الموقع دون عائق، بالذهاب في اليوم التالي إلى النجف. واستدعينا محمد الجندي، واستمعنا إلى رأيه، وقررنا معاً بأن يأخذنا في اليوم التالي في 20 آب/ أغسطس في الساعة الثامنة.

ومن سخرية القدر: في اللحظة التي غادرنا فيها المطعم، التقينا صحافية أميركية تريد هي أيضاً الذهاب إلى النجف وتحاول إعداد موكب. فحذرناها. أرتال المواكب ليست وسيلة الانتقال الأكثر حذراً، بل السيارات الفردية تمر بسهولة أكثر ودون أن تلفت الأنظار!

إننا نمارس مهنة مثيرة للاهتمام في منطقة أصبحت مألوفة، فقيم السكان والثقافة، حيث ارتبطنا بصداقات. وسنحت لنا

الفرصة بتغطية أحداث تاريخية مع زميل أصبح على مر السنين شبه أخ لنا. وكان دورنا أن نُطلع مواطنينا عليها وأن نوفر لهم الوسائل الضرورية لفهم تلك الأحداث. لم نكن نقوم بدور الكلاب المحنونة. كنا نحاول قبل كل شيء إعطاء معنى للأمور.

وفي بعض الأحيان لم نعرف أبداً أين الخط الفاصل بين الحياة الخاصة والحياة المهنية، وشكل هذا الجهل اعتزازنا. لم تكن حياتنا مستدلة بل ناشطة إلى حد كبير! هي حياة الصحافيين الأحرار.

فجأة تتأرجح هذه الحياة. ولا ندرك كيف ولا لماذا، بل نعيش في بضع ساعات اللحظات الأقسى والأكثر غموضاً مما أتيحت لنا معرفته. ويحولنا متصارعون، لم ندرك معنى صراعهم، إلى رزم يلقونها في صندوق. ويلعب رجال دوو وجوه مموهة بأخلاقنا وبقدرتنا على المقاومة. وسرعان ما نتحول إلى انتظار وصول قُوتنا، ومكابدة البرد بعد القيظ، وعد الأيام، والإصغاء لأدنى ضجة ونوضع أمام آلة التصوير، ويُملى علينا نص يذكرنا بإمكانية إعدامنا، ونتدنى إلى درجة استجداء حرية اقتُلعت منا دون مبرر. ومع ذلك سنكرس كل قوانا للحفاظ على صفتنا الإنسانية.

لم نرتكب إلا خطأً واحداً، هو إرادة الإعلام. غلطتنا الوحيدة: أن نكون قد وُجدنا في مكان رديء، في زمن رديء. وفي هذا

الظرف، على طريق ضائعة بين بغداد والنجف، يوم جمعة صيفي، في العشرين من آب/ أغسطس، 2004 وحوالى الساعة العاشرة صباحاً.

وفي بغداد، في وقت أبكر من هذا الصباح 7,45.

يجب أن نتحرك في ساعة مبكرة إذا كنا نريد القيام بالذهاب والإياب في النهار داته. واستطلعنا بسرعة صفحة الإنترنت من أجل معرفة الرسائل الأخيرة، ثم أخذ جورج حاسوبه، بينما لم آخذ إلاّ مفكرة الملاحظات وأرقام هواتفي الخلوية. وقبل النزول طلبت فرانس إنفو، فطلبت مني إدارة التلفزيون مقالتين لجريدتي الساعة 6 و7، فأرسلتهما قبل الذهاب وطلبتها ثانية بعد ثلاث أو أربع ساعات، عند وصولنا إلى النجف. ثم أعلمت إدارة الراديو الفرنسي الدولي الذي ضاعف نصائح الحذر.

أثناء ذلك، وضع جورج، الذي كان عليه أن يتدخل في جريدة الساعة التاسعة لتلفزيون RTL، اللمسة الأخيرة على النص الذي أعده.

ولفتت أنظاره رسالة علقت بوضوح على باب المصعد: «أَعْلِم المسؤول بمغادرتك». فبعد عمليات الخطف الأخيرة لاثنين من نزلاء الفندق، ضاعفت إدارة الفندق حذرها.

الوقت يستعجلنا.

تناولنا فطورنا بسرعة وحرجنا .

كان محمد ينتظرنا أمام الفندق، واستأجر سيارة يابانية، نمرّ عبرها بسهولة دون أن يرانا أحد. وكنا نجتاز عرقلات السير التقليدية الخانقة في ضواحي بغداد، ثم تصبح الطريق هادئة. واجتزنا دون عائق حوالي ثلاثين كلم قبل أن نتوقف على الممر الجانبي للطريق، في المحمودية، في منطقة حساسة خاصة، سكانها خليط من السنّة والشيعة وكان على جورج تحديد موعد مداخلته على RTL. كان يعتقد أنه يستطيع الاتصال بواسطة هاتفه المحمول العراقي من السيارة، ودون أن يتوقف. ولسوء الحظ أننا خارج منطقة الاستقبال، فكان مضطراً لاستخدام جهاز الثريا ومد الهوائي عبر زجاج السيارة. وكان الوقت الملائم لتثبيت الموعد مع باريس في الساعة 8,55، ونستأنف السير.

وبعد مضي دقائق، وجه جورج، وهو يحدق إلى ساعته، كلامه إلى محمد بالقول يجب التوقف من جديد.

كان الوضع صعباً، لقد صرنا قريبين جداً من قاعدة أميركية. ومن الأفضل الابتعاد عنها، قال الجندي.

تقدّمنا عدة كيلومترات قبل أن نتوقف على حافة الطريق، وفي الساعة 8,55 اتصل جورج مع RTL، كما هو متفق عليه.

وكان يجب الاتصال مرة أخرى عبر الثريا، وإخراج هوائيه عبر نافذة السيارة. فتجاوز الباب قليلاً.

أنا مستعد، قال جورج لمحاوريه من باريس. اتصلوا بي على الخط المباشر عندما تريدون، في دقيقة أو دقيقتين.

ستأخذ مداخلته موقعها في وسط الجريدة، وسيُمدُد الانتظار في النهاية اثنتي عشرة دقيقة. اثنتا عشرة دقيقة على الأرجح، نكون خلالها قد اكتُشف موقعنا من قبل مجموعة خاطفين من الجيش الإسلامي، هم الذين قاموا باختطافنا. وما كدت أنهي مداخلتي حتى طوينا على الفور الهوائي وانطلقت سيارتنا من جديد.

في الساعة 9,50، كان يجب أن نتجه إلى يميننا في طريق صغير يؤدّي إلى كربلاء. وبسبب محاصرة النجف، سد الجيش الأميركي الطريق الرئيسية، واضطررنا بالتالي إلى اتباع طريق ثانوية كان محمد لا يعرفها بشكل جيد. وبدأ الشك حينذاك يمسك بنا: ألم يُخدع سائقنا بتشعب الطريق؟

وبعد وصولنا إلى أحد الجسور، أوقفنا السيارة لنسأل صبيين صغيرين، في حوالي الثانية عشرة من العمر، عن اتجاه كربلاء، فأشاروا إلى الطريق وراءهم، وسرنا فيها. لكن محمد بدا غير مقتنع. فكنا نبتعد أكثر فأكثر عن الطريق العادي لنسير في طريق

قلما تسلكها السيارات. وبعد بضعة كيلومترات قطعناها بسرعة بطيئة، تصل إلى 40 كلم في الساعة تقريباً، وكان محمد يحاول التأكد من الاتجاه المحدد من قبل الطفلين. وسأل فلاحاً مسناً رفع ذراعيه إلى السماء: كنا نسير في اتجاه خاطئ! ويجب الرجوع إلى الوراء.

وبدأت هذه التأجيلات، وهذه التغيرات الثابتة في الطريق في إثارة أعصابنا. وشعرنا بإحساس مزعج بأن الذين سألهم عن الطريق يحاولون دفعنا إلى التنزّه أو تضليلنا. ومرت بضع دقائق. فهل أصبحنا الآن على الطريق الصحيح؟ وكان محمد يبدو ضائعاً دائماً.

فجأة ظهرت سيارتان، إحداهما سيارة مرسيدس قديمة سدت طريقنا بوقوفها أمامنا، بينما توقفت الأخرى إلى جانب سيارتنا من أجل إيقافها. وفي الحال أدركنا ما يحصل لنا: فمن المستحيل أن نتقدم أو نتراجع . . . أو نهرب، لقد وقعنا في مكيدة.

سارع خمسة أو ستة رجال مسلحين واندفعوا في هجوم نحونا. كانوا يرتدون جلابيات ودون أقنعة، وحاملين بنادق صيد وكلاشينكوف. وبقينا مجمدين، وغير قادرين على أدنى حركة، حتى وإن تردد كريستيان لحظة في أخذ هاتفه الموضوع في علبة كفوف وفي الأخير، لم يغامر، وكان محقاً في ذلك، لكي

لا يتسبب باعتداء من قبل الخاطفين الذين كانوا يمكن أن تختلط عليهم مقاصده ويظنون أنه سيستخدم سلاحاً معيناً. وفتحوا أبواب سيارتنا، دون عنف ولا إطلاق نار. وخرجنا. وصاح كريستيان بالعربية:

صحافي فرنسي! مونتي كارلو! راديو فرانس!

ولا أي جواب. وأمسك الأفراد بي بقسوة. وتركت على المقعد الخلفي حاسوبي وهاتفي المحمول ولم يقيدوا لي يديّ، ولم يضعوا قناعاً على وجهي، وهي تفاصيل تظهر إلى أي حد يشعرون أنهم في أرض آمنة. وفضلاً عن ذلك كانت تمر عربات أخرى على الطريق، دون أن تولي انتباهاً لجمعنا.

ثم دفعوني إلى صندوق إحدى السيارتين بقوة. كنت في حالة الصدمة! وتملكني إحساس بأنني لا أستطيع البقاء حياً طويلاً في مساحة بهذا القدر من الضيق حيث كنت أتنفس بصعوبة. لكنني تماسكت بسرعة وتوصلت لاستعادة هدوئي وبدت لي مشكلة التنفس شأناً زهيداً، والرهان أكبر خطورة بكثير.

وقلت في نفسي أن هذا ليس مستحيلاً! فقبل أيام فقط، كنت أنبه زميلاً من TF1 من المخاطر التي كانت كامنة في أخذ طريق النجف.

وشيئاً فشيئاً استعدت أفكاري. ولم يبدُ لي الوضع ميؤوساً منه.

فنحن أحياء، ودون شك ذاهبون في رحلة صعبة ليومين أو ثلاثة، مثل ألكسندر بوردانوف. لنبق هادئين، وعادت إليَّ هذه السخرية من مصير الزميلة الأميركية التي حذرناها البارحة مساء. . وكذلك جلجلة رهائن لبنان. هذه الرؤى أقلقتني.

أما بشأن الإشاعات التي كانت تصل إليَّ من الخارج، فقد أدركتُ أن رفيقيَّ في المحنة قد وضعا في مؤخرة السيارة. وسمعت بشكل غامض صوت كريستيان الذي يتابع تكرار القول بأننا صحافيان فرنسيان. . راديو فرانس. . . لوفيغارو! صحافيان فرنسيان، راديو فرانس، لوفيغارو.

الاحتجاز

كريستيان ومحمد وأنا ترافقنا على هذه الطرقات المشوشة والكثيرة الغبار، وأحسست بالضيق والفضولية في آن واحد. ولفرط مراقبة الأحداث كمشاهد، أكابد صعوبة في قبول أنني أصبحت فاعلاً صامتاً، يظهر في النوع الأكثر تكيّفاً.

وبعد حوالي عشرين دقيقة، توقفت السيارة. وفتح الصندوق. وأخرجني واحد من الرجال وصفعني وهو يرغمني لإبقائي مطأطئ الرأس ومغمض العينين. وكان لديّ الوقت التقريبي لرؤية كوخ على بعد بضعة أمتار. لكن عصبة أعمت عينيّ فور ذلك وأغلال قيدت يديّ، كما جرى ذلك لكريستيان ومحمد.

وأخذنا إلى الداخل، حيث أجلسونا ثلاثتنا على الأرض جنباً إلى جنب.

- سحقاً لما نحن فيه! همس لي كريستيان بصوت مخنوق.

ثم نزع عنه الخاطفون عصبته وأدركت أنهم يُظهرون له إحدى الصور:

- كيف أنت صحافي ولا تعرف الجنرال كيميت؟ هذا الكلب الأميركي؟

- آه نعم، غمغم كريستيان، العسكري... هذا هو الجنرال كيميت والآخر لا أعرفه.

توترت أعصاب الخاطفين، وسمعت صفعة كف، ثم تكررت الصفعة. وأخرج أحد الرجال وهو غاضب، مسدساً سدده نحو صدغ كريستيان المقتنع بأنه يعيش آخر لحظاته. ثم أسئلة جديدة، وإنكارات جديدة وصرخات جديدة. ويصر كريستيان على عدم رؤية شيء.

وبهدوء أبعد أحد الرجال فوهة المسدس، وهبط الضغط. وانسحب الخاطفون. وسألت كريستيان عما يجري؟

- إنها قصة مجانين! لقد أطلعوني على صورة يُرى فيها أيمن ابن سائقنا، برفقة الجنرال كيميت!

- هذا غير ممكن! ولم تعرف كيميت؟

- كلا، لم تكن معي نظارتي.

هنا، تملكني الخوف. الأمر يتحول سوءاً، وغضب الخاطفين ينذر بأن يصبح أكثر عنفاً.

في الواقع، بعد لحظات من اعتقالنا، اكتشف خاطفونا، خلال تفتيشهم للسيارة، هذه الصورة في علبة الكفوف، وكان

الجنرال كيميت الرقم الثاني في القوات الأميركية في العراق، والرجل المشنع عليه من قبل معظم سكان هذا البلد، قد وضع يده على كتف أيمن، وابتسم كلاهما. وإذا كان كريستيان قد تعرف على ابن سائقنا، فإنه يكون قد ألحق إدانة ضمنية بالأب دون إعلان ذلك صراحة. إنه يكون بالتالي قد اختار نصف الحقيقة.

تصاعد قلقنا إلى درجة أعلى. ومن أين مصدر هذه الصورة غير القابلة للتصديق؟ هل يكون ابن سائقنا قد عمل لصالح الأميركيين؟ سيكون من واجب محمد أن يعطينا تفسيرات جدية!

بعد بضع دقائق، أعاد أحد الخاطفين ربط العصبة على عيني كريستيان وأخرجونا من الكوخ. هذه المرة، كان محمد هو الذي أُلقي في الصندوق دون مراعاة، بينما وضعني سجانونا مع كريستيان على المقعد الخلفي مطأطئ الرأس ومقيد اليدين. ومن أحل خلط الآثار أطلقوا صرخة فينا:

ـ سنذهب إلى كربلاء.

كانت السيارة تبطئ من وقت لآخر، وكان الرجلان الجالسان إلى الأمام يناقشان كما لو أن شيئاً لم يحصل، مع أشخاص يلتقيانهم.

كان الجالس إلى اليمين يطلق بالعربية الشتائم الموجهة إلينا:

شيراك «كلب»، بإثارة مسألة الحجاب الإسلامي في فرنسا. وأحسنًا تجنب الرد.

وصلنا حينذاك إلى ما سيشكل المكان الأول لاحتجازنا. وسنعمده باسم «المزرعة»، وسنبقى فيها الخمسة عشر يوماً الأولى من حبسنا. وبعد إطلاق سراحنا، عندما نسمع الكلام عن البث الشهير للقناة التلفزيونية TF1، الذي لم نكن نعرفه بالطبع، ننفجر ضاحكين بكل صراحة. ولموقعها في بستان للنخل، فإن هذه المزرعة لا تشمل إلاّ بضعة أبنية تشبه أكواخ الخيل.

وبدخولنا إلى ما يسمى زنزانتنا، رأى كريستيان عبر عصبة عينيه رجلين مكممين وجالسين على الأرض ومطأطئي الرأس. وكان أحد الخاطفين قد أخذهما بيده من أجل إخراجهما بصمت. وعرفنا بعد بضعة أيام جنسيتهما: فريدون جهني، قنصل إيران المختطف في كربلاء قبل شهر من قبل الجيش الإسلامي والمدير العراقي لمحطة توليد كهربائية.

تمّ حبسنا في ما يشبه مخبأ مساحته 12 متراً مربعاً، تتصدره قارورة ماء غير صالحة للشرب، وغطاء بلاستيكي يغطي وجه أرضه الصلبة، والجدران مبنية بالصلصال والقرميد، وله نافذتان مشبكتان تطلان على حقل من الذرة، وفيه مروحة متعبة تدور

بطء. ولإتمام هذا الديكور السبارطي، تتصاعد رائحة نتنة من أرض المرحاض.

عندما اشتدت درجة الحرارة عند الظهر، حمل لنا حارس طبقاً من الشاي والتمر والفاصوليا اليابسة. ولم تكن الحالة النفسية تسمح لنا بتناول الفطور. وبالكاد لامسنا الغذاء. كان باب زنزانتنا معدنياً، وكنا نجازف بالتحدث بيننا بصوت منخفض. هل وقعنا بين أيد شيعية أم سنية؟ هل يتعلق ذلك بصبيان شارع أم بمقاومين أم بمقاتلين إسلاميين؟ وسيطرح هذا السؤال على امتداد ثمان وأربعين ساعة لأن الناس يستعملون، في آن واحد، التعبير الشيعي السيد والتعبير السني الأمير.

نحن في المصيدة، لكن الملائم أن نبقى صامتيْن. وأعدت التفكير في كتاب تيري أندرسون، جُبُّ الأسود، 2454 يوماً رهينة في لبنان، كتاب حول حلحلة الاحتجاز، والأكثر إثارة مما قرأت. ويتعلق أحد الدروس المستخلصة منه بتكتيك الخاطفين: فهم يتوزعون الأدوار، فيقوم البعض بالأدوار الجيدة ويقوم آخرون بالأدوار السيئة، مما يشكل تعاقباً بين الحمام البارد والحمام الساخن ولتهيأ لمواجهة الفئات العليا والدنيا.

لكن لماذا هذه الصورة؟ سألنا محمداً في محاولة لفهم هذه الغلطة الفاحشة. ورغم تأكيداته لم يقنعنا: ابنه لا يريد الذهاب

إلى الولايات المتحدة، وهو بعثي مثل والده، ونحن في وضع طافح بالتشوش حيث يمكن اتهام كل منهما بالتجسس، بل بالتعاون مع الأميركيين . . . فكيف أمكن لأيمن، الذي هو في السابعة عشرة من العمر، التعاطي مع هذا الدور الغبي والخطر؟ ولماذا يحمل والده هذه الصورة، وهو الممارس القديم لأساليب صدام؟

جميع هذه التفسيرات لا تحمل لنا أية تهدئة، خصوصاً عندما يتلخص المبرر الوحيد بمزحة كان ابنه يريد أن يقدمها لرفاقه للتأثير فيهم، عبر استخدام الحاسوب.

ـ حتى وضع نموذج له في سيارتك؟

ـ إنه طفل صغير . . . وصوره مبعثرة في المسكن، وقد وضع إحداها بين أغراضي من أجل القيام بدور جيد معي.

ـ كان يمكنك التخلّص منها.

ـ لم أعد أتذكر أنه كان قد وضعها. أعرف أن ذلك غلطة مني، لكن لكل رجل خطأه.

وليس مفيداً وصف الغضب الذي انتابنا حينذاك. لكن الشأن الأساسي الآن يكمن في إيجاد رقابتنا الذاتية.

بعد مضي ساعة من الزمن، دخل إلى الغرفة ثلاثة مقنعين، وكانوا يرتدون جلابيات كبيرة سوداء. وكان حارس مسلح يقف

قرب الباب، وكان المشهد يمثل احتفالية تتعارض مع المحيط الذي نعيش فيه منذ اختطافنا. أكثر استرضاء وأقل تهوراً في آن واحد. ولم يقدموا أنفسهم، وبدأ استجوابنا. وعلى جميع أسئلتهم كنا نستعيد لازمتنا بالعربية والإنكليزية:

نحن صحافيان فرنسيان لوضع تحقيقات عن العراق. وقد مضت سنة ونصف حتى الآن، ونحن نأتي بانتظام للعمل في بلادكم. كريستيان يسكن في عمّان، وأنا أتنقل بين باريس ومنطقة العمل. إننا نسعى لنشرح للفرنسيين واقع الاحتلال الذي تتعرضون له. وأنتم تعرفون أن بلدنا ضد الحرب. ويعتبر هذا الاحتلال غير شرعي كما يعتبر حق المقاومة شأناً مقدساً.

ووجهت إلينا أسئلة أكثر دقة. منذ متى نحن هنا؟ ما هو تاريخ أول قدوم لنا إلى العراق؟ ماذا نقول عن الموقف الفرنسي؟ إننا نقوم بدورنا بعمق: كفرنسيين وصحافيين. وفضلاً عن ذلك لا تطرح الممارسة علينا أية مشكلة وجدانية. وليس لدينا أي شيء نخفيه، لا في العمل ولا في المعتقدات.

على خط التعابير، يأخذ التداول دوراً شبه عاطفي. وسأل الرجال كريستيان أين تعلم العربية، وعندما أجابهم أنه عاش في القاهرة وعمّان شعرنا أننا سجلنا نقطة لصالحنا. وحرصت جيداً على ذكر فترات إقامتي في القدس. ومن غير المفيد إثارة أية

شكوك لديهم أو أسئلة مربكة مثل ما وُجه إلينا هذا الصباح. وبقدر أكبر أنهم اعترفوا، عند منعطف جملة، بأنهم يحذرون الصحافيين الذين، في رأيهم، يتعاطون نشاطات تجسس. وأظهرنا بالتالي صمتاً مطلقاً حول تحقيقاتي في إسرائيل كما بشأن كتابنا المكرس لصدام، وأدركنا، كريستيان وأنا، بصورة بديهية المناطق الخطرة في هذا الحوار.

بالمقابل ذكرت لهم تحقيقاً أجريته في حزيران/ يونيو 2003، وكان يستهدف البرهان بأن الأميركيين بسبب أخطائهم ورعونتهم، بعيدون عن تحسين الوضع، وكانوا يفخون في الجمر وينعشون صراعات سلفية. وأظهرت لخاطفينا صيغة كانت تُستنتج، حسب اعتقادي، من مقالتي لهذا العصر: في العراق، يتجه الأميركيون إلى الجدار في خط مستقيم.

وبدا سجانونا مرتاحين لسماعي أقول أنني أتوافق مع أحد أوجه تحليلاتهم. كما ذكرت تحقيق تموز / يوليو 2003 حيث كنت أحاور رقيباً أميركياً كان يعبّر عن نعمه العميق في وجه هذا الاحتلال غير المجدي. وبالتالي كان كل شيء يؤكد أنه ليس لدينا أي تعاطف مع المصلحة الأميركية.

لا تظنوا أن جيوش الاحتلال يحملوننا في قلوبهم. ففي يوم الأحد الأخير لم نستطع حضور المؤتمر الوطني الذي نظم في

بغداد، لماذا؟ لأن الأميركيين كانوا قد رفضوا إعطاءنا شارة الدخول.

وقبل خروجهم سألناهم عما سيحدث:

- سيأتون في الحال ليصوروكما

- متى سيطلق سراحنا؟

- لا تقلقا. أنتما في حمايتي، أجاب المسؤول عنهم. وعلينا التحقق من هويتكما، وإن شاء الله سيطلق سراحكما غداً أو بعد غدٍ.

- هل هناك مطالبة بشيء؟

- كلا. لا مطالبة.

وكنا في حالة ضعف تمنعنا من تصديق ذلك.

وبعد ظهر ذاك اليوم جاء اثنان آخران من الخاطفين يلسان الكوفية، لكي يقوما بتسجيل تصريحاتنا.

وسرعان ما صار الوضع يأخذ طابعاً سريالياً. فكل فيلم يستلزم جنيناً لإخراجه، ووجدنا أنفسنا نقوم بالعمل بأنفسنا، وأعددنا القماش الأسود الذي سيشكل أرضية الشاشة أثناء قيام خاطفينا بزرع الأوتاد في الجدار. ثم أعدنا الجلوس في محيط أكثر استرخاء.

- هكذا؟

ـ نعم هكذا، جيد جداً، اجلس قليلاً إلى الجانب لكي يمكن إدخال شعارنا في الصورة.

يعني ذلك الشعار الرمزي للجيش الإسلامي: خريطة العراق طبعت عليها بندقية الكلاشينكوف وتقدم كريستيان. وطلب منه الرجل الذي يقوم بالتصوير أن يقدّم نفسه بالعربية. وأضاء النور الأحمر.

ـ أنا كريستيان شينو. صحافي من فرنسا أعملُ لصالح راديو فرنسا الدولي. أنا هنا مع صديقي جورج مالبرونو في صحيفة الفيغارو لقد أضعنا الطريق خلال توجهنا من بغداد إلى النجف حيث كنا نريد تغطية حصار المدينة.

وجه المصور إلى كريستيان إشارة بنجاح التصوير. ولمحت بطرف العين الحارس واقفاً قرب الباب، ويحمل مسدساً في يده. وبدت عليه المفاجأة خلال التصوير: وجه فرنسي شاحب ويتكلم العربية عليه أن يتماثل مع نوع من بضاعة سوقية. وقد تمكن الخاطفون من إيجاد الظاهرة المشكوك فيها. وأضاف كريستيان بعض التأكيدات التي يتمسك بتكرارها في آلة التصوير، كما لقناها منذ هذا الصباح للخاطفين: لا شيء لدينا ضد المقاومة، ونحن ندرك هذا الحق بصفتنا من أبناء شعب تعرض هو نفسه للاحتلال من قبل جيوش أجنبية. والمجاهدون

هم المقاومون . ويبدو أن لهذه الاستراتيجية قيمتها . وربما يتيح لنا الاعتماد على النطاق الإنساني عقد اتصال أكثر صحبة مع خاطفينا .

وأُطفئ النور الأحمر . ونهض كريستيان إلى المصور ليسأله إذا كان التسجيل ملائماً له . فوافق هذا الأخير حتى أنه أطلعه على عرض عشر دقائق من الشريط .

وبدورنا محمد وأنا سجلنا بعض الجمل وانتهت الجلسة . وفكت مسامير الغطاء الأرضي وجمعت آلة التصوير . وشعرنا بالارتياح لعدم ظهور أي مشهد مذل كما في حالات أخرى من خطف الرهائن، مثل الركوع على الركبتين، وتصويب السلاح إلى الصدغ . . .

وبدا الخاطفون مرتاحين وانصرفوا . واعتبرنا هذا التسجيل ذا دلالة جيدة، واعتقدنا أن الشريط سيبث بسرعة على قناة الجزيرة مما يثبت صحة خطفنا .

في الواقع ستستخدم هذه الصور من قبل مسؤولي الجيش الإسلامي من أجل تعزيز الرأي العام، ولن تصل أبداً إلى وسائل الإعلام .

في المساء، دخل الحارس ذو المسدس إلى زنزانتنا ووجه إلينا كلاماً بشكل مفاجئ، كما لو أنه يبوح بشأن سري :

ـ كان صحافي فرنسي قد خطف في نيسان/ أبريل، فهل تعلمون؟

نعم، كان يدعى ألكسندر يوردانوف. وأُطلق سراحه بعد ثلاثة أيام.

ـ هذا صحيح، بعد ثلاثة أيام. وكان معتقلاً لدى مجموعتنا.

ونأمل أن نستفيد من الحل السريع ذاته.

وانتهى ذاك اليوم مع إشارة أخرى إيجابية. ونقل لنا رجلان، في كيس من البلاستك، الأغراض التي كانت توجد في سيارتنا: هواتف، جوازات سفر، محفظة نقود... وجلسا أمامنا، وطلبا منا لمن يعود كل واحد من هذه الأشياء التي يعيدانها إلينا بقدر متناسب مع إجاباتنا. وكنا أكثر ارتياحاً مما لم تستحضره مسألة الصورة أبداً.

لكن أحد محاورينا توجه نحو محمد، وبحركة غاضبة عرض عليه الصورة المشهورة:

ـ ما هو هذا؟

وتعرض سائقنا حينذاك لاستجواب قاطع. وقيد له سجانوه يديه وراء ظهره، وهم يوجهون إليه الشتائم.

ـ انظر إلى رأس هذا الجاسوس!

ـ صدقت، زايد الآخر.

حاول محمد أن يقدم الحجة، وبدا حذراً من الاعتراف للخاطفين بأن ابنه يعمل لصالح جمعيات أميركية، وتحت هذا العنوان تمكن من عقد لقاء مع كيميت وتصاعدت اللهجة، وأهانوه بشدة أكبر. وكان الرجل الذي يوجه الأسئلة يطلب رأينا قائلاً:

ـ انتبه لما ستقوله، فيمكن لكلماتك أن تثبت مصيره.

وذكرته بأن أيمن الطالب الشاب، رفض منحة مقدمة من قبل الأميركيين، وبالتالي إنه لا يحبهم، وأن والده لا يشارك مع قوات التحالف. وبدا أن كلامي لم يقلقه فشدوا محمداً إلى الخارج من أجل متابعة «طبخه».

وقبل الخروج، صرخ فينا أحد سجانينا:

ـ انتبها، سائقكما يعمل مع الأميركيين. ويستخدمكما للمجيء والقيام بالتجسس علينا. أما بالنسبة لكما، فكل شيء جيد لأنكما فرنسيان.

وطمأنتنا هذه الجملة الأخيرة قليلاً. وكنا نخشى في الواقع أن يرتد الشك بمحمد علينا.

بعد عدة دقائق، فتح الباب، ودفع الخاطفون محمداً إلى الأرض. وكانت عيناه معصوبتين ويداه مقيدتين. وغيَّر الخوف هيئته. وهو قليل الإيمان، وأقل ممارسة للطقوس، وكان يدفع في

صلاة طويلة قبل أن يطلب المساعدة بإلحاح. فماذا يمكننا أن نفعل؟

ـ نادِهم، اطرق الباب لتقول لهم بأنني لست مسؤولاً عن شيء وبأنني لا أقيم أية علاقة مع الأميركيين.

وكنا نحاول إعادة السجانين، دون جدوى. وهذه المرة كان المشهد والصمت يبدوان نذيري شؤم. وكنا نخشى أن يُعدم محمد، هو نفسه كان يعتقد بذلك.

وكنا نشعر بأننا غير قادرين ونشكو من الضرب.

قبل مرور ليلتنا الأولى، كان الوضع كما يلي: نجحنا في إجراء حوار مع خاطفينا وبددنا نقاط سوء الفهم، وأرسلنا الشريط إلى السلطات الفرنسية واستعادة أعمالنا. ورغم حادث الصورة المؤسف، كان الوضع يبدو مرضياً. وبالإجمال لم يكن ينقصنا إلا الحرية! كانت تغيب عنا بقسوة، بالطبع، لكنها ستعاد لنا دون شك غداً، إن لم يكن بأقصى سرعة.

هذه الليلة، لا يمكننا تصور التجارب التي تنتظرنا: الاستجوابات التي لا نهاية لها، الدور المتواصل صعوداً ونزولاً، الآمال الكاذبة التي تليها الشكوك المرهقة. كنا بعيدين عن تصور وجوب الانتظار أربعة أشهر من أجل أن تتحقق آمال اليوم الأول في الواقع.

هذه التجارب كنا نحسها في جسدنا منذ استيقاظنا. وفضلاً عن النوم على أرض صلبة، كانت تتعرض أجسادنا لهجمات البعوض المتواصلة. حتى إنَّ عقرباً تسلل إلى طيات الغطاء الأصفر! أما الفطور الريفي والأساسي الذي حمله لنا أحد الحراس والمكوّن من الشاي وبعض الملح والخبز واللبن فإنه كان يعيدنا إلى بشرية اختلستنا منها الساعات التي عشاها لتونا. فقد أضافت هذه الليلة آلامها الجسدية والأخلاقية إلى القلق النفسي لليوم الأول للاحتجاز.

مع ذلك، فقد كنا بعيدين عن تصور أن مصيرنا، في بضع ساعات، يظهر لنا مرغوباً فيه. وقريباً ستظهر لنا وظيفة هذا المكان الذي احتُجزنا فيه في كل قوّته: فالمزرعة تلعب دور مركز للفرز حيث تُحتجز الرهائن قبل أن يقرر مصيرها استجواب أول. ويتم هذا الفرز في بعض الأحيان بكل قسوته. وللمرة الثانية، تقدم لنا الخمسة عشر يوماً التي سنعيشها، البرهان القاسي.

حوالى الظهر، في هذا اليوم الثاني، فتح مجاهدون باب زنزانتنا حيث كانوا يدفعون دون احتراس غربييْن معصوبي العينين. الأصغر في حوالى الخمسين من العمر، ويرتدي ثياب عمل زرقاء وصندلاً ويبدو سالماً. لكن سرعان ما عاد الخاطفون

للظهور، وألقوا أرضاً شاباً عراقياً في صحة جيدة. وكان الجريح قد تلقى رصاصة في الفك، مما أدى إلى اقتلاع جزء من الفم وعدة أسنان. وكان مشهد النظر اليه مرعباً. والرجل ينزف دمه ويكابد الاستشهاد. ولم يكن لديه من وسيلة إلاّ مسح جرحه بخرقة مبللة بالدم. وفك السجانون العصائب عن عيون السجناء الجدد قبل دفعهم للجلوس قربنا.

حاول أحد هؤلاء الرجال الثلاثة أن يقدّم نفسه لنا بواسطة صيغة مغمغمة تظهر بتقطع: يوغوسلافيا تيتو، يوغوسلافيا تيتو. ورغم جهوده لم نتوصل إلى التفاهم معه بأية لغة نعرفها. ثم يعود فيكرر: مقدونيا، سكوبيا، مقدونيا سكوبيا مما أتاح لنا تحديد مكان بلده.

كانا عاملين مقدونيين قدما للعمل في قاعدة أميركية من أجل تغذية عائلتهيما الباقيتين في بلدهما. وعلمنا بعد إطلاق سراحنا أن الأصغر كان قد اضطر للزواج من ابنة رفيق سوء حظه. وتعرض الموكب الذي كانا في عداده، لهجوم على طريق بغداد- النجف. وكان المهاجمون قد ظهروا من كل اتجاه وأطلقوا النار على دواليب السيارات من أجل تعطيلها عن السير. وقد تمكن البعض من الفرار لكن السيارة الأخيرة وقعت بين أيدي رجال من الجيش الإسلامي وتم أسر من كان فيها وكان الرجل المرتدي

الثياب الزرقاء مهاراً، بسبب ما تعرض له، وأرسل لنا إشارة استفهامية تعتها محاولة نحره. وحاولنا تهدئة مخاوفه بحركات إيمائية. وبدا لنا أن المقدونيين لم يفهما شيئاً من مأساتهما، ولم نتمكن من التفاهم مع خاطفيهما.

عاد السجانون في نهاية اليوم. وفتشوا دون احتراس أغراض السجناء الجدد للتحقق من عدم وجود أجهزة تنصت.

وهمس أحد الخاطفين إلى كريستيان أن طلعات مشبوهة للطائرات الحوامات كانت تقلقهم. وشكل ذلك بداية محاولة استحواب جديدة حول المقدونيين:

ـ أميركي! أميركي! كان السجان يوجه كلامه إلى أحد الرجلين وهو يضربه بإطار داخلي لدولاب سيارة.

وكان كريستيان يقوم بدور المترجم قدر المستطاع. وبأداء شارة الصليب كان يسأل العمال ما إذا كانوا كاثوليك أو مسلمين. وفجأة توتر أحد الحراس، وصوّب مسدساً وهو يزعق نحو أحد المقدونيين آمراً:

ـ تكلم بالعربية! تكلم بالعربية!

لكن الرجل المرعوب لم يستطع إلاّ أن يجيب بلازمته:

ـ يوغوسلافيا تيتو، يوغوسلافيا تيتو...

حينذاك التفت قائد الخاطفين نحو سائقهما وصرخ:

ـ أنت أيضاً تتكلم أو تموت!

ثم غادر الخاطفون المكان .

وحوالي الساعة الثامنة عشرة ، جاء من يُفترض أنه طبيب لدى الجيش الإسلامي ، ليتفحص الجرحى . فقام بتطهير الفم المزق للعراقي ووضع له ضمادة ، كما فعل الأمر نفسه مع ساق المقدوني .

ورغم الضغوط ، وطالما أن قرار المحكمة الإسلامية لم يحسم بعد مصير كل واحد ، يجب أن يبقى المحتجزون أحياء . وأن يتلقوا معاملات جيدة . وسنعلم لاحقاً أن المقدونيين وسائقهما قد أُعدموا بعد شهرين من احتجازهم .

ومساء السبت ، شعرنا بأكبر الصعوبات لبلوغ النوم ، ونحن ممددان على غطاء يستخدم فراشاً . وكانت تقلقنا تساؤلات كثيرة : كيف تلقت عائلتانا الخبر؟ فكنا نتصور المشهد الذي يرفع فيه أهلنا سماعة الهاتف . . . ونحاول بسرعة طرد هذه الأفكار السوداء : كنا بحاجة للتماسك ، وقد حانت ساعة بدء تصفيح أنفسنا

صباح الأحد باكراً ، قام أحد حراسنا بلف عصبة على العينين ، وأخذونا نحن الاثنين دون محمد إلى كوخ آخر يقع على بعد عشرين متراً عن كوخنا .

أجلسونا على أرض نطوي فيها الساقين ونباعد بين الركبتين. وطلب منا صوت بالعربية أن نقدم هويتنا وأن نشرح أسباب وجودنا في العراق. فردد كريستيان كلامه ذاته للمرة الثالثة. ثم نزع سجانونا عصبتينا وعرفنا حينذاك من هو سعد. فكان رجلاً كبيراً وقوياً، وبدين البطن، ذا يدين كبيرتين مثل المخباط. وكان يخفي وجهه بقناع أسود ويلبس جلابية وصندلاً. ومن بداية احتجازنا إلى نهايته كان هو الشخصية المركزية لمجموعة الخاطفين.

كان يجلس على كرسي دائماً، إلى جانب أحد أعوانه المسلح بكلاشينكوف. ويقول لنا إنه رئيس دوائر الاستخبارات قبل أن يشرح لنا موقف مجموعته:

نحن الجيش الإسلامي في العراق. ويكافح بأوامرنا ما بين عشرة إلى سبعة عشر ألف جندي سني وسلفي. وأعداؤنا أربعة: قوى الاحتلال الأميركي-الإنكليزي، وحلفاؤهم المدنيون والعسكريون، الشرطة العراقية التي تغلغلنا في صفوفها، وأخيراً الجواسيس.

- نحن لا ننتمي إلى أي طرف من هذه المجموعات، رددنا عليه.

- مهمتي أن أتحقق من ذلك.

وبدا أنه أراد أن يعطي لاستجوابنا لهجة أكثر انفراجاً، وشبه ودية.

كان ينادينا بأسمائنا الشخصية ويعبر عن رأيه بإنكليزية صحيحة بقدر كاف. ثم ينتقل إلى تسجيل بالفيديو ويطلب منا التوجه بحديث مخصص للفرنسيين. وكان كريستيان يسجل الرسالة نفسها بالعربية والفرنسية. ويحاول فيها طمأنة عائلته.

نحن معتقلان من قبل الجيش الإسلامي الذي يقوم بمهمة التحقق من هويتنا. وكل شيء جيد. ونتحمل الصدمة. وليس إطلاق سراحنا إلاّ مسألة وقت.

وقد سجلت النص ذاته.

ـ الآن، سننقلكما إلى فندق ثلاث نجوم، قال سعد.

ثم نُنقل إلى مكان آخر يقع في المواجهة تماماً. وهو بيت تقليدي من اللّبن حيث يعيش فيه سكان المزرعة، ثلاثة رجال علمنا في ما بعد أنهم إخوة، ونساؤهم وأولادهم. ووضعنا الخاطفون في غرفة ملاصقة لهم ولا يزيد حجمها عن ثمانية أمتار مربعة. وليس فيها إلاّ نافذة صغيرة مغطاة بستار، وتطل على نباتات من القصب. وفيها مروحة تدور ومصباح تعبس يضيء مجمل البيت. وتحصل فيه حالات قطع الكهرباء كثيراً ويحرك فيا. في المرحلة الأولى، تصاعداً في القلق يتناسب مع

مقدار ما تختبره الرهائن من الارتدادات الطفولية: الخوف من الظلام والصمت والمجهول... وكانت الأرض مغطاة بالحصير وينطلق من المجمع شعور بالنظافة. وترتفع معنوياتنا قليلاً. وبعد ذلك تتأقلم مع أشكال الضجة في الريف المجاور: نهيق الحمار وصياح الديك يطغى عليهما أحياناً مرور طائرات أو حوامات.

عرض سعد حالة سائقنا قائلاً إن وضعه في إشكالية بسبب الصورة الشهيرة، لا يكشف معلماً حول هذه الوثيقة ولا أية إشارة، بينما غالباً ما تظهر عيوب على الصعيد الخلفي، أكدها هو من موقع اختصاصه. وعرض علينا الوثيقة التي نُفضلها تحت جميع النواحي. وفي الواقع إن الشك مسموح به، لكننا نتحفظ جيداً على إظهار رأينا. أما هو فيلح علي:

ـ الانتباه! أطلب رأيكما حول هذه الصورة التي بسببها يتعرض سائقكما لخطر الإعدام

وانطلقنا حينذاك في دفاع دون تحفظ عن محمد. ابنه شاب... يتعلم المعلوماتية... وذو ذهنية هزلية... وبدا أن أحاديثنا أثمرت حيث بدأ الحراس منذ اليوم التالي، بمعاملة سائقنا بنوع من الخصوصية. إلاّ أننا اليوم لسنا مقتنعين بأن الأمر يتعلق بتحسن للوضع.

بعد ذلك بقليل، عاد سعد محاطاً بحارسين مسلحين أعادا لنا

أغراضنا، بدءاً بجوازي السفر، وكان خاطفونا مقتنعين، عند إلقاء القبض علينا، بأنهم وضعوا أيديهم على أميركيين، وأنهم سيتقاسمون الغنيمة: السيارة وأجهزة الهاتف... والمحفظة المالية لكريستيان:

ـ كم من المال كان في داخلها؟ سأل سعد.

ـ مئة وعشرة دولارات.

ـ سأقوم بتسديدها لك.

وسارع إلى إخراج ربطة من الأوراق النقدية وأعطى 100 دولار إضافية إلى كريستيان.

ـ لا أهمية لذلك... قال كريستيان.

ـ بلى، بلى، نحن لسنا لصوصاً ولا قطاع طرق، نحن مقاومون سياسيون في الجيش الإسلامي.

وتبع ذلك تفاوض سريالي

ـ كم تريد ثمناً لجهاز هاتفك؟

ودون انتظار الجواب، دعم قوله بالفعل، فقدم له مئة دولار أكثر، ثم ثلاثمئة إضافية مقابل جهاز الثريا. هكذا حصل كريستيان على تعويض خمسمئة دولار. أما أنا فقد قُدِّر فقدان حاسوبي ومحفظتي المالية بمئتي دولار. وخرج محمد بأقل من ذلك بكثير: ثلاثمئة دولار لهاتفه المحمول وسيارته. وقد روى

لنا أحد الحراس المتنافرين مزحة ذات مذاق رديء .

ـ يُرد لك المال، ثم تعدم

كان هذا المزاح الأسود يحيرنا . فكيف يؤخذ الصحيح والخطأ بعين الاعتبار الواحد؟ هذا المبلغ يضخم ما كان محمد قد احتفظ به لنفسه أثناء التفتيش السريع الذي قام به الخاطفون بعد توقيفنا، وعلى حساب كل حذر : أربعمئة دولار . أما أنا فكنت قد نسيت ورقة نقدية بمئة دولار دُسَّت في الجيب الخلفية لبنطلوني . والتفتيش على الطريقة الإسلامية تبقى في غالب الأحيان محتصرة، لأنها تتجنب الأعضاء التناسلية والردفين .

وأنهى سعد الحديث بإعلان يوقظ لدينا إشارة من التفاؤل بعد مزحة رجله المأجور :

ـ سأقدم تقريري إلى المحكمة الإسلامية التي ستقرر مصيركم من الآن حتى الغد، أو خلال ثمانٍ وأربعين ساعة على الأكثر .

والإعلان عن حكم لا يخل بالمقاييس الأخرى . وعلى عكس ذلك . إنه يطمئنا بشأن هذه المجموعة المسلحة وأدائها : فيكلف شخص بالتحقيق وآخرون يحكمون . ولما كنا لا نرى ما يمكن أن نُلام عليه، نكون أكثر دقة . وفي نتيجة هذا الحديث مع المسؤول الأول الحقيقي الذي نلتقيه الآن، فنحن إذن متفائلون .

غير أن نوعاً من القلق يتسرب إلى نفسي . فلا أريد أن يعرف

الخاطفون عبر حاسوبي بسوات وجودي في القدس، وكشف المعلومات التي أحتفظ فيها، بجميع النقاط الضرورية لكتابة كتبي، وخاصة بشأن فلسطين وإسرائيل والبيانات عن لقاءاتي حول العراق، وأسماء اتصالاتنا . . . حتى وإن كان مجمل هذه العناصر قد حرر بالفرنسية، فإن الصورة السابقة تؤكد إلى أي درجة يمكن لأدنى تفصيل أن يهدد وضعاً سريع العطب.

تقفل سلسلة معدنية باب الكوخ الجديد الذي وُضعنا فيه، وتتسلل إليه شعاعات صغيرة من النور. ويمكننا النظر عبرها، لكنها تشتمل على مخاطر كبيرة: الحراس الذين يعيشون على بعد أمتار يمكنهم مفاجأتنا، دون الأخذ في الاعتبار لتكامل أعضاء الجيش الإسلامي مع السكان المحليين الذين يذهبون ويأتون من المزرعة وإليها، وندرك ذلك بالمقارنة مع أصوات السيارات والعربات الأخرى. وكل مساء تمر دراجة نارية، وهل تنقل الأوامر التي تخص السجناء؟

كان الكوخ يطل على ملعب داخلي طوله حوالي عشرين متراً، ومقفل بواسطة أحجار نتخيل وجود رهائن أخرى محتجزة فيه. وفي نهاية هذه المساحة توجد المراحيض. ويكفي أن نطرق باب الزنزانة لكي يقودنا فيها رحل مسلح، حتى دون أن تعصب العيان. هذه الفرصة تعادل رؤيتنا للسماء بضع لحظات كل يوم،

وعلى امتداد الأسبوع. وفي هذا الوقت المختصر نقوم بحاجتنا للمرحاض. ويضع فيه الحراس صابونة، بينما تمر ماسورة بسيطة تحت الباب تأميناً للتموين بالمياه.

عندما نجتاز الساحة، نمر أمام غرفة تقع إلى يميننا. وتعلق روزنامة إسلامية مزينة بصورة مكة، على أحد الجدران، وندرك أن العائلة تعيش هنا. وهم شديدو الاحترام للقواعد الدينية: ففي المساء كانت القراءة للصلاة تصل إلينا، ولا أحد يدخن . . . فالسيجارة بالنسبة للإسلاميين الأصوليين تتماثل مع المخدرات.

صرنا نعرف خاصة الإخوة الثلاثة، من الأكثر تعاطفاً إلى الأكثر نفوراً، الذين يؤمنون حراستنا وغذاءنا. فهم فلاحون أشداء اعتادوا العمل القاسي، وذوو الأيدي الضخمة، والأقدام الصلبة، كما يحصل كذلك أن نرى في هذه الساحة امرأة محجبة تلبس ثياباً ذات ألوان زاهية، ولا شك في أنها زوجة من كنا نسميه أبو علي. وهو شاب زقاقي يلعب طوال اليوم، وابنه صبي صغير ودود وذو وجه مربع يدعوه الراشدون عبد الحكيم.

وعندما يقوم أبو علي بمرافقة أحدنا إلى المرحاض، وخلافاً لزملائه، يترك في بعض الأحيان باب زنزانتنا مفتوحاً فيقترب الطفل حينذاك حتى العتبة. والظاهر أن هؤلاء الغربيين يثيرون فضوله فكنا نستفيد منه من أجل محاولة الدخول في الحوار.

ـ كيف الحال يا عبد الحكيم؟ إنك صبي صغير وجميل.

فيتأملنا بعينين كبيرتين، مع ابتسامة خفيفة. وترتدي أمه الحجاب وأبوه كوفية المجاهد، التي تموّه له الوجه. هكذا كنا الأشخاص الوحيدين الذين رأى سماتهم. وعلى مر الأيام نشأ نوع من التقارب. وتركه والده يتصرف. وتكون الإحساس أنه هو كذلك يتعاطف معنا طوعاً. وبدأ بإعطاء سيجارة أو اثنتين إلى محمد الذي كان يبدأ بالثرثرة دون هدف، بل من أجل الحصول على أخرى، الأمر الذي يعطيه موهبة إزعاجنا: فبعد التوسل بالإبقاء على حياته، فقد أصبح يتوسل لإعطائه سيجارة!

رغم بعض هذه التسليات كانت الساعات تمر على خط انتظار طويل وكئيب. ففي النهار نجلس كلنا على الفراش الصغير. فكان كريستيان ينام كثيراً، أما أنا، كعادتي، فإنني بحاجة كبيرة للتمارين. وقبل إلقاء القبض علينا، كنت قد اعتدت الركض لمدة نصف ساعة، على أدراج الفندق الذي كنت أنزل فيه، بسبب عدم القدرة على القيام بذلك خارجاً، بسبب النقص في الأمن. وهنا، رغم ضيق الأمكنة، كنت أبذل الجهد للمشي من أجل الاحتفاظ بشكلي الخارجي، وكنت أقرأ كذلك، وأقرأ ثانية كتابنا حول عراق صدام. وكنت أحمله معي يوم ذهابنا إلى النجف. ولو كان يمكنني أن أتصور الهموم التي كان يشدني إليها هذا

الكتاب، لما فتحته طوال فترة احتجازي وعلى الصفحة الرابعة من الغلاف سجلت ملاحظتينا المتعلقتين بسيرتينا الذاتيتين. وتشير ذاتيتي إلى أنني كنت أشارك آخرين، في صوت أميركا، وعلمنا في ما بعد أن خاطفينا تساءلوا ما إذا كنت مرتبطاً مع الأميركيين. حتى أنهم واجهوا فرضية أن أكون جاسوساً للموساد! ولحسن الحظ أن المعلومات المتعددة المصادر التي لم ينقصهم القيام بجمعها كان لا بد أن تثبت براءتي.

بينما كنا نفكر بمصيرنا ونحاول تصور ما ينتظرنا، وصلتنا صيحات أصوات من الغرفة التي إلى جانبنا. حيث كان السجانون يقومون باستجواب مدير المحطة الكهربائية الذي كان كريستيان قد رآه مع القنصل الإيراني. وتوصلنا إلى متابعة المحادثات التي كان محمد يترجمها لنا. وكان الخاطفون يحاولون انتزاع معلومات من السجين حول حالات الذهاب والإياب لملاك العاملين، وأرقام الهاتف والتفاصيل التقنية. وكان الرجل يجيب كما يستطيع، ويفكر دون شك في إنقاذ جلده. وكما علمنا في ما بعد، فقد أعدم من قبل الجيش الإسلامي.

مرتين في اليوم، كان أحد الإخوة يجلب لنا حصتنا من مياه الشرب في إبريق لحفظ الخمرة. فشربنا كثيراً، لأن الحرارة

الخانقة في هذا الفصل، تتجاوز 45 درجة. وفي بعض الأحيان، يأتي حارس ويجلس وراء النافذة التي يرفع ستارها لمراقبتنا. أما اللائحة النباتية التي لنا حق فيها ظهراً ومساء، فقد توصلنا لنعرفها جيداً. الشاي والخبز والرز والبندورة المطبوخة، والبطاطا والتمر. وعندما تسنح الفرصة يُزين الطعام العادي بالرديء من الفاصوليا الخضراء أو الحساء الخفيفة وقطعة لحم مرة في الأسبوع. ورغم اللبن والشاي المستعملين بشكل واسع، فإن الحصص منهما زهيدة، وخلال الخمسة عشر يوماً سنفقد عدة كيلوغرامات، لكن غريزة البقاء تبقينا من حيث الشكل، ورغم هذه التغذية القليلة التوازن، لن نعاني من أي اضطراب.

كانت لحظات التقارب مع كائنات بشرية أخرى نادرة، سوى في بعض الحالات، مثل حالة أبو علي، الذي نرى وجهه تحت الكوفية عندما يدخل إلى الغرفة. وفي المساء الثاني، يحمل لنا قصاصة من الكرتون لأجل تهويتنا

في مواجهة ظروف السجن الصعبة التي لقيت تخفيفاً في النهاية، هل واجهنا فرضية الفرار؟ أبداً، فقبل مغادرة عمّان إلى العراق، في نهاية الصيف، كان كريستيان قد تصفح كتاباً مطبوعاً من قبل السفارة الأميركية، مخصصاً لمن هم خارج الوطن. ويذكُر مقطع بالنقاط الهامة التي على هؤلاء حفظها في ذاكرتهم

في حالة أخذهم رهائن. 1- كلما مرَّ الوقت، تزايدت فرص الرهائن في الخروج منها. 2 - إذا حاولت الرهائن الفرار، يجب أن تدرك أن خطر الموت يصبح في الحد الأقصى فالكثير من عناصر التفكير يهدئ الأذهان الأكثر تهوراً. وكان يضاف إلى ذلك بالنسبة لنا واقع لا يمكن الإحاطة به: كانت فرص الفرار لثلاثة غير متوفرة، وخاصة في حالة الاحتجاز في البرية الفسيحة والخلاء على حد النظر. فإلى أين الذهاب؟ وما العمل؟ فالتداخل بين القرويين والمقاتلين الإسلاميين يقلل فرصا إلى العدم. ولماذا التفكير بمثل هذه المغامرة عندما نأمل إطلاق سراح قريباً؟

في يوم الاثنين، في أول بعد الظهر، فتح الباب رجل لم نكن قد رأيناه بعد. هو مقنع أيضاً، ويرتدي جلابية رمادية. جثا على ركبتيه في المدخل كما لوأنه يريد أو لا يستطيع أن يتقدم إلى داخل الغرفة، وقدّم لنا قطعة ورق.

هذه للسفارة الفرنسية، تكتبان عليها اسميكما وتوقعانها ثم تضيفان في الواجهة: OK.

وأرفق كلامه بالحركة التقليدية للإبهام المرفوع التي تعني أن الأمور تسير بشكل جيد. واعتقدنا أن الاتصال قد جرى بين الخاطفين والدوائر الفرنسية وأن هذه الأخيرة طلبت تأكيداً أننا لم

نزل أحياء. فرأى كريستيان في جميع هذه العناصر موقفاً وجدانياً لسجانينا: فأدركوا أنهم خطفونا خطأً. غير أنهم لم يعيدوا إلينا جوازي سفرنا ولا قدّموا لنا تعويضاً عن فقدان أغراضنا!

أما أنا فقد أظهرتُ تفاؤلاً أقل، وفاء لدور محامي الشيطان الذي تمسكتُ به منذ البداية. وبقيت مقتنعاً بأن هؤلاء النماذج هم مراوغون وأن طريقة الصعود والهبوط التي كنت أطرحها في اليوم الأول تبقى راهنة وكذلك عندما يأتي، بعد ساعات، أحد الإخوة ليقول لنا منذ البارحة أنه سيطلق سراحكم، فلا أعطي أحاديثه إلاّ ثقة مخففة، ومنطق إطلاق السراح يظهر أنه بدأ، لكن لنكن حذرين ولننتظر قرار المحكمة.

يوم الأربعاء في السادس والعشرين في أول بعد الظهر، فُتح الباب لمرور ثلاثة رجال مسلحين يرتدون الجلابية والقناع الأسود، وجلسوا في مواجهتنا.

ـ أنتما الفرنسيان والسوري، سيطلق سراحكم عند هبوط الليل.

ثم قدّموا نسخة من القرآن لمحمد الذي قبله مع شكر مصطنع. لكونه مسلماً قليل الممارسات للواجبات الدينية، ويعرف أنه من الأفضل القيام بدور الإسلاميين، إلى درجة الاستناد في العمل،

طوال مدة احتجازنا، إلى آيات يرددها بأسلوب فيه شيء من التباهي، لم لا؟ فأمام صورة ابنه، كان يعتمد براهينه الدفاعية من سورة تؤكد أنه لا يمكن إدانة أحد بسبب خطأ آخر. ويلعب هذا الماكر على جميع الحبال الحساسة. وعندما بدأت تفوح من قميصه الداخلي رائحة وسخة، ثم أصبح ممزقاً، نصحناه بطلب قميص آخر من الخاطفين. فرفض معتقداً بأنه يفضل أن يلعب ورقة سائق ضعيف وفقير استثارة للشفقة.

أما نحن، فقد كان لدينا حق في القليل من القراءة. ما يعني بيانات دعائية، ورسالات هجاء بالعربية، مطبوعة في الأردن، وكان أحد البيانات قد نشر صورة جثة شهيد مثبتة في ابتسامة أخيرة. وطرح النص سؤالاً. لماذا يبتسم هذا المجاهد للموت؟ والجواب: لقد ضحى بنفسه من أجل القضية، وهو الآن في الجنة.

مثل هذه الوثائق تؤكد أن خاطفينا ينتمون للحركة الإسلامية، وتعزز ما ردده علينا عدة مرات كثيرة. ومع بعض هذه الكتب، قدّموا لنا قرآناً وخرجوا دون أن يضيفوا شيئاً.

الأمل في الثابت. وكل هذا الحادث المؤسف لم يكن في النهاية إلاّ خطأً وسوء تفاهم. ولا شك في أن كريستيان محق. وفضلاً عن ذلك، فقد أعلن مزاحاً فيه شيء من الاستياء:

- يوم الجمعة مساء أتناول العشاء عند كلود، حلواني الملك عبد الله في عمّان.

فور خروجنا نُعلم وكالة الأنباء الفرنسية بإطلاق سراحنا، ويُقفل البؤس المكدِّر وأستطيع البقاء في المدينة لتغطية الأحداث خلال أسبوعين أو ثلاثة، كما كنت قد توقعت، وانتظاراً لذلك أحضِّر ذهنياً مذكرة النفقات التي غطت الخمسة عشر يوماً، بينما رأيت كريستيان يستسلم لفرحه.

ما يصفه جورج صحيح، فعندما قدم الرجال الثلاثة المقنعون بالأسود ليعلنوا لنا إطلاق سراحنا في المساء ذاته، اعترف أنني لم أضع كلامهم في موضع الشك. ورغم التحفظات العادية لرفيقي في سوء الحظ، كنت مقتنعاً أننا نتقدم نحو غاية قريبة ويبدو أن مشكلة الصورة قد سيت. وعبثاً حاول جورج مواجهة التأخر في إطلاق سراحنا بسبب مسائل أمنية، أو لأن الأميركيون يحاصرون النقطة التي نوجد فيها ولا شيء يخرق تفاؤلي

لكن الساعات تمر، والانتظار يستمر فسألت محمداً ماذا يعني «هبوط الليل للمسلم». فأجابني أن صلاة العصر تؤدّى بين الساعة 18 و20، قبل غياب الشمس بالدقة. ومن حيث المبدأ، فإن إطلاق سراحنا يجب أن يجري في هذا الوقت.

ست عشرة ساعة، ثماني عشرة ساعة، عشرين ساعة... لا

شيء. بدأنا نعتقد أن مشكلة إدارية مفاجئة لا بد أن تظهر: معارك في القطاع، مواجهات على الطريق، حواجز تفتيش يقيمها الأميركيون...

كان لا بد أن يقرروا إطلاق سراحنا أثناء الليل، إنه أكثر أمناً، رأى محمد.

نسهر بالتالي حتى الصباح، وآذاننا تترصد. وعندما يطلع النهار، ننام منهكين تعب الأعصاب.

وفي اليوم التالي، لا شيء دائماً. فحرّكنا أسئلة ظلت دون إجابات:

وإذا كان خاطفونا يطرحون مسألة الحجاب؟ تساءل جورج، متذكراً الطعن اللاذع «بشيراك الكلب»، الذي أطلقه أحد الخاطفين.

وعندما يأتي إلينا أبو علي، سأله عن بعض الأمور.

- ماذا يجري؟ لماذا لم يُطلق سراحُنا؟

- لا بد أن تكون هناك مشكلة تقنية، ربما يوجد أميركيون على الطريق. إن شاء الله! يقول لنا بنوع من التخفيف.

نهار الجمعة في 27 آب/أغسطس. ونحن رهينتان منذ أسبوع. ويبدو أن الانتظار لا ينتهي.

في بداية بعد الظهر، لمح جورج عبر النافذة المشبكة بالقصب

سيارة قادمة . إنها إحدى السيارات الكبيرة للأجرة، زرقاء ومعدنها ملمع . فهل ستكون مخصصة لتأخذنا نحو الحرية؟ وفي الحال وجّه محمد سمعه من أجل التقاط الأحاديث الجارية في الباحة بينما حبسنا أنفاسنا وبعد بضع دقائق، أقلعت السيارة ذاهبة . وبقينا في مكاننا .

اجتاحني اليأس . وتحققتُ فجأة من أن الإخوة الثلاثة لم يقدموا لنا أي تأكيد، ولا أدنى تفصيل حول الإجراءات العملية لخروجنا . وفي النهاية، لا بد من الكثير من الغفلة أو الأمل لتصديق وعودهم بإطلاق سراحنا . وإذا كانوا لا يعرفون شيئاً؟ وإذا كانوا لم يتوجهوا إلينا بأقوالهم إلاّ من أجل أن يسبوا لأنفسهم أدواراً أو كذلك لكي يلعبوا بأعصابنا؟

تحت وفوق . وبينما كانت الشكوك تجتاحنا من جديد، طلب كريستيان من أبي علي إذا كان يمكنا أن نأخذ حمّاماً، يكون الأول منذ احتجازنا . وخطر السؤال بباله دون اقتناع، كما لو أنه كان ينبغي ملء الفراغ . ولم يعتقد لحظة بأن يُستجاب طلبه، فالوضع مظلم جداً ومغلق وغير قابل للفهم . . .

ـ نعم، أجابه بلهجة طبيعية .

لم نعد إلى ذلك . ففي مساء ذاك اليوم خرجنا في الساعة 21,30 إلى الباحة، حيث يجري خيط رفيع من الماء وحمل لنا

أبو علي كيساً من البطاطا على نمط كف من شعر الخيل. وهو تصرّف مستحب في صميم لحظات مشؤومة.

وفي اليوم التالي دخل أحد حراسنا في الحديث:

ـ سنشدد الهجمات ضد خطوط أنابيب النفط والمواكب الإدارية واللوجستية الأميركية، قال وهو يتلاعب بمسدسه. أما المسؤولون السياسيون العراقيون، ومنهم أهدافنا الرئيسية الثلاثة، الربيعي (رئيس مجلس الأمن الوطني) والشعلان (وزير الدفاع) وبالطبع علاوي (رئيس الورراء) فإنني أود شرب دمهم قبل أن يكون لديكم الوقت للحديث معهم.

في صباح الاثنين في 30 حريران/ يونيو، فُتح البابُ بشدة. وأيقظنا من النوم أحد الإخوة الثلاثة ورجل آخر سنلقاه بعد ذلك، وأرغمانا على الوقوف، وقيّدا لنا يدينا وعصبا عينينا. ورغم فظاظة حركاتهما، قفزتُ بفرح داخلي عارم. لقد انتهى الأمر! وجاء إطلاق سراحنا أخيراً.

ـ سننطلق! فاتركا أغراضكما، خذا الحد الأدنى فقط. وسننقل لكما ما يتبقى في ما بعد.

خرجنا على وجه السرعة من الكوخ. وأخذني بذراعي أحد الرجلين ليوجهني وهو يردد: بسرعة، بسرعة. وكان يتكلم

بفرنسية تقريبية، لكن سماعي أحد الحراس يتكلم لغتنا فاجأني، فهل يحب اعتبار ذلك علامة إيجابية جديدة؟

ـ هل تتكلم الفرنسية؟

لا جواب عن هذا السؤال. وبعد حوالي أربعين متراً، فُتح باب آخر، ونزع الحراس عنا عصبة العينين، ووجدنا نفسّنا مدفوعيْن بحياء إلى كوخ كنا فيه في اليومين الأولين. وشعرنا فيه بالضربة الأولى. وتبخر إطلاق سراحنا، بينما كان يبدو قريباً جداً. وكانت العودة إلى الوراء هي الأقل قسوة. ومن جديد الزنزانة الصارمة، وفتحة المرحاض في إحدى الزوايا، والغطاء البلاستيكي الأصفر... وعادت الشكوك من حديد. لماذا يضعوننا في هذه المحطة من الخيار الذي كنا نعتقد أننا تخلصنا منه؟

بسرعة، استأنف ذهننا غربلة الأحداث الأخيرة. فربما أصبحنا قريبيْن جداً من عائلة عبد الحكيم، وحاضرين جداً في حياتها. الخروج إلى المرحاض، والمياه الصالحة للشرب ووجبات الطعام... وأشكال تبادلنا مع الطفل، والتعاطف الناشئ بيننا وبين أبيه... هذا هو على الأقل التفسير الذي يعرضه محمد. وتعرضت الروح المعنوية لجورج للتدهور في بعض الأحيان. وبذلتُ جهدي لأطمئنه. كان علينا الاحتفاظ برباطة جأشنا وألاّ

نفسر هذا التدهور في وضعنا بشكل سلبي. ومع ذلك، فهذا حارس يحمل لنا فطورنا الاعتيادي. ترتفع روحنا المعنوية شيئاً فشيئاً. طالما بقينا على قيد الحياة، فهل لدينا خيار آخر غير الكفاح ضد التجارب التي تعرّضنا لها.

في الساعة التاسعة عشرة، فُتح الباب ودخل سعد إلى الغرفة، برفقة فرد غير ودود كان قد وجه إلينا قبل أسبوع سمة مراحية سوداء. وكان يحمل آلة تصوير. جلس سعد مثل المرة الأولى على صندوق في مواجهتنا، وقام مساعده بلف عصبة على عينيّ محمد وأخرجه وسلمه لحراس آخرين.

ـ نهاركما سعيد. كيف الحال؟ أنتما مشهوران في فرنسا وتجري مظاهرات مطالبة بإطلاق سراحكما، حتى مسلمي فرنسا يشاركون فيها. وأطلق وزير يقوم بزيارة للقاهرة تصريحات من أجلكما. ويبدو أن كل هذا التحرك من أجلنا يفرحه وكان حرصنا كبيراً للتفاعل معه.

هل هذا إعلام أم تسميم؟ فكيف نعرف ذلك؟ لكنه مد لنا يد المساعدة لطرح سؤالنا الأساسي:

ـ إطلاق سراحنا؟

ـ في الواقع، ملفكما كان مجمداً. واضطررنا لمواجهة وضع عسكري صعب في الفلوجة. فبسبب هجوم أميركي وشيك على

المدينة، كانت جميع قواتنا مركزة في هذا القطاع. ولم يقنعنا هذا التفسير وسجل سعد وقفة قبل أن يتابع.

ـ وعقَّد الوضع عامل آخر. فقد تبنت فرنسا، التي تعتبر نفسها بلداً يرتكز على حقوق الإنسان، وأماً للبلدان الديمقراطية، قانوناً حول الحجاب يحظر على الفتيات المسلمات لبسه. فكيف يكون مثل هذا القانون ممكناً؟ وكيف أمكن لبلدكما اتخاذ مثل هذا القرار؟ وما هو رأيكما حول هذا الموضوع المؤلم لمسلمي فرنسا؟

وبقينا لحظة حائرين. فقد حشرنا بقسوة في أرض ملغومة. ويجب الحذر لأقل كلمة يمكن أن تدفع النقاش نحو الانزلاق. وبعد أن جرى التشديد على أن هذا القانون لا يخص إلاّ لبس الحجاب في المدرسة، فقد حاولنا تجنّب أي جدل مباشر. وبسبب ذلك لم يهمل سعد هذا الأمر. حتى وإن كان يطرح أسئلة بلهجة ودية وحالية من العدائية، كان علينا أن نجيب. وكان كريستيان يبادر بالغطس أولاً.

ـ لسنا مؤيدين لهذا القانون الذي يقيد حرية الفتيات المسلمات. وفي بلدٍ ليبرالي مثل فرنسا، يجب أن يكون كل فرد قادراً على ارتداء ما يريد عند الذهاب إلى المدرسة. وفي فهمنا أنه كان يجب تسوية هذه المسألة بالحوار بدلاً من فرض قانون.

وطرح سعد عليّ السؤال نفسه، وقدّمتُ الإجابة نفسها. وخيّم صمت جديد.

ـ تصورا أن حياتكما يُمكن أن تكون عرضة للخطر إذا لم يُلغ القانون. ماذا تقولان للرئيس شيراك؟

كان رد جورج سريعاً، ولم تنقصه الجرأة.

ـ ليس لأنكم تقتلوننا يجب إلغاء هذا القانون.

ـ سنستفيد منكما وتعود لكما معرفة ما إذا كنتما تريدان القيام بهذا الدور أم لا.

ـ أجل، أجاب جورج.

ـ إذاً، ستوجهان نداءً إلى الفرنسيين للخروج إلى الشارع من أجل التظاهر. لأنه إذا لم يُلغ هذا القانون، ستكون حياتكما في خطر ويجب أن تطلبا ذلك من رئيسكما، ليدرك جيداً أنكما معرضان لخطر الموت في أية لحظة.

غالباً ما كان جورج قد روى لي قصص مسار فتوته، وكم كانت مميزة لهذا المسار. وأدرك الآن بما يفكر: هذا المقطع الطويل سيكون صعباً، لكننا سلعبه رغم ذلك وكان المساعد الصامت يوجه التسجيل ثم بدأ جورج يعبّر عن رأيه بالإنكليزية، ليستنتج الصيغة المطلوبة إنني أدعو الرئيس شيراك لإلغاء هذا القانون وإلاّ يمكن أن نُعدم في أية لحظة، وأشار له محرك آلة التصوير أن

الموقف جيد. ليس فقط أنه أكد قيمته، بل عبّر عن ذلك. وعندما جاء دوري في الكلام، قمت بذلك مُعبّراً باللغة العربية، ومشدداً على ظلم هذا القانون الذي ينكر حرية المسلمين. وسأقوم بما يريدون سماعه. وأستنتجُ أن ذلك يعني لنا قضية أيام للقيام بذلك.

ـ إنها قضية ساعات، أضاف المصور التلفزيوني.

أما سعد من جهته، كما لو أنه يبحث في تبرير المعالجة التي أصبحنا المتطوعيْن المتواطئيْن فيها، فقد أكد لي بلهجة شبه هزلية:

ـ نريد رؤية ردات الفعل في فرنسا.

ثم جمع آلة تصويره ونهض، واكتمل التسجيل التوثيقي لهذا الحدث. ومع ذلك سألنا رئيس المجموعة عما سيجري الآن. وظل جوابه غامضاً. وذهب الرجلان بينما أدخل حارس محمداً الذي سارعنا لنروي له ما جرى في اللحظات الأخيرة التي مررنا بها. وانطلقنا في نزع القشرة الرقيقة عن الوقائع والأقوال وأقل نبرة أو تنهد، مما يشكل مضمون يومنا الحالي. فهل في كل ذلك وسيلة ضغط أم أداة ابتزاز أم رغبة في إيجاد مخرج محترم لوضع مقفل؟ كل هذا تقريباً في آن واحد دون شك. وفي الساعات التالية سنتفحص هذه الفرضيات المختلفة بلا توقف ونستنتج أنه بسبب عدم القدرة

على توجيه اللوم لفرنسا في مسألة احتلال بلدهم، يتمسك خاطفونا بحجة الحجاب لتبرير إلقاء القبض علينا.

وشدد جورج على القول.

- موافق أن رئيس المجموعة أقلقنا. لكنه أوضح وجهاً محدداً «تصورا أن حياتكما يمكن أن تكون مهددة»، فالصيغة والمشهد يمكن أن يكونا أكثر سوءاً.

- من جهتي، أعتقد أنه وضعنا في إطار شريط التسجيل، هذا كل شيء. لكن الخروج من الإطار العراقي، والصراع من أجل التحرير؛ عبر التدخل في السياسة الفرنسية لا معنى له! فالحجاب ليس إلاّ ستاراً من الدخان. وفضلاً عن ذلك لستُ متأكداً أنهم يستخدمون هذا الشريط. وربما يُكرّس لهم وحدهم في تواصلهم الداخلي. فكيف يستطيع المسلمون الفرنسيون أن يفكروا بشأن هذه المقاومة العراقية المزعومة التي تأخذ صحافيَّيْن رهينتَيْن من أجل المطالبة بإلغاء قانون قبلته الأغلبية الساحقة منهم؟

- بشكل عام، أجابني جورج، عندما يسجلون شرائط فيها رهائن يتوجهون إلى حكومتهم، يكون ذلك من أجل استخدامها (يطلع الفرنسيون في الواقع، بعد عدة ساعات، على الابتزاز القبيح) ويستطيعون كذلك القيام بتصعيد المزايدات من أجل

تحسين التفاوض على فدية أسلحة أو الطلب من فرنسا معالجة جرحاهم في مستشفياتنا، أو محاولة الحصول على منح دراسية للطلاب الإسلاميين . . . أو كذلك طلب إطلاق سراح الفرنسي الجزائري المعتقل في غوانتامو الذي كان يحتجزه الأميركيون وسلموه إلى فرنسا . كل شيء ممكن .

إلغاء القانون؟ إننا نتذكر دراسات القانون الدستوري: «الدورة البرلمانية جرت في 2 تشرين الأول/ أكتوبر، ودورة الربيع في 2 نيسان/ أبريل . وفي بداية أيلول/ سبتمبر لا تستطيع فرنسا بالتالي الدعوة لدورة برلمانية . لكن دون إلغاء القانون، تستطيع تحريك الزمن وتوفير عوامل التهدئة . ويستطيع رئيس الجمعية الوطنية توجيه رسالة سرية يضمن فيها مراجعة بعض مقاطع القانون . ويمكن اتخاذ قرارات تعليق مؤقت . .

باختصار، يمكن تصور كل أنواع الاجتهاد التي تتيح لفرنسا إخراجنا من هنا . ويبقى أن هذه الفرضيات تتكشف أنها شديدة التعقيد لتطبيقها في الواقع . والتحدي هو في نزع فتيل الأزمة دون إلزام البلد في آليات غير مقبولة . ولم يحدث أن تحصل مجموعة إرهابية على تغيير قانون مصدّق عليه في برلمان منتخَب بشكل ديمقراطي . فكيف سنخرج من هذا المأزق؟

يوم الثلاثاء في 31 آب/ أغسطس، كان اليوم الثاني عشر

لاحتجازنا، وبيما كنا قد اعتدنا ببطء فكرة أن إطلاق سراحنا لن يتحقق على الفور، عاد المصور التلفزيوني البارحة ليعلن لنا أن نائب وزير فرنسي ـ هذا هو تعبيره ـ وصل لتوه إلى بغداد، وعلمنا بعد ذلك أن المعني في الواقع هو هوبرت كولن فيردييه، الأمين العام لمقر وزارة الخارجية في الكيه دورسيه، والتفت حارسنا بعد ذلك نحو محمد وأشار له برفع إبهامه في الهواء: فقد شوهدت شقيقته التي تعيش في فرنسا على التلفزيون.

جميع هذه العناصر تبدو أنها تعني أن عودة الرسائل الموجهة إلى الفرنسيين ترضيهم: نشاط بارنييه الذي دعا من القاهرة لإطلاق سراحنا، وتحرك المسلمين في فرنسا، ووصول نائب الوزير إلى بغداد . . . ويذكرنا كريستيان بخطف دبلوماسيين يابانيين في نيسان/ إبريل أو أيار/ مايو الأخير. وكان أحد الموفدين قد قدم إلى عمّان لإدارة هذه القضية، وأمكن إطلاق سراح الرهائن بعد حوالي خمسة عشر يوماً ويبدو أننا قد أصبحنا في هذا المسار: فقد أوفدت فرنسا مفاوضاً إلى بغداد، وله كل الصلاحية، ونجحت المفاوضات. إنها مسألة أيام. وتوهم كريستيان مجدداً بشأن وجبته مع حلواني الملك في عمّان.

وبعد ذلك، في هذا اليوم ذاته، أدخل الحراسُ شاباً فتى معصوب العينين ومقيد اليدين، وكان يمشي بصعوبة. كان كبير

الجسم قوياً، جيد اللباس، قصير الشعر حليق الذقن. وكانت رصاصة قد حمشت رأسه، وأخرى كتفه، وثالثة ساقه. وقد أعلمنا البعض بأن المعني هو أحد الحرس الخاص لزعيم شيعي مؤيد للأميركيين، أحمد الشلبي الذي يعتبر العدو اللدود للإسلاميين السنّة كما لرئيس الوزراء علاوي.

كان حراسنا يستخدمون طريقة تعبيرهم عن مجرى الوقائع: فقد هُوجم موكب الشلبي على الطريق بين الحلة والنجف. بينما كان المتنفذ الشيعي عائداً من مفاوضات مع المتمرد المحاصر مقتدى الصدر. وتعرض الموكب لإطلاق النار من عناصر الجيش الإسلامي، الذين استهدفوا السيارة الأخيرة من الموكب. وألقي القبض على حارسه الخاص بعد إصابته بجروح. كما قتل اثنان آخران بينما تمكنت السيارات الأولى من الفرار. وفور ذلك جُلب الجريح إلى محطة الفرز، يعني إلى زنزانتنا، حيث يعامله الخاطفون بقدر كبير من السوء، فهو في نظرهم كلب ومرتشٍ وفاسد

ـ لماذا تعمل مع الأميركيين؟ لماذا تعمل مع الشلبي، هذا السافل؟

وركلوه بأرجلهم، وهم يوجهون له التهديدات.

ـ ستقول لنا، أيها الكلب! ستجيب على أسئلتنا.

وجعلنا المشهد نتحيل ما ينتظر هذا الشاب. وإذا أمكن لمصير عاملين مقدونيين أن يبدو غير مؤكد، فإن مصير حارس الشلبي قد ثبت مسبقاً.

وقبل الذهاب، أخطرنا أحد الخاطفين:

ـ ممنوع التحدث مع هذا الرجل القذر!

وأنكر الشلبي على التلفزيون العراقي أن يكون تعرض لأي هجوم، كما كذب معرفته بمن اعتُبر حارسه الخاص. وعاد الإسلاميون يبحثون عن الرجل الشاب. وأخذوه إلى الخارج حيث سجلوا شريطاً جرى بثه في ما بعد على قناة العربية، وموجهاً إلى الشلبي. وظهر أن لهجتهم كانت قاسية جداً: «انظر جيداً، أيها الشلبي، لقد حصلنا على نموذجك» إلخ. وهم أنفسهم ظهروا مسرورين بهذه التفاصيل التي قدموها لنا، الأمر الذي ما زال يدهشنا.

مع ذلك، فقد تضاعفت المؤشرات المريحة لمصيرنا، كما لو أن وصول الرجل الشاب قد وضعنا في معسكر «الرهائن الجيدة».

بعد ظهر ذاك اليوم نفسه قدم رجل آخر، وقدّم للجريح معالجات جديدة

ـ فرنسي، جيد، وجه كلامه لنا. حالتكما بسيطة! وعاد الانتظار. الأربعاء، الخميس، الجمعة... أسبوع الاعتقال

الثاني. وكل يوم نحاول معرفة متى يأتي يوم إطلاق سراحنا.
ـ اليوم أو غداً، يُردُّ علينا
فيبدو ذلك نوعاً من الطقوس التي نريد الاقتناع بها، لكن في الوقت نفسه، يهاجمنا الشك بالقدر ذاته.
ـ وإذا دام ذلك، قال جورج، خائفاً من حوار على الطريقة اللبنانية، قبل الملاحقة مع قدر من الهزل: آمل ألاّ نكون هنا يومَ عيد جميع القديسين!

مع مرور الساعات والأيام، كان وجه حارس الشلبي يصبح خالياً من أي تعبير. ولا شك في أنه يفكر بموته الخاص. ثم دخل السجانون ذات يوم وأخذوه. وهو يدرك ما كان ينتظره وبدأ يبكي قبل أن يتوسل إلى أحد الخاطفين لأخذ رقم هاتف عائلته وإخطارها، وكنا حينذاك أمام مشهد مؤثر: فرأينا رجلاً يجهش بالبكاء لأنه يعرف أنه سيموت. ولم نسمع شيئاً عن الإعدام. وذبحه مقاتلو الجيش الإسلامي بصمت.

الانتظار

في بداية بعد الظهر ليوم الجمعة في 3 أيلول/ سبتمبر، دخل سعد إلى زنزانتنا وقال لنا:

ـ الأخبار ممتازة. سننقلكما إلى بيت آخر أكثر ارتياحاً، وفيه حمام رشاش.

إذن، بدأ يتضح منطق إطلاق سراحنا الذي أملنا فيه منذ بضعة أيام. وضع الحراس الذين يرافقوننا كريستيان في صندوق من الكرتون يشبه من حيث الشكل المشؤوم نعشاً وُضع في مؤخرة السيارة، وبدوري وضعوني فيه. ثم أخفونا عن الأنظار الخارجية بكدسة من الأغطية فكنا محصورَيْن الواحد على الآخر، وعيوننا معصوبة وأيدينا مقيدة إلى الوراء، مما زاد في فقداننا أدنى قدر من الارتياح. وما كاد يتوفر لنا الوقت: «لنسأل لكن أين محمد؟»، حتى أقلعت السيارة، وكان واضحاً أن سائقنا لم يكن معنا. فقد أصبحنا منفصلين عنه، بينما لم يكن هناك شيء ينبئ عنه. فتملكني شيء من القلق. وكنت أعتقد أن خاطفينا سيخلون سبيله لأنه لا يمثل أية عملية للتبادل.

ـ وإذا كان هذا هو بالضبط السبب الذي من أجله سيقومون بقتله؟ همس لي كريستيان.

وخلال احتجازنا كله، لم نعد نراه أبداً. وبعد بضعة أسابيع استخبرنا عن مصيره لدى خاطفينا، فأجابونا أنه لا يزال على قيد الحياة في المزرعة. في هذه النقطة على الأقل، لم يكونوا كاذبين، وأغفلوا أن يقولوا لنا على الأقل أنه كان قد نقل إلى الفلوجة، في نهاية أيلول/ سبتمبر.

كان كل منا يمر بحالات تحول عديدة، في لحظات من القلق: رُهْبة الحبس والتشكك في المستقبل، وسرعة التأثّر أمام الأحداث المفاجئة... ولحظة إغلاق أبواب السيارة، كان يوجه لنا التحذير:

ـ لا تتحركا أبداً، لا تقولا شيئاً. لن نتردد في قتلكما.

انطلقت السيارة في طرقات برية مشوشة طيلة خمس وأربعين دقيقة على الأقل. ومن وقت لآخر يتوجه سعد إلينا:

ـ لقد قطعنا عدة حواجز. لكن لا مشكلة لأننا على متن سيارة للشرطة. قال لنا ذلك باعتزاز، دون أن ندرك إن كان يخادع أم لا.

وفي الواقع، كنا نشعر أنه في ارتياح تام. ويبدو أن هذا النقل لم يطرح أية مشكلة على خاطفينا. وكنا نشعر أن الشمس إلى

يسارنا ما يعني أننا ذاهبون نحو الشمال الغربي، نحو بغداد. وعلمنا في ما بعد أننا كنا نتوجه دون شك نحو ميدان حديقة سلمان، إلى الجنوب الغربي من المدينة.

توقفت السيارة. وقاموا بجرنا في بادئ الأمر إلى بيت ننتظر فيه على الأرجح تهيئة المكان الذي سنحتجز فيه، وكانت الحرارة خانقة. أخيراً وضعونا في غرفة تقرب مساحتها من ثمانية عشر متراً مربعاً، وحالتها جيدة مع مغسلة في زاويتها الشمالية، ومرحاض وحمام رشاش. أما الأثاث فيتلخص بفراشين من القش ومزودين بوسادتين. وقد غُطّي شبّاكا الغرفة المتواجهان بالكرتون، وأكد لنا سعد أنه لا يُسمح لنا في أية حال بمحاولة النظر عبرهما، وأضاف:

ـ لا ترغمانا على قتلكما.

بدأنا نعتاد هذه اللغة المزدوجة حيث تتناوب فيها بشكل دائم مناقشات المجاملة والتهديدات المباشرة.

كان لدينا شعور بأننا نُحتجز في منطقة من ضواحي المدينة، وفي بيت عائلي، قرب جامع كنا نسمع منه بانتظام نداءات الأذان للصلاة، وكانت هناك طريق سالكة لا بد أن تمر قرب البيت الذي احتُجزنا فيه. وكان كريستيان يحلّل وضعنا الجديد بنظرته التفاؤلية المعتادة.

ـ هذه محطة لتخفيف الضغط قبل الخروج.

ـ ربما، أو هم يُحضِّرون لنا شيئاً آخر، واحتجازاً طويلاً في مكان نكون فيه أقل تشوشاً وإرباكاً.

كان سعد قد أخذ على عاتقه إقامتنا. وقدَّم لنا المناشف والصابون وصابون الحمام والمعجون وفرشاة الأسنان، ثم دعانا لنأخذ حماماً قبل وجبة الطعام التي لن تتأخر: طبق كبير من الكباب مع البصل والبندورة والخبز الطازج وزجاجتي كوكا كولا، كل ذلك في قارب صغير للتناول السريع. باختصار، هناك حرص على صحتنا. وبدا كل شيء يدعو إلى التفاؤل. لكن بم يفكر سعد عندما طلب منا:

ـ الصحافي يكتب. ويكون جيداً كذلك أن تلتقيا قائدنا، أميرنا، من أجل محاورته.

في نهاية بعد الظهر فتح سعد الباب مجدداً، وكان مرتدياً جلابية بيضاء ومسلحاً بكلاشينكوف. وكان يتبعه، رجل بلون بهي، ثلاثيني العمر، حافي القدمين ومرتدياً قميصاً ذا مربعات، وبنطالاً من القطن الناعم. كانت حركاته موزونة. وكان يرافقه حارس حاص مرود بمسدس. كان الثلاثة يرتدون قناعاً أخضر زيتوني من المخمل. وقدَّم سعد لنا الأمير:

ـ سيدي يريد رؤيتكما.

وبراءة اعتقدنا أنهم جاؤوا يبحثون في قضية إطلاق سراحنا.
وفي الواقع وخلال ساعة من الزمن سيعطينا رجل الدين درساً في علم أصول الدين. كان سعد يترجم لنا بالإنكليزية بعض الكلمات. ولما كان كريستيان يتكلم العربية جيداً، كان الحوار يتركز بشكل رئيسي بينه وبين الأمير.

ـ ماذا تعرف عن الإسلام؟

ـ أنا أعيش في الأردن حيث يعتبر الإسلام الذي أحترمه دين الدولة. وهو يعني تقليداً من التسامح والسلام. ونحن المسيحيين ننتمي مثلكم إلى «أهل الكتاب».

فبدا أن هذه المقدمة تتلاءم معه. كما أنه استمر يشرح لنا الإسلام في عشر نقاط. ففي البداية «لا وجود لإله غير الله ومحمد هو نبيه». والنقطة التالية تخص الأنبياء بشكل دقيق، ومحمد هو الأخير فيهم. ثم وجه الأمير نقداً لكتب الإنجيل التي كتبت بعد وفاة المسيح، وبالتالي إنها، في رأيه، ليست موثوقاً بها وغير قابلة للتصديق، بينما القرآن يحتوي على كلام الله المبلَّغ بشكل مباشر من الخالق إلى محمدﷺ، وربط كلامه بعد ذلك بمسألة تبدو حاسمة: استنتاجاً أعطى المسلمون للمسيحيين نظام أهل الذمة: يستطيعون بذلك الحفاظ على دينهم دون التحول إلى دين آخر، شرط أداء ضريبة القبول بذلك.

فهل يصبح الأمر نوعاً من التدرج نحو فكرة الفدية المطلوب تسديدها من أجل إطلاق سراحنا؟ حتى الآن يجري الحوار على الصعيد المدني.

تطرح المسيحية مشكلات أخرى على الأمير: صلب المسيح مثلاً. وحسب نظرة محدثنا، يناقض هذا الفعل ألوهية المسيح. فكيف يمكن لله أن يسمح بموت ابنه الذاتي؟ كما بدت له أسئلة أخرى غير قابلة للفهم. الثالوث المقدس خاصة، ومفهوم الجنة عند المسيحيين، وخلاص النفس...

من وقت لآخر، كان الواعظ يتكلم الإنكليزية ليكون التوضيح أسهل للفهم، لأن العربية الحديثة التي أمارسها في بعض الأحيان ابتعدت عن العربية التقليدية، لغة التعبير في القرآن، فكان الأمير يستخدم تعبيراً قرآنياً، ويذكر سوراً ويعبر بطابع بطيء عن همّ تربوي حقيقي، مما يشكل شهادة على تبحر واسع في الإسلام. ويعتبر أن من واجبه التوجه لمن يهتم بأحاديثه. ومع ذلك قلما كنا نقاطعه. وفي مناسبات نادرة، كان الحديث يتجه نحو توجيه الملامات السياسية فأدان فرنسا لأنها استعمرت الجزائر، وتورطت في أفغانستان، وشاركت في حرب الخليج في عام 1991. وحول هذه النقطة الأخيرة أسمح لنفسي بالملاحظة التالية:

ـ لم تكن فرنسا وحدها في هذه الالتزامات. وقد شاركت معظم الدول العربية والمسلمة في هذه الحرب.

ـ لكن الحكومات العربية كلها في خدمة الأميركيين! وجه لنا كلامه. فضلاً عن ذلك، نحن لا نعترف بأية حكومة مسلمة. وحدها الأمة هي التي تهمنا، جماعة المؤمنين. وفي كل حال، فإن فرنسا مخطئة لأنها استمرت في تطبيق الحصار على العراق المفروض من الولايات المتحدة والأمم المتحدة.

حينذاك أخذ جورج الكلام مذكراً بدور بلدنا في هذا الشأن.

ـ لقد حاول الفرنسيون مرات عديدة الحصول من الأمم المتحدة على رفع الحصار المفروض، لكن، في كل مرة، كان الإنكليز والأميركيون، يعارضون ذلك. وأنتم تعرفون الأمر.

بدا موافقاً على ذلك، وتواصل الحديث، دون التعرض لمسألة الحجاب أبداً. وقد فوجئنا، لكننا لم نظهر أي شيء من ذلك. فجأة أضاف وهو يشير إليّ بإصبعه:

ـ لماذا أنت مسيحي؟

ـ لأن أبي وجدي وأجيال قبلهما، ولدوا مسيحيين.

ـ لكنهم وقعوا في الخطأ، فهل تستمر أنت أيضاً في الخطأ؟

وبقلق، تساءلنا ماذا يُعدّ لنا، لكن جورج عاد إلى الأمر الأساسي:

ـ أين أصبحت قضية إطلاق سراحنا؟ سأله.

ـ يبدو أن الفرنسيين مهتمون بتطبيق القانون حول الحجاب أكثر من اهتمامهم بإطلاق سراحكما! أجابنا بجفاء. ثم استنتج:

ـ إذا تحولتما دينياً، يصبح إطلاق سراحكما سهلاً. وخرج الرجال الثلاثة دون إضافة أية كلمة أخرى.

هذا الحوار الطويل من أجل الوصول إلى استنتاج مذهل! وهل الرهان حاسم كما يبدو؟ التحول في الدين مقابل إطلاق السراح؟ وماذا يعني الرفض؟ ورأى جورج على الفور كم سنصبح أداة للدعاية. وبتصور ما هو أسوأ، بعد أن نصبح مسلمَيْن نخاطر بأن نصبح مجندَيْن بالقوة في عداد مجموعات إسلامية، ونزنر بالمتفجرات من أجل أن نموت شهيدين! وأضاف:

ـ ألا يمكن أن يكون ذلك ضربة خداع من أجل وضعنا تحت الضغط؟

فأعددنا على الفور الجواب الذي يجب تقديمه للأمير في حال أعاد طرح السؤال: ليس لدينا شيء ضد الإسلام، وكان على جورج أن يكلم خطيبته أولاً بهذا الأمر. أما أنا فسأعرض الذهاب للتباحث مع إمام في باريس وقراءة القرآن بالفرنسية، لأن التحول إلى دين آخر، نقول لهم، إنما يجب أن يكون صريحاً وعلى علم عميق بعناصر الدين.

أما أنا كمؤمن كاثوليكي عن اقتناع، فقد هزني هذا الضغط غير المقبول. وفكرتُ بأهلي وعائلتي، وبانتهاك حرمة قناعاتي الأكثر حميمية. أما جورج الأقل اهتماماً بإيمانه، فإنه يتحمل الصدمة بشكل أفضل.

ولا زلت مقتنعاً بأنهم لن يتخلوا عن صفقة المعبون، لأن تحويل مسيحيين عن دينهما، بالنسبة لهم، يفتح لهما باب الجنة. وفي صمت هذه الغرفة التي نُحتجز فيها وظلامها، لا أجد تعزية أخلاقية أخرى إلا الصلاة التي تهدئ كلماتها المستمدة من أعماقي، اضطرابي وحيرتي.

ومنذ عدة أيام، صار جورج يشعر بأن مسألة الحجاب تفرض نفسها فتحوّل رهان خطفنا إليها:

ـ حقاً لا فرصة لنا في ذلك، قال، فهم يرفعون قضية القانون حول الحجاب الذي أُقر منذ بضعة أشهر فقط. ونحن وقعنا رهينتين في فترة الدخول إلى المدارس، في يوم تطبيق القانون بالذات!

منذ شريط الاثنين السابق، كان جورج مقتنعاً بأننا على صلة مع أشخاص مراوغين، ومستعدين لاستخدام الخيوط الأكثر خيانة. وعادت إلى ذاكرته أحاديث هوبرت فيديرين، المأخوذة من كتاب حول الإرهاب في الشرق الأوسط. وبالعودة من

المنطقة التي أوفده إليها فرانسوا ميتران في عام 1985، من أجل محاولة حل أزمة رهائننا في لبنان، كان المستشار قد كتب له في مذكرة سرية: العراقيون قوميون، المراس معهم صعب، ولا يفكرون إلاّ بمصالحهم.

هذا هو رأي سائقنا محمد تقريباً. فقبل انفصالنا، كان يقول لنا أنه من أجل إطلاق سراحنا وحده التفاوض المالي، بإجرائه بسرعة، هو الذي يؤدي إلى الحل: سيطلب الخاطفون مليون دولار. ويرد الفرنسيون بالموافقة على مئتي ألف. وينتهي ذلك بأربع أو خمسمئة ألف، في ثلاثة أيام، تكون القضية قد حلت.

ظاهرياً. ليس هذا هو ما يجري.

ستكشف مفاجأة الأيام التالية، فكثيراً ما كانت مواقف حراسنا متناقضة وقد صودرت أغراضنا عند وصولنا إلى هذا المكان الجديد للاحتجاز، حيث قالوا لنا سنضعها في صندوق في أمان. وفي الوقت نفسه سُمح لنا بالقيام بالتمارين الرياضية كل يوم، دون أن يوجه لنا سجانونا حتى الاعتراض بالقول فكانوا يفتحون باب الزنزانة من أجل الفطور، ويضعون الطبق وينصرفون، ولا نعود نراهم إلاّ مساءً عندما يجلبون لنا طبق العشاء. فقد أكلنا كثيراً من الكباب، الغذاء الذي لا يحصل عليه

معظم العراقيين، مما يقدم دليلاً دائماً لهذا الحرص على حسن معاملتهم لنا.

شيئاً فشيئاً، يتلاشى خطر التحويل الديني، وبعد أسبوع، لم يعد يكلمنا عنه أحد. وترسخت الرتابة اليومية، ولم يحصل شيء خلال ما يقرب من أسبوعين. وخلال هذه المراحل من الصمت، غالباً ما تردد القول البسيط القديم: «لا أخبار، أفضل الأخبار»، مما يطمئنا قدر المستطاع.

ودائماً في هذه البداية من شهر أيلول/ سبتمبر، في السابع والثامن، سمعنا ذات مساء بشكل مبهم، من الغرفة المجاورة لنا، أصداء أحد برامج قناة الجزيرة. كان موضوعه: فرنسا وحرية بث المنار، القناة التلفزيونية لحزب الله في فرنسا. وبعد القانون المتعلق بالحجاب الإسلامي، هل سيشكل منع المنار مصيبة جديدة لنا؟ واقترب كريستيان ببطءٍ شديد من الباب لأجل التقاط نُبَذ إعلامية ينقلها لي:

ـ إنهم يتحدثون عن صحافيين فرنسيَّيْن.

لكن الحراس لاحظوا تحايله. ففتحوا الباب بشكل مفاجئ وأطلقوا صيحات تهديدية:

ـ لا تقترب أبداً من هذا الباب.

مرت الأيام. ولكسر هذه الرتابة، كما من أجل الحفاظ على

التكوين الجسماني والذهني، صرنا نقوم بالتمارين الرياضية لمدة ساعة كل صباح ثم يليها الحمام ووجبة الفطور والحوار حول وضعنا. وظل الغذاء مميزاً، بالأحرى وافراً، وظل كريستيان ينام كثيراً، وأنا أقل منه بكثير. وكنت أغبطه قليلاً وأغيظه:

ـ عندك من الحظ، يا كريستيان، أنت رهينة لثلث الوقت لأنك تنام وتكبو حوالي خمس عشرة ساعة يومياً.

أما فكرة اعتبار مكان احتجازنا جسراً لإطلاق سراحنا فهي ليست مقنعة لنا. فما الذي يجري؟ ولشدة انتظارنا أنباء لم يعطنا إياها أحد، كان التوتر يتصاعد. وتظهر العلامة التي لا تخدع: أعيدُ قرض أظفاري، وكنا نردد دون تعب أنه يجب أن نصمد، ونتجاور التجربة، وأن نبقى صريحيْن ومتفائليْن، لكن هذا الترتيل الطقسي للاقتناع الذاتي يدفع لقول الكثير حول حقيقة حالتنا المعنوية في هذا الوقت، كنا نجهل كل شيء عن المفاوضات الجارية ويفوتنا الوضع العام. وندرك أن شيئاً آخر قد حل محل منطق إطلاق سراحنا، لكن ما هو؟ وهل سينتصر ما أخشاه من الوجه السياسي؟ ثم ماذا يجري في فرنسا؟ فهذه التعبئة التي أشار إليها سعد، هل توجد حقاً؟ ولا شك في أن وسائل الإعلام تعمل في هذا الاتجاه. ألا تخاطر هذه المبالغة في توسل احتجازنا لتصعيد المزايدات؟ والكثير من الأسئلة التي

تجول وتخطر باستمرار في رؤوسنا دون التمكن من جلب الحد الأدنى من جنين الجواب.

ويثقل علينا صمت حراسنا. وفي كل مرة يتهيأون للدخول إلى زنزانتنا، كنا نسمع صفقاً جافاً: فيجهزون بنادقهم ثم يدور الإقفال المزدوج ويدخل الرجال المقنعون ويفتشون الشبابيك. وذات ليلة، في حوالى الساعة الواحدة صباحاً، انغمسوا في الظلام التام تفتيشاً عن النوافذ، وكنا نغمض العينين، لكن جميع حواسنا كانت تبقى في حالة الرصد.

ومر أسبوع آخر أيضاً، دون جديد. ماذا يجري؟ ماذا حصل خلال زيارة نائب الوزير الفرنسي الذي أعلن لنا أنه جاء إلى بغداد؟ وحين لا يُقال لنا شيء، فهل يعني ذلك أن المفاوضات متوقفة، أم أنها تتعثر حول مساومة معينة، أم أنها فشلت؟

وفي مساء الأحد، في 12 أيلول/ سبتمبر، تجرأنا على كسر جدار الصمت:

ـ لقد مضى حتى الآن ثلاثة أسابيع ونصف، وقريباً يمضي الشهر...

ـ لا تقلقا، ستكون هناك أخبار جديدة.

ونسجل أن الحارس لم ينه قوله بالعبارة المعتادة، إن شاء الله. فألحقتُ بها شيئاً هزلياً:

ـ لأنني لا أحب أن أمضي هنا كذلك ثلاثة أسابيع ونصف أخرى.

ـ لكن لا! لا تقلقا. ستصلان قريباً إلى أربعة أسابيع، صحيح. لكن هذا ليس مرعباً، اعتبرا تلك المدة كأنها إجازة. لقد لقيتما معاملة جيدة، فليس لكما إلاّ أن تقولا أنكما تمضيان عطلتكما المدفوعة الأجر في العراق.

البارحة، في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، أمضيتُ زمناً لم أفهمه. كنت مضطراً أن أحضر مع سيلفيا حفل زفاف لصديق في كليرمونت فيراند. وعندما كلمتُ كريستيان عن ذلك، حاول رفع حالتي المعنوية:

ـ أطلبْ منهم السماح لك بحضور حفل الزفاف. وتشرح لهم أن لديك موعداً عليك الالتزام به بأي ثمن. فإنني متأكد أنهم سيتفهمون دلك.

كان كريستيان في الحقيقة غير مدرك أو قوياً جداً.

كنتُ أجهل ما إذا كنت ساهمت في انشراح صدر جورج، لكن المزاح والاستهزاء، يساعداننا على عدم الاكتئاب.

بعد مضي بضعة أيام، في 18 أيلول/ سبتمبر، دخل زنزانتنا رحل يرتدي جلابية بيضاء ويحمل مسدساً في جيبه، ولم يكن يرافقه أحد، وأغلق الباب وراءه وجلس أمامنا. وأمسك بيده

دفتراً ذا غلاف جامد. وقال لنا أن قضيتنا قد تمّ الدخول فيها بشكل جيد:

- بفضل بعض المؤشرات الإيجابية، وخاصة بشأن الحجاب الإسلامي، فقد اعتُبر موقف فرنسا جيداً.

كان مكلّفاً من إدارته ولديه أشياء لينقلها لنا، وكان يتكلم بالعربية وبهدوء، إنه موظف:

- أنا مدير السجن وستكونان هنا في منزل أكثر رفاهية مما في المزرعة. لكننا لا نستطيع البقاء فيه أكثر من شهر. وفي كل حال، من الآن إلى أسبوع كحد أقصى، سيطلق سراحكما. إنكما تعيشان تجربة تستطيعان روايتها لأولادكما في ما بعد...

وعندما أنتهي من أسئلتي، تستطيعان أن تطرحا عليَّ كل ما تريدانه. لا تخافا. لقد قدّمنا لكما معاملة جيدة، ولا وجود لأي مبرر لتتغير هذه المعاملة. أنتما رهينتان مميزتان.

وأضاف، كما أمكننا ملاحظته، أن مصيرنا لا شيء فيه يماثل مصير السجناء العراقيين الذين لقوا التعذيب في أبو غريب، كما ذكر إيطالياً، كان قد خُطف في الوقت الذي خُطفنا فيه، وتعرض لاستجواب أقسى بكثير من استجوابنا.

- إنه صحافي مزعوم، جاسوس في الواقع، أكد محدثنا. وقد أدى استجوابنا له إلى كشفه. وقد أُعدم، وفي هذه اللحظة،

شعر الفرنسيون بخوف شديد لأجلكما. واعتقدوا أنكما أصبحتما ميتَيْن!

وتعرضنا لموجة من العرق البارد.

إنها المرة الأولى التي نسمع فيها كلاماً عن هذا الصحافي الإيطالي الذي علمنا اسمه في ما بعد: إينزو بالدوني. ويظهر أن خاطفينا كانوا قد احتجزوه في المزرعة، مثلنا، لكن في بناء آخر.

وتابع رئيس السجن بلهجة لطيفة:

ـ هل تعلمان أنكما أصبحتما أكثر شهرة من شيراك في فرنسا؟

ـ لا أبالي بأن أكون مشهوراً. ما يهمني أن أكون حراً طليقاً.

ـ ستكونان حرَّين قريباً، لقد قلت لكما ذلك. من الآن إلى أسبوع في الحد الأقصى.

ـ هل أقمت اتصالات مع الفرنسيين؟

ـ نعم، والسفير يتكلم العربية.

ـ نحن على علم بذلك، إنه رجل مرموق.

والآن الدور لجورج لطرح أسئلة أخرى:

ـ لماذا يستمر هذا الوضع منذ شهر، بينما كنا قد تلقينا وعداً أن يطلق سراحنا قريباً؟

ـ لقد حدثت تداخلات. وتدخل في الأمر أشخاص لم نكن نتوقع تدخلهم، بينما كان مسؤولون إسلاميون يعرضون مليون

دولار، وحتى مليونين. . . لكننا لا نريد مالاً نريد اتصالات مباشرة مع السلطات الفرنسية، في البداية، أعطى الفرنسيون تحديداً لمكان وجودكما للأميركيين الذين قاموا بقصف المزرعة حيث كنتما محتجرين.

ـ كيف عشتما فترة احتجازكما؟ وكيف سترويانها بعد عودتكما إلى فرنسا؟

ـ سنروي الحقيقة. فإذا أطلقتم سراحنا غداً، أو بعد شهر، سيعرف العالم أن احتجازنا كان في ظروف سليمة. مقابل ذلك إذا احتفظتم بنا شهراً آخر أو شهرين، يؤدي هذا إلى إلحاق الضرر بقضيتكم لأن الفرنسيين شديدو الحساسية إلى مسائل الرهائن. فهي تلحق دائماً صدمة نفسية لدى الرأي العام، ويجب أن تدركوا أنه إذا مارستم خطف رعايا بلد يؤيد مواقفكم في النهاية، فإنكم تسيرون على عكس مصالحكم.

ولم يرد الرجل على هذا الكلام، بل فتح دفتره، وسجل فيه، كما قال لنا، أسئلة وإجابات بالعربية:

ـ كيف جرى التعامل معكما؟

ـ نأكل جيداً ولم نتعرض للضرب.

ثم ربط كل نقطة من مجموعة أسئلته التي بعضها إداري جداً، وبعضها الآخر أكثر إحراجاً، وقد أجبنا عن معظمها: لماذا جئتما إلى

العراق؟ وما هو رأيكما في الحجاب؟ وكيف تنظران إلى المقاومة العراقية؟ إلخ. ومن الدور الطبيعي يخرج سؤال على الأقل:

ـ بعد إطلاق سراحكما، هل لديكما النية للعودة إلى العراق؟

ـ بشكل أولي، ليس في موعد قصير. ومع ذلك فقد تجاوزنا الأمر. أما في المستقبل، فلم لا؟ فلا جورج ولا أنا، لدينا شيء ضد الشعب العراقي. كما أحب كثيراً أن آكل مجدداً من المسغوف[1]، لكن في ظروف أخرى.

ورسم ابتسامة على شفتيه.

ـ إذا أردتما، في المرة القادمة أن تعودا إلى بلدنا، فهل تتوقعان أن يُهتم بكما؟

كيف يتم التمييز بين المزاح والصراحة، والفرز بين التحدي والرعونة؟ هذه سريالية! إنني أطرح «دعوته» من جديد.

ـ لماذا هذا السؤال حول عودتنا المحتملة إلى العراق؟

ـ كنت أريد أن أعرف ما إذا كنتما صحافيين حقيقيين. فالحقيقيون الأحرار يعودون ولا يخافون. وقد أصبح العراق أرض الحرب، وليس أمامكما إلا تحمّل مسؤولياتكما.

ـ لكن أي موقف تتخذون في وجه الصحافيين؟

(1) سمك الشاه الخاوة في دجلة، وتشوى بهدوء أمام الجمر

-بالنسبة لنا، كل أجنبي مشتبه فيه، ويمثل الصحافي بشكل عام الموقف السياسي لبلده.

استمر الحوار إلى نهايته ورُبط بتسجيل فيديو نعتبره الشريط المقدمة لإطلاق سراحنا والمطلوب من الفرنسيين. وكنا نستند إلى أحد الجدران ومحاورنا في مواجهتنا، على بعد مترين أو ثلاثة أمتار. وبيده آلة تصوير ويحدد لنا ما يجب أن نقوله. ويضيء النور الأحمر:

-أنا اسمي كريستيان شينو، ابن جان شينو ودينيز باتويه، المولودين في عامي 1930 و1934. وأعمل لدى راديو فرنسا الدولي. أنا في صحة جيدة، والتاريخ الآن، الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر 2004.

سجل جورج بدوره، وانتهى التسجيل، وخرج الرجل وشعرنا بارتياح حقيقي. وصرنا مقتنعيْن بقرب إطلاق سراحنا، على الأبعد في الأسبوع القادم. وقد بدا لنا مدير السجن رجلاً جديراً بالثقة.

مع أخبار من هذا النمط، نشعر بأننا على استعداد للانتظار ونحس بذلك جسدياً: فيستنير عقلنا ويهبط توترنا. وبعد بضع دقائق عبّرنا عن اقتناعنا إلى الحارس الذي جلب لنا وجبة غذائنا.

ـ خبر جديد . أولاً لا بد أن يُطلق سراحُنا في أسبوع .

ـ حتى قبل أسبوع . أصبح الأمر مسألة أيام!

وفي الواقع، مساء الثلاثاء في 21 أيلول/ سبتمبر، فُتح البابُ أمام ثلاثة سجانين :

ـ انتهى الأمر بالنسبة لكما . سننقلكما إلى بيت قريب في بغداد من أجل إطلاق سراحكما غداً . كان الأميركيون الذين لم يريدوا أن تصبحوا أحراراً، يضعون عقبات في طريق ذلك . هم حقاً أناس حقيرون . لكن الآن حُلَّ الأمر، وعداً ينتهي كل شيء .

كانوا يرتدون الجينز على الطريقة الغربية، دون شك من أجل أن لا يلفتوا النظر إليهم في وسط المدينة . فعصبوا لنا العينين وقيدوا اليدين بواسطة قطعة حبل . والتحزيم متعب في تحمله لدى جورج الذي توصل لفك يديه أثناء انتقالنا دون أن يتعرض لأية صاعقة من خاطفينا . وكان المشهد شبيهاً بما جرى قبل ثلاثة أسابيع : سيارة جيب كبيرة، والتابوت الكرتوني في المؤخرة، والأغطية فوقه . وانطلقنا ليلاً لمدة نصف ساعة صعوداً نحو غرب بغداد .

البيت الذي وصلنا إليه واعتقدنا أنه مكان إطلاق سراحنا، كائن في منطقة سكنية . وتم اقتيادنا إلى الطابق الثاني . كانت الغرفة كبيرة تبلغ مساحتها حوالي 20 متراً مربعاً، وملاصقة لها

غرفة للماء، أصغر قليلاً من السابقة وفيها مغسلة ومرحاض وحمام رشاش، وكوة صغيرة في الأعلى يتسلل عبرها نور النهار والضجيج الخارجي. وأصبحنا على بعد حوالي خمسين متراً عن طريق عريض وسريع للسيارات، تمر عليه المواكب العسكرية والدبابات الأميركية. وكنا نسمع الراشدين والأطفال وأنواع ضجيج الحياة المعتادة للتجمع السكاني الكبير. وفي الغرفة، نافذتان، بالطبع مخفيتان أمام أنظارنا إحداهما بواسطة خزانة، والأخرى بستار أخضر كبير وراءه مصباح غاز النيون يبعث نوراً بلون البحر بين الأخضر والأزرق.

هذه المرة، استعدنا نوعاً من الثقة، وتطلع جورج إلى القيام ببعض المقابلات قبل أن يغادر البلد. أما أنا، فكنت قد توقعت قبل احتجازنا أن أعود إلى باريس بين نهاية أيلول/ سبتمبر وبداية تشرين الأول/ أكتوبر، وقريباً سيتم ذلك. ولم ينم جورج طوال الليل تقريباً، وتراكمت الأمور في أفكاره المركزة حول إطلاق سراحنا وفرحه للقاء القريب مع سيلفيا التي يصادف يوم ميلادها الأحد القادم، في 26 أيلول/ سبتمبر.

ـ الجمعة، سافرت بالطائرة إلى عمّان، ونهار السبت أكون في باريس، ونحتفل معاً في ذكرى ميلادها.

لست مرتبطاً بأية مشروعات.

ـ غداً مساء، العشاء على طاولة السفير.

في ما يتعلق بعشاء الجمهورية، بعد غد، يقدم لنا الكثير من الأكل لكن لا يحدثنا أحد عن سفرنا، كنا ننتظر بفارغ الصبر جالسين على فراشنا المصنوع من القش أو للعودة إلى القفص مثل الأسود، صحيح أنه مع هذه الدبابات الأميركية التي تمر على بعد خمسين متراً، لا يكون جهاز إطلاق سراحنا شأناً تنظيمياً بسيطاً. وعلى مر الساعات، بدأنا نشعر بالملل. ثم بالحط من معنوياتنا.

في 23 أيلول/ سبتمبر، لم يحصل أي حدث. وكان مسؤول سجننا الذي رافقنا أثناء انتقالنا يأتي ليطلع على وضعنا.

ـ اليوم سيتم انتقال.

ـ هل لأمر خطير؟ قلت له.

ـ كلا، لا مشكلة، ننتظر الأمر فقط.

ـ لكن متى يُطلقُ سراحنا؟ هذه قضية لوجستية إدارية.

ـ كلا، أكرر القول، إنه انتقال دون مشكلة. ويمكن أن يُطلق سراحكما خلال ساعتين، أو يومين، عندما نتلقى الأمر بذلك.

لم نعرف كيفية فهم هذه الوعود الغامضة. لكن يوم الخميس صباحاً وقع حادث مفاجئ ساهم في تهدئة لواعجنا. فقد دخل حارسان إلى غرفتنا، ومعهما مالج وكيس من الإسمنت. ودون

قول أية كلمة، أخذا يسدان النافذة الصغيرة في غرفة الحمام، وهي مشبكة ومغطاة بزجاج مغشى. ومضت بقية النهار، ثم الجمعة والسبت . . . وقدم لنا فرشاتان جديدتان للأسنان والصابون وصابون الحمام. أما الحارس الذي كلمنا عن الانتقال، وإطلاق سراحنا القريب إلخ، فلم نره أبداً في الأيام اللاحقة، كما لو أنه من أجل موازنة المؤشرات المقلقة، كانت الفواكه تقدم لنا حين نطلبها، حتى وإن أعطيت ملاحظة لجورج بأننا لسنا في فندق.

ومرة أخرى أيضاً، أية قراءة مطلوبة للأحداث الشديدة التناقض؟ وكيف يُفهم ما يجري؟

جاء الأحد في 26 أيلول/ سبتمبر. كنت عميق الحزن. هذا اليوم هو يوم ذكرى ميلاد سيلفيا، وأنا لست إلى جانبها. ومنذ عدة أيام، وأنا أتصل بها عبر أفكاري، وأرسل لها الرسائل، وأقدم لها الحساب الختامي اليومي، وأكلمها عنا، وعنها وعني . . . وأكرر لها القول بأنه لا مبرر للقلق، بل على العكس يجب التزود بالصبر، لأن كل شيء سيُدبَّر أمره وسنعود إلى وضعنا السابق.

في هذا اليوم نفسه، ظهر سعد مجدداً بعد غياب لأكثر من ثلاثة أسابيع. وأعلن لنا أننا سننقل من جديد.

ـ كان يجب أن يُطلق سراحنا يوم الأربعاء، قلت له، فما الذي جرى؟

ـ تلك مسؤولية الفرنسيين، وأضاف مبدياً ارتياحه، وهو يرشدني على الدرج، وعيناي معصوبتان ويداي مقيدتان: لنا اتصالات مباشرة مع الفرنسيين، اتصالات سرية جداً!

ـ هل صار إطلاق سراحنا قريباً؟

ـ نعم، أظن ذلك.

وحدنا نفسينا مجدداً مختَبِئين في قعر سيارة. وسيطول السفر هذه المرة مدة ساعتين. ثم ينزلوننا في غرفة، ولا ندري أين، مع منعنا من التحرك أو نزع العصبة عن العينين. ولا نفهم شيئاً. وفي لحظة، تنزلق العصبة عن عينيَّ، مما أتاح لي رؤية المشهد. وانتبه سعد لذلك، فصاح بي.

ـ لقد رأيتني!

ـ كلا، كلا، لم أرك.

ـ تقسم بالله؟

ـ نعم.

ـ حتى الآن نحن أصدقاء، لكن انتبه!

في الواقع، كنت قد ميزت وجهه على شكل ثمرة الإجاص، وجلده باهت، وشفتاه مكتنزتان، وله لحية مشذبة بلطف ورأسه

حليق. وبعد حوالي نصف ساعة، أخرجنا من هذا البيت وأجلسونا هذه المرة على المقعد الخلفي. واستعدنا بعض الأمل. هذه هي المرة الأولى التي نجد فيها نفسينا في مقاعد الركاب. فهل سيأخذوننا إلى أحد المساجد، ويفتحون الباب ويتركوننا؟ لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

اعتباراً من 27 أيلول/ سبتمبر، وخلال تسعة عشر يوماً، صرنا محتجزيْن في بيت اعتقدنا أنه يمكننا تحديد موقعه على بعد 150 كلم إلى الشمال الغربي من بغداد، بين سامراء والرمادي. وكان خاطفونا يزعمون أننا في الموصل، على بعد 400 كلم عن بغداد، ما هو مستحيل، إذا أخذنا في الاعتبار مدة الانتقال. لماذا هذا الانتقال؟ كان يُقال لنا أننا نقترب من بغداد من أجل إطلاق سراحنا، وفي الواقع كنا نبتعد عنها.

جديد آخر تجاوزناه بطيبة خاطر: وجدنا نفسينا في زنزانة دون مرحاض، ولا حمام ولا نافذة. والغرفة صغيرة جداً، نكاد لا يمكننا أن نتحرك فيها، ولا القيام بالتمارين الرياضية في أية حال. وفي المساء غالباً ما كنا نشعر بدوار في الرأس بسبب متاخمة الأمكنة. وفيها مروحة كانت تدور بأقصى سرعة، إذا صفقت الهواء الساخن، تسبب لنا في الوقت نفسه آلاماً في الأذنين المتعبتين، ومنذ الليلة الأولى، وعندما كان يُفتح الباب،

ويسألنا أحد الخاطفين ما إذا كانت الحال جيدة، كنت أجيبه :

ـ كلا، ليست الحال جيدة. أريد زيارة طبيب، عندي ألم في أذني.

ـ أنا طبيب، أجابني الرجل بثبات.

طبيب أم لا، بعد ساعة من الزمن، جلب لي بعض النقاط.

كان البيت واقعاً في ما يشبه قرية، وسمعنا بعض السيارات تمر. وسرعان ما علمنا أن الأمر يتعلق بالمقر العام لخلية من الجيش الإسلامي، بسبب العديد من الحركات التي سجلناها. وكان رجال يأتون صباحاً ويعقدون اجتماعات، وينصرفون ليعودوا مساء، وفي النهار كنا نرى النور يرشح في أسفل الباب.

وكان خمسة مجاهدين يعيشون فيه بشكل جماعي، ويتكفل أحدهم بالمطبخ، وآخر بالتدبير المنزلي، في حين يرتاح الثلاثة الآخرون من نشاطاتهم العسكرية بالقيام بالحراسة. ويعتبرون أنفسهم مناصلين حقيقيين. وباح لنا أحدهم بما يلي :

ـ إننا نفضل القيام بعمليات ضد الأميركيين بدلاً من القيام بمراقبتكما.

وأثناء الاجتماعات، كان يوجه لنا الأمر بعدم إحداث أية ضجة. وعندما نجتاز ما يشبه مدخلاً للذهاب إلى المرحاض، كنا

نرى في بعض الأحيان، أكياساً مليئة بأشرطة كهربائية ومركبات لا شك في أنها مخصصة لصنع القنابل.

لقد كنا نلقى معاملة جيدة حسب النظرة الغذائية الدقيقة. وحتى أفضل. فقد قال لنا أحد خاطفينا ذات يوم:

ـ أنا داهب إلى السوق. هل أنتما بحاجة لشيء؟

كان أحدهم قد تأثر «بصداقتنا»، ويدعى بيندوم، ويبلغ وزنه حوالي مئة كلغ، وهو أفضل طباخ للمجموعة. وعندما تسمح له الفرصة كان يروي لنا قصة حياته:

ـ أنا عضو في المقاومة، في الجيش الإسلامي. لكن في ظل صدام، كنت واحداً من الحرس الخاص لأمين سر الرئيس عبد حمود.

كان حمود واحداً من أمناء سر صدام الذين كانوا يشاطرون الديكتاتور في بعض أسراره. وكان يعرف الملف العراقي جيداً، ونعتقد أن كثيرين مثله من أنصار النظام السابق قد انقلبوا إلى المقاومة. ويؤكد هذا الرجل الأسلمة التدريجية لحرب العصابات المضادة للأميركيين. وقد لقبه رفاقه «باللحام»، فهو الذي كان يعذب وينفذ الإعدام. فلم يُبد معنا أية عدائية. وعندما كنا نسأله عن الأخبار، كان يظهر مطمئناً:

ـ لا تقلقا، سنهتم بكما إنني متفائل جداً بشأنكما لأنني أعلم أنكما ستخرجان من هنا!

فكان يُجمِّل الوضع وكنا نريد تصديقه .
ـ لماذا تعاملنا بهذا المستوى الجيد؟
ـ لقد تلقينا تعليمات من قيادتنا في بغداد .
وذات يوم أسرَّ إلى كريستيان بقوله :
ـ لا تنس أبداً ، يا كريستيان ، أننا أصدقاء لك .
نحن لدينا الشعور بأننا نعيش وضعاً سريالياً!
مع ذلك ، ورغم وهن الاحتجاز ، والإعياء الناشئ عن إطلاق سراحنا المعلن دائماً وغير المنفذ دائماً ، ورغم الظروف المادية الصعبة ، سنعيش في هذه الأمكنة تجربة مثيرة للاهتمام . حسب وجهة صحافية . وهنا في الواقع ، نقيم أكثر الاتصالات مع خاطفينا ، وهنا نتحدث إليهم ونراهم عن كثب .

خلال عدة ليالي ، كانت عمليات قصف عنيفة تدوي وتهز الجدران وتتردد أصداؤها في الجوار . وكثيراً ما كنا نرى الزجاج المكسر من نافذة المرحاض .

وذات مساء ، دخل أحد حراسنا ليعتذر :
ـ أنا آسف ، لم نهتم بكما هذا اليوم . لكننا تعرضنا لقذائف صاروخية جديدة ، وصار لدينا الكثير من العمل .
وحول هذه النقطة ، أخذنا إلى باحة الدار وركز ثلاثة كراسي ، وأخذنا جلوسنا عليها . وأخطرنا المجاهد الشاب على الفور :

ـ أقدم لكما معلومات لم يعرفها أحد، لكنني لن أقول لكما أسرارنا.

واحتدم حينذاك نقاش مدهش سيساعدنا في تحديد مدى التعصب الديني وتصميم المقاتلين الذين كان بعضهم قد أعدوا في المدرسة الأكثر تشدداً مدرسة الأفغان السابقين، كما يُطلق عليهم هنا.

كنت قد تدربت في معسكرات الشيخ أسامة في أفغانستان وحاربت في البوسنة.

هكذا أطلق على بن لادن اللقب المخصص للمرشد الروحي.

ـ أنا أعرف استخدام الأسلحة وتقنية السيارات المفخخة، وأستطيع التحكم بكل شيء: القذائف الصاروخية، الألغام والقنابل اليدوية.

سألناه حول معنى معركته. الهدف واضح: مد الإسلام من الأندلس حتى حدود الصين، وإعادة الأوضاع الأسطورية السابقة. وكذلك إسقاط الأنظمة العربية التي تتحالف مع الغرب. وفي الدرجة الأولى، العربية السعودية ومصر. وفوق ذلك ..

ـ لقد ضرب الشيخ أسامة لتوه طابا في مصر. وسقط 35 قتيلاً و200 جريح.

ـ ومستقبل فلسطين؟

ـ لا تقلق، لقد أعددنا رجالنا هناك كذلك.

ـ كيف تتصورون استراتيجيتكم؟

ـ نريد أن يغير الخوف معسكره. لقد اعتُدي على الأمة من المسيحيين الغربيين، في الشيشان وأفغانستان وفلسطين والعراق وسنرد عليهم بالمثل، ونحتفظ بحق الضرب أين ومتى نرغب. هدفنا تقسيم الغرب، وزرع مكان عازل بين أوروبا والولايات المتحدة. وسنضرب المصالح الحيوية، الاقتصادية والسياسية للغرب.

ثم ربط القول بالعمل:

ـ إذا أطلقت عليك رصاصة في يدك، لن تموت، لكنني إذا أطلقت رصاصة في الرأس، تموت على الفور.

وبعد ذلك أضاف:

ـ كيف تشعران من الناحية النفسية؟

ـ لا بأس، قلت له، لكننا لا نفهم لماذا تعاملوننا جيداً ولا تطلقون سراحنا.

ـ أنتما تمثلان ورقة سياسية. وهي مسألة وقت. إننا نجري التفاوض مع الفرنسيين. ونريد الحصول على شيء حول الحجاب. لا تقلقا، طالما استمرت المفاوضات يكون الأمر جيداً لكما. أنتما أصبحتما معروفيْن الآن!

ـ هذا جيد جداً أننا أصبحنا معروفيْن، لكن إذا عدتُ إلى فرنسا في تابوت، لا يجديني ذلك فتيلاً.

ـ لا تقلق. إذا كنت مضطراً لقتلك أقوم بنزع قناعي.

ـ هل تعتبرون الفرنسيين في صفوفكم؟ سأله كريستيان.

ـ نعم، لقد رأيت منهم خمسة، كانوا فرنسيين من أصل مغربي كانوا قد أصبحوا من الأفغان وكانوا ينتظرون في خلايا نائمة عندكم. لكن ثلاثة منهم قتلوا في معركة.

ـ لماذا لم تتبادلوا الرهائن الإنكليزية أو الأميركية التي تحتجزونها مقابل إطلاق سراح ألف سجين في أبو غريب؟

ـ سجناء أبو غريب يمكنهم الانتظار، وهم معتادون ذلك. ونحن نفضل قطع رأس هؤلاء الكلاب الأميركيين والإنكليز! فنصور شريط فيديو ونرسله إلى الغرب من أجل الحصول على تأثير الحد الأقصى في لندن ونيويورك. ومن جهة أخرى فقد أخلينا سبيل القنصل الإيراني مقابل سجناء القاعدة المعتقلين في إيران. وفي ما يخص الرهينتين الإيطاليتين، فقد تم تبادلهما بسجناء عراقيين، فضلاً عن ذلك فقد قام الشيخ حارث الداري بدوره في الوساطة.

ـ الانتخابات الأميركية تقترب، ما هو موقف المجاهدين حيال بوش وكيري؟

ـ علينا أن نوجه شكراً كثيراً لبوش. فقد أتاح لنا اجتياح أفغانستان وتطوير موقفنا في كل مكان. لقد وجّه ركلة قدم للوكر ونحن ننتشر الآن في العالم بأسره. ونحن حاضرون في ستين بلداً. وبوش رئيس من جديد، وهذا بالنسبة لنا التأكيد بأن نكون أقوى خلال سنة أو سنتين، لأن الجنود الأميركيين سيبقون في العراق

ـ وفرنسا؟ أضاف كريستيان.

ـ هي ليست في عداد أهدافنا ذات الأولوية.

ـ تعرفون أننا، في عام 732، أوقفنا العرب في بواتييه، قلت بتهكم، الأمر الذي لم يطلق أية ردة فعل من قِبَلِهِ.

ثم جاءت أسئلة تقنية، حول تنظيمهم مثلاً. وهي تؤخذ عن النظام التقليدي لحرب العصابات. فجميع الخلايا المقاتلة منفصلة وعناصرها يجهلون الأعضاء الآخرين في الجيش، وإنهاء لذلك الحوار، جاءت الأسئلة ذات طابع شخصي:

ـ لماذا لم تتزوج بعد؟

ـ أنا خاطب ويجب أن أتزوج في بضعة أشهر، وهذا أحد الأسباب التي من أجلها أريد الخروج من هنا في أسرع ما يمكن.

ـ لماذا هذا النظام من الصديقات الصغيرات في الغرب؟ اعملوا مثلي أنا، فقد تزوجت أربع نساء أحترمهن كلهن بالقدر

نفسه . وعندما أعطي إحداهن مئة دولار أعطي مئة أخرى لكل واحدة من الثلاث الأخريات .

وفجأة نظر إلى ساعته .

ـ أصبحنا في منتصف الليل ونصف ساعة . نتوقف الآن . وربما نعاود الحديث ذات يوم آخر . ستنشران هذا الحوار أليس كذلك؟

الطابع المثالي لهذا المشهد لا ينقصه أن يثير دهشتنا . لقد فهمنا أن نوعاً من الاندماج قد جرى بين جماعة النظام السابق في عهد صدام وبين جماعة الإسلاميين الجهاديين القريبين من بن لادن . لقد أدركنا الآن بشكل أفضل بكثير استراتيجية المقاتلين . فكل تنظيم يملك معقله الإقليمي الجيش الإسلامي في الجنوب الغربي من بغداد، الزرقاوي في الفلوجة وأنصار السنة في الشمال . وخلال ما يقرب من ساعتين اكتشفنا لتونا مذاق مهنتنا . والتساؤل الأخير هو هل كان لهذا الجهاد مهمة إيصال رسائل لنا؟

عبثاً حاول هذا «اللحام» أن يُطمئننا، ولم يأتنا أي خبر عن إطلاق سراحنا، ما عدا أن يقول لنا الحارس، في بعض الأحيان، الأمر يسير بشكل جيد، إلخ، لكن دون أن يتبع ذلك أدنى خطوة عملية .

يوم الأحد في 30 تشرين الأول/ أكتوبر، في بداية بعد الظهر، فُتح الباب ودخل سعد برفقة زمرة من المسؤولين المقنعين

جميعاً، لكن دون سلاح ظاهر. وبلطفه الاعتيادي، طلب سماع أخبارنا في بادئ الأمر:

ـ كيف هي ظروف احتجازكما؟

ـ ممتازة، أجبته.

وأضاف جورج مبتسماً:

ـ حتى أنه يريد البقاء هنا وقتاً أطول!

فتابع سعد باللهجة ذاتها:

ـ لا تقلق، سيحصل على بطاقة استضافة أخرى.

لم يُعطِ جورج الاهتمام لملاحظتي. وبينما كان الرجال يأخذون مقاعدهم، همس لي بصوت منخفض:

ـ مع ذلك لسنا في نادي البحر المتوسط! ولست مرغماً على تلميع أباطيلهم.

أخرجنا سعد من تداولنا.

ـ الفرنسيون يريدون شريطاً لأنهم يخشون أن تكونا قد قتلتما. لم تعد هناك ثقة بين الفرنسيين وبيننا. أعتقد أنهم يلعبون لعبة ما، أضاف منزعجاً.

ـ أين أصبحت المفاوضات؟ سأل جورج.

ـ تقدمنا لكن لا زالت توجد مشكلات للتسوية. هذا بطء وننتقل الآن إلى التصوير.

وأعيد المشهد. أنا أدعى X، أنا في صحة جيدة. . .

تساءلنا حول معنى هذا الشريط بعد عشرة أيام من الوعد دون جدوى بإطلاق سراحنا، فهل معنى ذلك عرض لاستئناف الاتصال أم العرض الذي يسبق تجسيد الوعد؟ ألم يقل لنا حارسنا أنه مجرد نقل بسيط؟ فيبدو لنا أمراً مؤكداً، أن الفرنسيين اضطروا أن يكونوا غير راضين عن عدم إخلاء سبيلنا في نهاية أيلول/ سبتمبر، كما كان متوقعاً. وربما، بعد النجاح في إقامة اتصالات مباشرة وسرية مع المتفاوضين، قام خاطفونا بتصعيد كبير للمزايدات؟

في اليوم التالي، قُدم لنا استجواب جديد خطي، حول أسئلة كنا قد أجبنا عنها عدة مرات. من نحن، وماذا نقول في الوضع في العراق، وفي القضية الفلسطينية، وفي رأينا حول الحجاب. . . والعنصر الهام، أنه جرى الاستجواب من قبل الذي قُدّم لنا بعد ذلك كأحد المفاوضين في الاتصال مع الفرنسيين. ولم نكن نستطيع أن نسأله بل كنا نحصل منه على مختصر بسيط: «الوضع في المرحلة النهائية».

نحن نجدد الارتباط بالتفاؤل، وكل شيء يمكن تفسيره: شريط البارحة يمثل وثيقة عن مقدمة التفاوض، وأسئلة اليوم ستُبث على موقعهم على الانترنت عندما يطلق سراحنا، والحرية التي

ترتسم في أفق ثلاثة أو أربعة أيام، وليس أكثر.
ـ لكن الوقت كان يمر ولم يظهر أي أمر.
كنا نسمع، في بعض الأحيان ليلاً، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار عمليات قصف تستهدف الأميركيين، وعمليات رد بالكلاشينكوف وبطاريات الكاتيوشا. وفضلاً عن ذلك كان «اللحام» يؤكد لنا أن المجاهدين يطلقون الصواريخ التي تستطيع الوصول إلى أهدافها على بعد ثمانين كيلومتراً. صحيح؟ خطأ؟
شيئاً فشيئاً، كان لا بد من العودة إلى الوضوح. ومجدداً طالت المرحلة النهائية كثيراً. ومع ذلك، ارتفعت الروح المعنوية عندنا ذات مساء، عندما شرح لنا أحد حراسنا أسلوب عملهم:
ـ إنها مسألة وقت، فلا تقلقا، إنكما في الخانة الجيدة وعندما نلقي القبض على رهائن، إما نقوم بإعدامها، وإما نتفاوض معها لإطلاق سراحها. إن الصبر جميل...
اعتباراً من هذه اللحظة، قررنا تثبيت استراتيجيتنا المقاومة، وخط دفاعنا: لقد لقينا معاملة جيدة، هم يفاوضون، ولا بد من الصبر!
والقصد جدير بالثناء، لكن المفاوضات، استناداً إلى التفكير أو اللعبة الصغيرة للأشرطة، يمكن أن تنقلب إلى السوء. ولا يمكننا استبعاد لحظات الأزمة والخطر، طالما تستمر المؤشرات الخادعة. وذات مساء، وجه الحارس، الذي كان قد طمأننا، حديثه إلى جورج:

ـ أنت، لست صحافياً. أنت جاسوس. لكن قلما يهم ذلك، فسيجري التفاوض معك رغم ذلك. وأضاف وهو ينظر إلي: هذا المساء لن ينام رفيقك.

في الواقع، اعتبر جورج ذلك من المزاح المظلم وظل هادئاً.

كان يمضي لياليه مستعرضاً فيلم حياته، ذات مساء في سنوات المدرسة، والجامعة بعد ذلك، وفي يوم آخر غداة وصوله إلى باريس، أما أنا. فقد اخترعتُ عالماً ذهنياً من أسطوانات الجاز، وبثاً للقطع الموسيقية التي أحبها. وكنا نكرر كل يوم على حراسنا السؤال ذاته كيف المفاوضات؟، وكانوا يجيبون عنه دائماً بشكل هروبي. حتى وإن كانوا يعاملوننا بشكل صحيح، في موازاة التحرك المتواصل.

ـ أنتما لقيتما العقاب. قال لنا ذات يوم أحد سجانينا. وبعد الآن، يُلغى ما يزيد عن الحاجة، كان الباب مفتوحاً قليلاً، ورأى أحد المسؤولين في الغرفة المجاورة خيالكما من أسفل الباب فيجب أن تتوقفا عن المشي.

في 15 تشرين الأول/ أكتوبر، تقارب مدة الاحتجاز الشهرين. في آخر يوم جمعة قبل رمضان، وبسبب عمليات القصف المتواصل، التي تقطع أمننا، سنغير مرة أخرى مكان

الاحتجاز. فوجه «اللحام» إلينا هذه الجملة التي يريدها ترحيبية ومثيرة لدهشتنا:

ـ آمل ألا يكون أُسيء التعامل معكما. فاحتفظا بذكرى جيدة.

ركبنا جيب النقل السابق، وغادرنا زنزانة القاتلين لنعود إلى البيت الثاني في الضاحية القريبة في بغداد. فهل يكون عدد المخابئ التي يمتلكها خاطفونا قليلاً جداً؟ وبقينا هناك تقريباً كل شهر رمضان، وكان سجانونا خلاله يقدمون لنا الغداء بصفتنا مسيحيين.

أُعيد تنظيم الحياة، وحاولنا إيجاد آثارنا. وكلف بنا فريق جديد، قليل الاتصال، وشارك فيه رجل سنسميه «الملاك الحارس» سيحمل لنا أخباراً جيدة عدة مرات. وقد ظهر أننا مؤمنون بالقضاء والقدر، وحاولنا ألا نصدق جميع الوعود التي تُقطر لنا. ولم يتغير إيماننا: نحن نُعامل بشكل جيد ولا زلنا على قيد الحياة. لا أخبار، لا أخبار جيدة، وكثيراً ما خدعنا حتى قررنا تغيير نهجنا: الخبر يأتي إلينا، ولا نلح في طلبه.

تنتهي رتابة الأيام، وتكرار الحركات بفقدان معناها.

ويوم الأحد صباحاً، في 17 تشرين الأول/ أكتوبر، وصل سعد برفقة شريك له: شريط جديد.

ـ أنا اسمي جورج مالبرونو، وأنا اسمي كريستيان شينو، لقد تم نقلنا لأن الأميركيين قصفوا محيط بيتنا السابق . . .

ـ جورج، لا تقل بيتنا، بل سجننا. واطلب من المجتمع الدولي التحرك من أجل وقف هذا الاعتداء.

وأنهى مؤكداً لنا أن مفاوضاً جديداً يطلب شريط فيديو آخر. ثم أفرغه. ومرّ أسبوعان دون أي خبر من سعد. ولقتل الوقت كنا نتابع تذكر الماضي. واحتلت كرة القدم التي نحبها نحن الاثنين حيزاً واسعاً. أين أصبح مارسل أوبور، حارس المرمى في ملعب ريمس في عام 1965، وجورج كارنوس والإخوة ريفيلي؟ وفي بعض الأحيان، كنا نطلق إشهار إحدى السنين: 1973، ونحاول أن نتذكر الحد الأقصى من الأحداث: إدغار نور وزير العدل، حيسكار للمالية، وهكذا. وإنني أتذكر بداياتي في الخدمة السياسية، وكنا نستعرض أفلاماً في مخيلاتنا.

جرت الأيام متشابهة وباهتة. ووجدنا أنفسنا في نوع من الرتابة في الاحتجاز. وكانت المفاجأة، عندما تبين لنا أن الزمن يمر في النهاية بسرعة كبيرة: نحن رهينتان منذ شهرين. دون تهديد، وبتغذية جيدة، أستطيع البقاء ستة شهور دون مشكلة، أطلق ذلك كريستيان. لكن الضغط حاضر دائماً.

ذات مساء، في حوالي الساعة 22، ذهبت إلى المرحاض. ولم

يكن نظام الحمام التركي يعرف طرادة الماء، بل كان يستدله بماسورة تنتهي بحنفية صغيرة. وفجأة تفكّكت الحنفية وراحت المياه تتدفّق بحيث يستحيل وقفها. فما العمل؟ وكان حراسنا قد منعوني بشكل قاطع أن نناديهم. ومع ذلك تجرأتُ أن أقول لكريستيان.

ـ يجب أن تطرق بابهم. ولا يمكن ترك الماء تجري طوال الليل وغداً في الصباح، عندما يتبين لهم تسرّب الماء، سيشتموننا لهدر المياه الغالية الثمن جداً هنا. وإننا نخاطر حتى أن نُتَّهم بالسرقة.

ـ لقد منعونا من أن نطرق الباب. وإذا قمنا بذلك، نتعرّض فعلاً لخطر الاتهام! وأيضاً، في عز رمضان كلا. لن نقوم بإزعاجهم.

ـ بالضبط! لأنهم في رمضان، فهم لا ينامون. ويجب إخطارهم.

وتناقشنا بضع دقائق، منقسميْن بين مخاوفنا من الاتهام هذا المساء أو منه غداً. . . وفي الأخير قررتُ طرق الباب. فدخل رجل مقنع. وشرحت له بأدب تسرب الماء وهدرها. . .

دون أية كلمة، أخذ الماسورة وقام بربطها في عقدة على ذاتها، وتوقفت الماء طبعاً عن الجريان في اللحظة.

ثم خرج. وشعرنا بالانفراج والسخف في آن معاً، فكنا مذعورين جداً. بحيث لم تكن لدينا لحظة تفكير بربط هذا

الأنبوب المرن من الكاوتشوك! وهذا يقول الكثير عن حالتنا من التعب الدهني.

وعاد الرجل ومعه ملقطان وقام بإصلاح وصلة المياه.

ـ الآن صارت المياه عندكما!

اجتاحني القلق من جديد، أهلي وسيلفيا . . . وفي 31 تشرين الأول/ أكتوبر أخلى هذا المزاج الكامن المكان للقلق، حتى تداعى فجأة. ففي ذاك اليوم، كان الطقس رمادياً وممطراً. وغرقنا في الظلام بسبب الانقطاع المتكرر للكهرباء. وكنا قد اجتزنا مرحلة الشهرين من الاحتجاز، منذ أكثر من أسبوع. فنهضتُ، ولأول مرة أجهشتُ بالبكاء. ونخرني سؤال:

ـ كريستيان، نحن مذنبان أم ضحيتان؟ ألن يلومني أهلي وسيلفيا لكوني ألقيتُ نفسي في فم الذئب؟

ـ نحن ضحيتان للتشوش العراقي، هذا كل شيء.

وفرنسا تستعد للاحتفال بعيد القديسين، وأتصور أهلي الذين يجتمعون حول قبر أجدادي والدموع تخنقهم من جديد. وانعزلت حياء في غرفة الحمام. وركزت نظري على النافذة الصغيرة. وعادت إلى ذاكرتي بداية ما كتبه أوسكار وايلد، قصيدة سجن ريدينغ، التي تعلمتها قديماً في زمن دراستي للفن المسرحي، في رواية الأربع والعشرين ساعة الأخيرة لمحكوم بالموت:

لم يعد يرتدي قميصه القرمزي، لأن الدم والنبيذ أحمران. بيد أنه كان هناك دم ونبيذ عندما وجد قرب الميتة. فالمرأة الفقيرة الميتة هي التي كان يحبها والتي كان قد قتلها في حمامه.

لم أر أبداً رجلاً ينظر بهذا القدر من الفرح إلى هذه الخيمة الزرقاء التي تدعى السماء.

عشرون سنة مضت، واليوم أجد نفسي سجيناً ينظر إلى هذه الخيمة الزرقاء. وفي كل ما يبدو لي خيالياً هو مع ذلك حقيقي. حقيقي ومكدر بشكل مخيف.

رغم كل ذلك، فإن أملاً جديداً في الغد.

وفي بداية بعد الظهر، دخل حارسنا إلى زنزانتنا، تقدم وقال بلهجة البوح بسر:

ـ سمعتُ مسؤولين مجتمعين في الأسفل، يقولون أن حلاً لمشكلتكما بات قريباً. لكن لا تقولا أنني قلت لكم ذلك. وغادر على الفور.

منذ أسبوعين ونحن معه، ولم يوجه لنا في الواقع أي كلام، ونحن أكثر ميلاً لاعتبار كلامه جديراً بالثقة. لكن، ولما كنا غالباً ما نُنقل في مركب، قررنا ألا نتحمس لميلنا هذا. وفي خمسة عشر يوماً، سيكون العيد المميز لنهاية رمضان... فلنأمل...

لم نكن نعرف، من الآن إلى ذاك التاريخ، أن اختياراً جديداً ينتظرنا.

الرعب

نهار الاثنين في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر، دخل احتجازنا في أسبوعه الثاني عشر، لكننا كنا بعيدين عن الشك في أننا سنجتاز الخمسة عشر يوماً الأكثر معاناة في حياتنا. فقريباً سكون مدفوعين في قلق المجهول والتخوف من موت قريب. لقد انتهى وقت الوعود المتكررة والأحاديث المسكنة ولحظات المزاح، منذ الآن، سيصبح الشك في ما يخص مصيرنا الأمر العادي في أيامنا كما في ليالينا. ولدينا الإحساس به منذ الكلمات الأولى التي قالها لنا اليوم أحد حراسنا، وهو يجلب لنا الفطور.

لقد تأخرت المفاوضات، قال لنا ذلك بلهجة مكدرة. ويعتقد أن الأمر ينتهي في الأيام العشرة الباقية حتى العيد، لكننا نصل إلى طرح السؤال حول ما إذا كان الفرنسيون حقاً يريدونكما. وهل هم متواطئون مع الأميركيين؟ وسيأتي مسؤول ليسجل شريطاً تطلبان فيه من الفرنسيين المساعَدة في إطلاق سراحكما.

لم أدرك الأمر على الفور، على عكس جورج الذي سارع في التحليل.

ذلك هو شريط الأزمة التي كنا نخشاها في الواقع منذ البداية. فالوضع فيها الآن.

بعد بضع ساعات وصل سعد مع تجهمه من الأيام السيئة. وكان يحمل آلة تصوير، بينما يحمل حارسه المرافق له الكلاشينكوف التقليدي الذي لم نعد نعطيه حتى الاهتمام. وهو لا يوجه لنا حتى التحية، وينتزع بحركة غاضبة الروزنامة المعلقة إلى يمين الباب.

ولما كانت الكهرباء مقطوعة والمولّد معطلاً، تساءل سعد كيف سيتمكن من التصوير مع هذه الإضاءة الخفيفة. ثم دخل إلى عرفة الحمام حيث تتيح كوة النافذة تسرب ضوء النهار، وأشار إليّ بأن ألحق به، بينما بقي جورج في الغرفة. وفي الحال قال كل الحقيقة:

ـ وضعكما خطر جداً. والاتصالات توقفت. وطل شيراك يصر على عدم بحث أي شيء بشأن الحجاب والمسائل الأخرى. أما بوش، فيحاول إعادتكما. ونحن نتساءل ما إذا كنتما تنتميان للمخابرات المركزية الأميركية. واعلما أنه اعتباراً من الآن، يمكننا تصفيتكما في أية لحظة.

لأول مرة، يوجه لنا شخص بكل صراحة تهديداً بالموت. وليس المهم من: رئيس دوائر الاستخبارات نفسه، الرجل الذي

يتابع مصيرنا منذ اليوم الأول، ويحفظ ملفاً غنياً. وقد كررتُ له القول بأننا لسنا إلاَّ صحافيَّيْن فرنسيَّيْن دون أي ارتباط مع أية دائرة استخباراتية. لكنه يلوح دائماً بالتهديد:

ـ ملفكما لم يتقدم بعد! وأنتما تعرفان أن في مفهومنا قتل البريء محرَّم. لكن إذا كان لا بد منه، لن نتردد فيه. فيجب بالتالي أن تقنعا حكومتكما أن تنتقل إلى القرارات الفعلية!

وللبدء بالتسجيل، جلستُ أمام باب خشبي غير مغطى بالقماش. وكنت أشعر بالاختناق.

ـ كريستيان شينو، صحافي يعمل مع راديو فرنسا الدولي، في صحة جيدة وأوجه هذه الرسالة إلى السلطات الفرنسية. وضعنا خطر جداً. اعملوا أي شيء. أتوسل إليكم. وإذا لم يوضع حل لما نحن فيه، فإن خطر الموت يتهددنا.

عدت إلى الغرفة، وسكن روعي، وأخذ جورج مكاني. وسجل بدوره، ثم توجه إلى سعد بقوله:

ـ أنا لا أفهم. تعلنون لنا أخباراً جيدة، وتقولون لنا أنكم على وشك إيجاد اتفاق مع حكومتنا، وأن إطلاق سراحنا قريب، في الوقت نفسه. . .

ـ هذا صحيح، ونحن نفكر في تسليمكما إلى السوريين أو

اللبنانيين. لكن هذا الشريط موجه إلى مفاوض جديد لأن الآخر لم يكن صحيحاً.

ـ اتفقنا. هناك أزمة صغيرة سطحية، لكنكم تعرفون أنها ليست المرة الأولى كل الأمور للحل.

ـ ما عدا إذا كان الفرنسيون قد تخلّوا عنكما.

ـ لم يتخلّوا عنا، لكن ربما ليس على أساس شروحكم.

وفجأة تغيرت وجهة النقاش. وعاد جورج من غرفة الحمام، وسماته ملفتة. وغادر الإسلاميان الغرفة دون أن يقولا كلمة واحدة.

أنا كنتُ أزعج جورج بموقفي التفاؤلي، الذي كان يعتبره منفصلاً. وحاول طمأنتي على امتداد ساعتين وفي رأيه أن خاطفينا يخادعون لتصعيد المزايدات. وتؤكد قصة أنهم أرادوا تسليمنا إلى السوريين أو اللبنانيين، أنهم فكروا فعلاً بإطلاق سراحنا، لكن كلامه ظل دون تأثير. واجتزت مراحل من القلق المرعب. فلأول مرة يكون التهديد مباشراً. فكيف لا نعتبره جدياً؟ وكان لا بد من تقديم دليل اقتناع بذلك لأن جورج بدوره اعترف أن وضعنا، في غاية الخطورة. ومرة أخرى أيضاً أجرينا تقييماً للوضع بالمقابلة بين تحليل إيجابي وآخر أكثر واقعية. فمن الناحية الفعلية. تسجيل دون إخراج حربي، وانفتاح على

الفرنسيين على أساس القيام بشيء معين، وبالبداهة استمرت الاتصالات بشكل بسيط جداً لأنه بدا ألا مصلحة لخاطفينا في قطعها. حتى هذا المزاح السيىء لسعد الذي ظهر لنا جيداً ظاهرياً كان يفصل أن تجري الأمور بشكل أفضل. أما حكومتنا، فقد كنا مقتنعين بأنها سترد وتأخذ مواقف جديدة بأقصى سرعة. والشأن السلبي «مفاجأة الأزمة، والتعابير المستخدمة والتهديدات المفوّه بها والتي تحدد قياسها واتجاه هذا التسجيل الأخير المبين لمستوى المبالغة لخاطفينا بتعابير أخرى: «من المعلوم أنكم ستطلبون منا شريطاً، ونحن حملناه لكم، وهذا هو. والرهينتان في حالة صحية جيدة، لكن الآن انتهى كل شيء، ويمكن التوصل إلى اتفاق أو نقوم بإعدامهما». وحاول حورج الاقتناع بالمنطق الذي يملي أعمال هؤلاء المقاتلين:

ـ لقد فاوضوا لمدة شهرين ونصف، وهم لا يريدون تصفيتنا بسبب أزمة الدقيقة الأخيرة! ويتلخص المخرج بإطلاق سراحنا، لكنه يعني بالنسبة لهم بعض التداعيات الإيجابية السياسية والتوسطية والمالية ربما. وفي النتيجة لا يمكن استمرار الجمود. كما إنهم لن يقوموا بإعدامنا خلال شهر رمضان.

والمؤسف أن الصيام الإسلامي لم يردع الإسلاميين عن القتل، وسُجِّل في بعض الأحيان تزايد لحالات الإعدام خلال هذه

المرحلة. فندور ونعيد الدوران باستمرار في بضعة الأمتار المربعة. ويضيق علينا القلق بشكل متواصل. ويظهر لنا الوقت أبعد مما كنا نظن: «هم يفاوضون ونحن صابرون ولم يبق إلاّ جفاف التهديد: يمكن تصفيتكما في أي وقت». ويلف الخوف لنا المعدة، ويكدر السمات، ويُغرق النظر، ويجفف الحنجرة.

مر الليل، كأنه لا نهاية له، وكان النوم صعباً. وفي اليوم التالي، كانت جلستنا الصغيرة الرياضية بحاجة لمواد الإثبات. وكنتُ أشعر أن حورج أكثر تأثراً من أي وقت سابق منذ بداية تجربتنا. كنت كمن تلقى الضربة القاضية. وفي السابق، كان يغبطني على شبه طلاقتي في القدرة على النوم في النهار، وغالباً ما كان الرد متهكماً. وفي بعض الأحيان كان ذلك يجعله مبالغاً فيه:

- كريستيان، هل تدرك المأساة التي نعيشها؟

- طالما كانت هناك حياة، فإن هناك أمل.

وإن نوعاً من طقس اللامبالاة ضروري لطرد القلق!

يوم الثلاثاء رجحت كفة تثبيط العزيمة، وعشنا ثالث إطلاق سراح خاطىء، بعد المحاولات الفاشلة، في آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر. والتبادل المتواصل لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. والصبر جميل في الشرق كما في كل مكان في العالم، فإن له حدوده ويتعرض خاطفونا لمخاطر التعب.

يوم الأربعاء، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، في الساعات الأولى من بعد الظهر، اندلعت معارك عنيفة حول البيت. وكما كنا نعتقد أننا معتقلون في وسط منطقة مقاومة. وكانت قنبلة قد انفجرت على طريق السيارات، على بعد حوالي خمسين متراً من سجننا. وتوقف موكب أميركي عسكري، وأطلقوا نيران رشاشاتهم في محيط المنطقة التي كنا فيها. وتحطمت الطلقات قرب نافذتنا، وكان ذعرنا كبيراً! وسارعنا إلى عمق الغرفة لننكمش تحت وسادتينا وفراشينا. فكانت حرب العصابات ترد من أبنية مجاورة واستمر تبادل إطلاق النار أكثر من ساعة. وجاء أحد المقنعين من سجانينا ليتحقق من أننا لم نصب بأذى، مما خفَّف مظاهر التوتر الجسدي والنفسي. فقبل البارحة، كان شريط التهديد، واليوم عمليات القصف... فمن سيقوم بقتلنا؟ مقاتلو الجيش الإسلامي أم الأميركيون؟ ولكي لا يستخدمنا عناصر الفريق الأول دروعاً بشرية من أجل حماية أنفسهم من الآخرين... اختار جورج فرضية نقل جديد، فالخطر يبقى كبيراً إذا كانوا يريدون الاحتفاظ بنا كعملة للتبادل...

فمنذ سبعة وعشرين يوماً، ونحن محتجزون في هذا البيت والأغرب أننا نعتاد على المساحة التي يفرضها علينا، هذا أو

ذاك. ويجري التوافق، وتنشأ تحركات جديدة تبعاً للقرب من الأمكنة، ونصنع حذوراً جديدة قدر الممكن.

بعد توقف المعارك، تبين أن جورج كان محقاً. وهم كانوا يريدون نقلنا في أسرع ما يمكن. وفي اليوم التالي، الخميس في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، طُلب منا جمع أعراضنا وارتداء ثيابنا في الحال. فنزع جورج سروال الرياضة القصير، ولم يكن يرتدي سروالاً داخلياً، فغضب أحد السجانين بشدة، لأن التعري عندهم محظور:

ـ لو فعلت ذلك مرة أخرى لقتلتك! اذهب إلى غرفة الحمام على الفور! كنا ننتظر السيارة ونحن جالسان على الأرض وعيوننا معصوبة، فهمس حارس في أذني:

ـ الفرنسيون لا يصدقون تهديد الشريط المسجل.

هل هذه لعبة فاسدة أم هي الحقيقة؟ كل شيء ينهار من جديد. وفرصة سلامتنا الأخيرة ترتكز على دفع للمفاوضات! وحملونا في مؤخرة السيارة ونحن نتصور الأسوأ. فهل نحن أحسنّا إظهار القدرة على الإقناع خلال عملية تسجيل الشريط؟ وهل نعيش آخر سفر لنا؟

كان كريستيان محصوراً إلى جانبي في التابوت الكرتوني، ولم يقل أية كلمة. وأقلعت السيارة مندفعة بسرعة، لأن عبور المنطقة الخطرة بأقل قدر من الحطر، من أجل الوصول إلى ضاحية

بغداد، يجب أن يتم بسرعة فائقة. ورغم الأغطية الخانقة، كان ضجيج الشارع الرئيسي يصل إلى سمعنا. وكان سعد جالساً إلى جانب السائق ويستعجله باستمرار.

فجأة انزلقت السيارة، وكانت تسير على ممر جانبي إلى يمين السير لتتجاوز السيارات الأخرى. ثم غرقت في الوحول وتوقفت. وجعلتنا طقة الباب المشابهة لصوت الكلاشينكوف، ننتفض داخل التابوت.

ـ المهم ألا تتحركا، أمرنا سعد.

أخذتُ أسرح في الخيال مع الأميركيين، وتمنيتُ مرورهم. لو أن موكباً حمل هذا العالم الجميل وأطلق سراحنا؟ وداعبت خيالي فكرة الهرب غير الممكنة! فقمتُ بفك أحزمتي ثم أحزمة كريستيان... ورحنا ننتظر الإقلاع من جديد، وتحت تأثير ضربات الاستعجال توصلتُ إلى فتح الباب الخلفي، وانزلق تابوتنا ونحن في داخله، إلى الرصيف... وداعب أملنا ألا نقع تحت دواليب السيارة أو الشاحنة التي تتبعنا، أو نتعرض للقتل من قبل خاطفينا الذين خرجوا مدفعين من السيارة...

وفعلياً لم يحصل شيء! والكثير من المخاطر محتملة في المشهد. واستسلمت مرة أخرى للإصغاء إلى حركة تنفسي لأنفرد بوضعي.

بقينا في حالة التوقف. وسمعنا أصواتاً مجهولة. واقتربت منا سيارة أخرى. وقدم ركابها المساعدة لخاطفينا، وأقلعت سيارتنا من جديد. وبعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، توقفت مجدداً، وفتح سعد الباب هذه المرة، وقرر مواجهة وضعنا، فأطلق بالإنكليزية تهديداً مرعباً:

من مات؟ ومن لا زال حياً؟

وارتخت أجسادنا وعزائمنا.

تحرك الحراس حولنا قبل نزع العصبة عن أعيننا. ثم وجدنا أنفسنا في البيت الذي احتُجرنا فيه من 3 إلى 22 أيلول/ سبتمبر، بعد احتجاز الخمسة عشر يوماً التي أمضيناها في المزرعة. ولم يكن قد تغير شيء في الغرفة. غير أن بعض المسامير في أحد الجدران تشير إلى كون رهائن أخرى قد احتُجزوا هنا في غيابنا. وأبلغنا أحد الحراس الأمر بألا نقترب من النافذتين اللتين سُدتا بالكرتون.

كنا وحدنا في مواجهة قلقنا. وكنا متأكدين أنهم سيقومون بتصفيتنا في وقت قريب. واحد منا على الأقل. ذاك هو بالضرورة معنى كلمات سعد. لأن الفرنسيين قد حصلوا على شريط تهديدي لا يصدقونه، ويجب على الخاطفين أن يؤكدوا لهم عزمهم على ذلك. وبالتالي سينفذون الإعدام بواحد منا.

وتصور الإحراج الذي سينظمونه من أجل منع إعدام أحدنا نحن الاثنين

أخذتُ يد كريستيان ورحتُ أرجوه لكن الكلمات أصبحت بعيدة جداً عني، ولم أعد أذكر منها شيئاً. وكان كريستيان يهمس لي بها بصوت منخفض... ولم تغادرني أهوال الخوف المادي. ولم يكن في مخيلتي مكان للشك: سأكون الأول في التصفية. وكان الخاطفون يريدون الاحتفاظ بمن يتكلم العربية بشكل أفضل. ثم بدأت عملية الجرد المشؤومة قبل التصفية النهائية. فالوضع مأساوي. وكنا نحصي بشكل متبادل رغباتنا الأخيرة. فكان كريستيان مصاباً بتشنج في الحنجرة:

ـ إذا كنت أنت الذي سيعود، فانقل اعتذاري لأهلي. فيجب أن يسامحوني لكوني جعلتهم يتألمون طيلة هذه الأشهر.

ثم نقل لي رغبته في تقسيم أملاكه بين أخته وأخيه وأولادهما الثلاثة. وبدوري، حددتُ له رغبتي الأخيرة: تقاسم كل ما أملك بين سيلفيا وأخي وأحد أولاد عمي. واعرورقت عيناي بالدموع. وكنت أفكر في أهلي. فبعد خمس وأربعين سنة على موت أختي، في عمر الخمس سنوات، سيفقدون ولدهم للمرة الثانية... وكيف سيمكنهم تحمّل مثل هذا الكابوس؟ وهل سيجدون القدرة على العيش بعد ذلك؟

ونحن نقوم بما نعتبره صلاتنا الأخيرة. ونحن نستعد للموت. ونحن نعرف أنهم يقومون بالذبح، لكننا نأمل أن يستطيعوا اختيار رصاصة الرحمة في الرأس. فمتى يأتون للقيام بذلك؟

لم يكن جورج وحده المتأكد من وقوع الأسوأ. وانطفأ تعاؤلي العادي هذه المرة. وصار الليل مرعباً. ولا نكاد ننام حتى يذهب ما نحس به إلى أبعد من حدود الخوف. فكيف يمكن لشخص أن يقاوم مثل هذا الشعور؟ ومن 11 إلى 14 تشرين الثاني/ نوفمبر، وعلى امتداد هذه الأيام الثلاثة والليالي الثلاث كانت الكوابيس تهاجمنا. وكان جورج في الأسفل. وأنا لم أفرق بين النوم واليقظة. وأصبحتُ شاهداً على إخراج الموتى: في نوع من قداس أسود مع رجال مقنعين ويرتدون الجلابية البيضاء ويحملون السكاكين في أحزمتهم، ويمسكون برأسي، وأقول لهم: «لماذا تريدون قتلي؟ أنا أفهم المقاومة. وليس هذا هو الإسلام. ونحن أبرياء». ثم أشهد على دفني. وأرقد في قعر حفرة، في مقبرة قريتي الصغيرة فييل بوجيه. وتنتحب كل عائلتي وتبكي. ويُلقي أرباب عملي خطابات حول هذا المسكين شينو... لكن أوراقهم تطير وكان شركائي في التلفزيون الفرنسي حاضرين. ورمى أناس بوردة إليَّ. واستيقظت من نومي، متسائلاً: كم من الوقت يدوم الذبح؟ وكنت أنهض من

كابوس لأغرق في آخر. وكان خاطفونا يعرضون علينا شريطاً.
وقال مفاوض فرنسي: أيها السيدان شينو ومالبرونو. أنتما في الأسر منذ شهرين. وقمنا بالحد الأقصى من أجل إنقاذكما، لكن الجمهورية لا تستطيع الاستسلام لابتزاز الإرهابيين. وستقطع المفاوضات بالتالي!! وكانت أحاديث سعد، التي يقول فيها أن الفرنسيين لا يصدقون تهديدات الجيش الإسلامي، تلاحقني في الليالي.

في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر، يوم عيد القديس كريستيان، المتوافق مع عيد ميلادي، بقيت في صلاة متواصلة. وبرفقة جورج. وفي السابق، كان يبتهل إلى الله طلباً لعونه، كما كل الناس، لكنه لم يكن يلتزم حقاً بالصلاة. ومنذ البارحة، صارت تشكل الصلاة ملاذنا الوحيد، إلى درجة أننا تعهدنا بالذهاب إلى الحج في روما أو في لورد، إذا خرجنا سالمين من هنا أو إذا ظل واحد منا على قيد الحياة. وكنا ننتفض لأدنى ضحة: حين تفتح الأبواب، وحين ينقل الأثاث إلى جانبنا... والصرير المعدني في بعض الأحيان، كما لو كان يتم نقل الأثاث، أو نسمع مقاطع من حديث تم الأمر وهذا جيد. وفي وقت معين اعتقدنا أننا نعرف لهجة صوت «الملحام» الخاص. وكنا نرتجف لمجرد التفكير بما يبرر وجوده: تنفيذ إعدامنا؟ وعندما كان السجانون يأتون

لرؤيتنا، فإنهم لم يعطوننا أي خبر، وكانوا يظهرون لا مبالاة شاملة. وكان الغذاء رديئاً وبارداً. وكان كل شيء يساهم في تحريك قلقنا. ونلمس نحن عمق المشكلة. فكنا نركز النظر في نقطة أمامنا ونبقى واهني القوى وغير قادرين حتى على البكاء، كما لو أن جسدينا وروحينا قد لقيا التحول إلى ما هو أبعد من الدموع. وفي فترة بعد الظهر رمى لي أحد حراسنا كتاباً صغيراً للأطفال يحمل عنوان «القرآن واليد»، وذعر جورج متسائلاً:

ـ قرآن؟ هل تعتقد أنه لأجل أن نعبر عن رعباتنا الأخيرة حسب دين الإسلام؟

وطمأنته كما أستطيع.

ـ كلا، هذا كتاب حول الإسلام واليد، ورمزية ذلك

لماذا هذا الكتاب وليس غيره؟ هل لتمضية الوقت بكل بساطة؟ أم من أجل احترام الجمعة، اليوم المقدس عند المسلمين؟ ووضعنا الكتاب جانباً وعدنا إلى الصلاة. وكانت الساعات تمضي ببطء، وفي مواجهة التوتر ذاته الذي لا يطاق، والصمت ذاته لدى حراسنا. وكان لدينا الشعور أننا لم نعد نعرف أين نحن ومن نكون نحن. وقد فقدنا معنى الزمن والحقائق. وجاء يوم مظلم بعد ليلة مشؤومة، وخلال الليل عادت تلاحقنا الصور المخيفة ذاتها. وصباح الأحد، في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر فُتح الباب لنرى

الحارس الأقل إثارة للنفور، هذا النمط الصريح في السلوك المتمهل والحركات المطمئنة، والذي كان يجلب لنا الفطور. وأغلق الباب وراءه، من أجل ألا يسمعه زملاؤه دون شك، وتقدم نحونا وكنا لا نزال نائمين:

ـ كيف الحال؟

وأجاب كريستيان:

ـ غير جيدة أبداً. بعد شريط التهديد، نحن متعبان جداً نفسياً. لقد قلتم لنا أن حياتنا في خطر ومن المؤكد أنكما ستصفّون واحداً منا.

فوحّه الرحل لنا حركة مهدئة باليد وأضاف بصوت منخفض:

ـ لا وجود للتهديد.

ـ لكن هل المفاوصات قُطعت؟

ـ كلا، لا قطع لها. وإن شاء الله سيستمر الحال في التحسن، وكونا صبورين.

نحن لا نصدق أذنيْنا. وتابع الحارس بصوت منخفض دائماً:

ـ لقد مات عرفات. هذا سيؤخر الاتصالات دون شك، بسبب التعازي الإسلامية والمحاملات... ثم تأتي أيام العيد، وهذا أيضاً سيؤخر المفاوصات.

ويبدو أنه صريح. وفوق ذلك، فهو لم يأتِ ليرانا منذ ثلاثة أو

أربعة أيام وإذا قام اليوم بتاعب هذه الأسرار، فهل يكون ذلك بالتعاطف؟ وذكرني جورج بأننا سمعنا في الأيام الأخيرة انتقادات لقناة الجزيرة التي تتكهن بشريط قوي للأحداث حول عرفات. ويبدو كل شيء متماسكاً. وبعد ذهاب السجان تنفسنا قليلاً. وكان كل يوم يمر يشكل انتصاراً على القلق. وعودتنا نحو الحياة يعود تاريخها إلى هذا الأحد. ولهذا السبب أطلقنا على ناقل هذه الرسالة «الملاك الحارس». فكان يحمل لنا الأخبار الجيدة، بيما كان سعد بأشرطته وصياغاتها المخيفة، يمثّل السيىء والسلبي.

في ذاك اليوم أرسلت الشمس بعض أشعتها الشاحبة وحطت بعض العصافير على حافة شباكنا. فعرفنا العائلة المجاورة. والكثير من المؤشرات القابلة للإدراك بصعوبة، لكنها حقيقية للعودة إلى الصفة الإنسانية. ورغم هذا الضوء بالمعنى الحقيقي والمجازي، بقينا على حذر، وانتظرنا المقبل، واعتباراً من هذه المرحلة الصعبة، لم نعد نعرف اغتباطاً. ونتمنى الآن وبشكل منتظم جداً صباحاً وظهراً ومساءً، ونوجه الشكر إلى الله لهذا اليوم من التأجيل الذي أبلغنا إياه.

في الأسبوع الثالث من تشرين الثاني، من 14 إلى 21، أُرخي الخناق شيئاً فشيئاً، موضوعياً ونفسياً. واضطر الفرنسيون

والعراقيون لتأجيل الأزمة واستؤنفت المفاوضات الجانبية، لأن الوقت يمر، ونحن لا نزال على قيد الحياة رغم شريط التهديد. وكانت كل ساعة تمر وتعرر قوتنا في فكرة كون الكارثة قد تم تجاوزها، ودون أن نصدق فكرة قلب الأوضاع. ولن يستمر خاطفونا في حراستنا هكذا لعدة أشهر لأن سجننا يفرض عليهم أيضاً قيوداً ومخاطر. وكان كريستيان يبذل جهده في دعمي معنوياً، وكنت أحاول القيام مثله في دعمه. وشكّل فراشينا الممددان جنباً إلى جنب نوعاً من سرير واحد ننام عليه واحداً قرب الآخر، كأننا نصلي. حتى أننا وضعنا نوعاً من برنامج للصلاة. ففي الصلاة الأولى نتضرع إلى الله بأن يجنبنا أي حبر سيىء خلال هذا اليوم. وفي الصلاة الثانية نسأل أن يوحي للمفاوضين. وفي الثالثة نلتمس رحمته لعائلتينا. وفي الرابعة نرجوه أن يعطينا قوة لمواجهة الأيام المقبلة، وعبء الاختيارات المحتملة. والخامسة مرسلة إلى الذين يدعموننا في فرنسا من الإخوة والزملاء إلخ. أما السادسة فإنها ترتدي طابعاً أكثر حميمية؛ وهي وحدها التي لا نوجهها بشكل مشترك. فأوجهها إلى الله من أجل سيلفيا، ودون معرفة إلى من يوجه كريستيان صلاته هذه. وبما أن البرد كان أكثر فأكثر تأثيراً، فقد اعتدنا أن نحمل أعطيتنا على الكتفين. وعند جلسات صلاتنا نأخذ مظهر

الرهبان الحقيقيين . فهل تتجه هذه الصورة لاثنين من النمط الفقير وهما يطوفان في زنزانتهما إلى الله؟ وأكون مضطجعاً ، في بعض الأحيان ، وأنهض على مهل عندما يُفتح الباب ، وأتمكن من قراءة الساعة . وأبقى مقتنعاً بأنه ، إذا كان لا بد من وصول خبر سيىء ، فسيكون أثناء النهار ، بين الساعة الحادية عشرة والثامنة عشرة ، سلسلة المشاهد المتوافقة مع مرور سعد . ومن أجل تغذية انتظارنا ، عندما أرى الساعة ، أخبرُ كريستيان بالوقت الذي مضى «والساعات الجيدة» تحمل لنا شكلاً خلاباً من الصراحة ، أما «السيئة» فإنها تجعلنا نرتجف . ولا نقوم بشيء إلاّ الانتظار ونخوض صراعاً يومياً ضد الخبر السيىء . وكل يوم يمر يجعلنا أكثر أملاً بأن الاتصالات بين الفرنسيين والعراقيين تتكثف . لكن هذه الأيام الطويلة تشبه الساعات الطويلة حيث يعتبرها البعض أكثر تأثيراً على الآخرين أمام الخوف .

نعم ، أصبح هذا الروتين لي ولجورج لا يطاق ، ومعذباً ومتكرراً واعتباراً من الاثنين تبدأ فترة أربعة أيام ، لأن أسبوع المسلم يتوقف يوم الخميس . والجمعة يوم الصلاة ، ولا شيء يجري . أما نهاية الأسبوع الغربي ، فإنه يجمد كذلك تطور الأحداث التي تعنينا ، على الأقل هكذا نتصور الأمور . أربعة أيام للإمساك بها قبل القفز إلى المرحلة التالية .

والاثنين في 15، والثلاثاء في 16، والأربعاء في 17، والخميس في 18، لا شيء من الأخبار السيئة. وكان لا بد من استئناف الحوار. ثم مر الجمعة وكذلك السبت، والأحد صباحاً في 21، سيعود التفاؤل. وبسبب البرد احتمينا تحت الأغطية. وحوالي الساعة التاسعة وصل «الملاك الحارس» لأول مرة مرتدياً ثياباً مدنية ودون سلاح. وكان ينتعل حذاء ملمعاً، وبنطالاً من النسيج، وقميصاً، وكان يفوح منه عطر رخيص الثمن. وكان يحمل صحيفة تحت ذراعه ودفتر مذكرات. وأقفل الباب وجلس قربنا، وتحقق من صحتنا وقال لنا إن المفاوضات استؤنفت وأن الفرنسيين يريدون التأكّد من كوننا على قيد الحياة، مما يستوجب بالتالي أخذ الجريدة اليومية، فوقّعنا نسخة من صحيفة الزمان، أكبر جريدة يومية عراقية، وقّع جورج إلى الشمال، ووقّعتُ إلى اليمين. وتحمسنا قليباً هذه المرة، وفيها من الملموس، ويطلب الفرنسيون مجدداً دلالة بأننا على قيد الحياة. كما قدّم لنا «الملاك الحارس» مفكرة ودعانا لنكتب فيها بعض الكلمات إلى عائلتينا، وأضاف:

اكتبا بالإنكليزية، ولا تحاولا توجيه رسالة لأننا سنقرأ ما تكتبان، وإذا ذكرتما أخباراً مثيرة للشبهة لدينا، تخلقان مشكلات لكما حتماً.

To my mother and
my father,
I am in good health
but also the maximum
of efforts to convince
the French government
to release me and
Georges.
Christian Chesnot
21/11/2004

رسالتان موجهتان، تحت ضغط الخاطفين، باللغة الإنكليزية إلى الأهل، من أجل قدرتهم على فهمها.

To my mother and my father,
I am in good health, but
do the maximum of efforts
to convince the French govern-
ment to release me and
Christian

Georges Malbrunot
21/11/2004

أخذت القلم وكتبت بسرعة سطرين إلى أمي. وأنستني العزيزة التعليمات، وكتبت بالفرنسية، وكررت، بينما كتب جورج رسالته:

ـ هل هي رسالة إلى السفارة الفرنسية؟

ـ كلا، لفريق ثالث.

ولا نعلم عنه أكثر مما إذا كان الشخص الثالث موافقاً، تزداد فرص إطلاق سراحنا.

في بداية تشرين الأول/ أكتوبر، أثناء احتجازنا في زنزانة المجاهدين، كان رجل قد جاء يطلب منا الإجابة على جملة أسئلة قائلاً لنا: «نحن في المرحلة النهائية»، أيام، أسابيع، أشهر . . . كلما مر الوقت، تمددت المرحلة المزعومة. والبارحة بلغنا نهاية الشهر الثالث من الاحتجاز . . . مع هذا الإعلان من «الملاك الحارس» في هذا اليوم 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، سألته إذا كان يمكن اعتبار المفاوضات أنها دخلت في «المرحلة النهائية».

ـ نعم، إنها مسألة أيام. لمدة أسبوعين على الأكثر.

حينذاك عدنا لتصديق ذلك، فقد لامسنا الجوهر، ويجب التعلق بأي قدر ضئيل من الأمل. وكان المجاهد قد أكّد لنا:

ـ طالما استمرت المفاوضات، يكون ذلك لصالحكما.

أي مقدار من الثقة يمكن إضفاؤه على هذه التصريحات؟ حتى

الآن لم يحدعنا «الملاك الحارس» أبداً، ومن أجل روحي المعنوية، أفضل تصديق ذلك من كل قلبي.

في حوالي الساعة 17، فُتح الباب ودخل سعد مع آلة تصويره، وبرفقة حارسه الخاص، وراح يكلمنا بلهجة مرحة، كما لو أن كل شيء يسير نحو الأفضل، وهو كان قد تظاهر بالقسوة معنا في المرات الأخيرة:

ـ الأخبار جيدة.

لقد ذهلنا أمام هذا الموقف وبقينا مشدوهين حياله!

ونهض كريستيان مندهشاً بهذا التغير في اللهجة.

ولما كان يشعر ببعض الألم في حنجرته، قام بلف عنقه بقطعة قماش.

ـ ماذا بك؟ سأله سعد. هل أنت مريض؟

ودون انتظار الجواب، سار نحو الباب وطلب إحضار الأسبيرين. ولم تقف أوجه الانتباه عند ذلك.

ـ سنقدم لكما ثياباً أخرى. لا بد أنكما تعرضتما للبرد.

وأذهلنا موقفه مرة أخرى. ثم بدأ التسجيل مع كريستيان. وكالعادة الصلاة ذاتها...

ـ كريستيان شينو، راديو فرنسا الدولي، أنا في صحة جيدة. ولا زلنا صامدين، لكننا نأمل أن يُطلق سراحنا بسرعة لأننا بدأنا نفقد الصبر

أعتقد أن دوري جاء الآن، لكن سعد استدار وانصرف خارجاً! فأطلقت صيحة مندهشة ظلت دون جواب:

ـ واحد فقط؟ تسجيل واحد. . . ؟

واحتاحني القلق مرة أخرى. لماذا لا يريد تسجيلاً مني؟ وكان دور كريستيان محاولة تهدئة مخاوفي. ومع ذلك، كنا قد وقعنا في الصباح، نحن الاثنين الشريط اليومي، وفي تصريحه في شريط الفيديو تكلم كريستيان باسمينا معاً!

ماذا يجري؟ وننطلق في مضاربات، في أول الأمر، أزمة الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر والشريط المقلق. وبعد ذلك استئناف المفاوضات وطلب الفرنسيين الدليل على كوننا على قيد الحياة، ومن هنا الجريدة اليومية وأحرف الصباح. لكن الفرنسيين طلبوا شريطاً حديداً، تعزيزاً لاقتناعهم. وكان خاطفونا، حسب مفهومهم الاعتيادي قد قبلوا التداول في مسألتنا، لكنهم لم يسجلوا إلاّ واحداً ما من أجل إبقاء تعليق مصير الثاني، كما فعلوا في شريط الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر، من أجل الاحتفاظ بكل قوة التهويل لديهم. فكان الموقف مدروساً بدراية: التخلي عن 50% من الطلبات من أحل تأمين الحصول على الباقي. ورغم هذا السيناريو الذي حاولنا تصديقه، لم نكن مطمئنين بشكل تام.

وإذا كان سيطلق سراح كريستيان وحده؟

في اليوم التالي، الاثنين 22 تشرين الثاني/ نوفمبر، حمل لنا «الملاك الحارس» ثياباً دافئة. بنطالان للسباق وكنزات قطنية صغيرة جداً، وعلى الثياب العائدة لي كُتبت عبارة جعلتنا نضحك بتكلف: معهد لانجلي للنساء!

ـ ومن أجل إطلاق سراحكما، نقدّم لكما ثياباً جديدة، وعدنا «الملاك الحارس».

هكذا كان لهذا الأمر بالنسبة لنا أهمية معينة. جديدة أم مستعملة، ما يهمنا إطلاق سراحنا وحده، بعد إعلان هذه العبارة للتو. لكن هل يشملنا القرار نحن الاثنين؟

بالطبع نعم، أجاب كما لو أن الأمر في غاية الوضوح.



الأمل

منذ بدء خطفنا، لم نكن سوى أدوات في أيدي خاطفينا، ولكن، ماذا يريدون من فرنسا بالضبط؟ ربما أراد هذا الفريق الإسلامي مجرّد تثبيت وجوده والبرهان على امتداد سلطته؟ أو مبادلتنا بفدية؟ بسلاح؟ وبشأن هذا الاحتمال الأخير، لن تكون فرنسا مستعدة لمثل هذه المتاجرة التي قد ترعزع ائتمانها. إذاً، ما هي الغاية من هذا الرهان؟

أمّا تصرّف هؤلاء المجاهدين فمرتبط بعلاقات قوة.

ستعود إلى ذاكرتي مراراً تلك الثانية عندما لاحظت إلى أية درجة يتلاعبون على أدنى تفصيل للحفاظ على الضغط. وعلى هذا الشريط الأساسي الذي كان شهادة حياة عند مرحلة معاودة المفاوضات، وكانت عملية الاكتفاء بتسجيل كريستيان لا تؤدي إلى غير الأسئلة الجديدة والمناقشات والافتراضات...

هناك ثانية أخرى لا تُنسى عندما حمل إلينا «الملاك الحارس»، تلك الملابس الشهيرة التي تلائم الفصل، حين تجرأ كريستيان أن يسأل بكل بساطة كما لو كان يسأل عن قضية ماديّة: «هل إطلاق السراح هو لجورج ولي؟» ولتشديد على الجواب بصورة أفضل،

رسم الحارس دائرة في الفضاء تطوقنا كلينا. لم تكن يوماً دائرة بهذا الجمال!

وبخصوص قضية الملابس. . . «سيعطونكما ثياباً أخرى لإطلاق السراح . . .» كانت هذه اللهجة الطبيعية البسيطة توحي بالتالي: «لا تقلقا، لقد فكّرنا بكل شيء».

كان هناك ما يزعزع النفوس الأشد صلابة. إنّ الاحتجاز والضغط يجعلان الخطف شديد الحساسية. يكفي صمت ليذهب بنا إلى السجادة. ولكنّ حركة بسيطة ترد إلينا الأمل. تقلّب عجيب!

هذه المرّة، مع ذلك، أحسّ مع شبه تأكيد أنها ستكون جيدة. فلم يكذب علينا هذا «الملاك الحارس» مرّة. لا بدّ من أنّ محادثاته واحتياطاته من أن يسمعه الزملاء، والتفاته إلينا، تشارك كلها في عمليّة منظّمة. هذا يشير إلى انحراف عنده لم نلحظ له أية إشارة. إذاً، هناك تناذر ستوكهولم، كما قيل لنا. لا، كان وراء المنظمات والأجهزة الحكومية والرهانات غير المفهومة رجال لم تسحقهم الآلات كليًا، ولم تقض الإيديولوجيّات على مشاعرهم نحو الآخرين، ولا يزالون أهلاً للإنسانية.

حدثت طرفة تدل على العلاقة بيننا وبين «الملاك الحارس». عندما كنا في الاحتجاز، كنا نأكل دائماً بواسطة أيدينا سواء كان

الطعام ساخناً أو بارداً. حملوا إلينا ذات يوم طبقاً كبيراً من الأرزّ، فسألناه ما إذا كان بإمكانه أن يحضر لنا ملاعق. فهمس في أذن كريستيان، بدلاً من إعطائه رفضاً قاسياً كما هي الحال مع زملائه: تعرف أنّ 90% من العراقيين يأكلون بواسطة الأيادي. هذا تقليد من تقاليدنا.

إذا كان يُجري هذه الأحاديث المهدّئة فنحن لا نشك في أنه يحضّر حدثاً إيجابياً براء وشيكاً. كم من الوقت بعد؟ إنّ منطق إطلاق السراح المتوقف لمدة أسابيع، والمنفي في هذه الأيّام الأخيرة، يبدو أنه سينطلق من جديد. لقد بدأت المرحلة الأخيرة على ما يبدو. ولكننا لا ننسى بالطبع إمكانية حدوث مفاجأة سيئة. مع ذلك، نشعر أنّ الأشياء البسيطة ككلمة أو حركة أو جملة تشير إلى ابتعاد خطر الموت إن لم نقل قد اختفى. لقد اقترب الحل.

أعدنا إلى ذاكرتنا الكلمات التي همس بها «الملاك الحارس» في أذن كريستيان من المساء إلى الصباح: «لقد دخلنا الآن في المرحلة الأخيرة، والمسألة مسألة أيام تنتهي بأسبوعين على الأكثر».

كنا قد سمعنا، بالطبع، هذا الوعد، في الثالث من تشرين الأوّل/ أكتوبر... بحيث كانت ردة فعلي الأولى التهكم: إن

المراحل الأخيرة التي تدوم شهرين نعرفها! ولكنْ. بما أن القضية تتعلق «بالملاك الحارس» وبما أننا قد لامسنا الموت منذ قليل، لا يمكننا إلاّ أن نبدأ بالعد العكسي.

أسبوعان على الأكثر. ومن خلال ظاهرة بسيكولوجية وجدنا نفسينا هدفاً للعبة الافتراضات، هذا البحث الدائم عن المحتمل وراء كلمات خاطفينا. وفي جميع الأحوال، كنا مقتنعين بأنه لن يحدث شيء في الأسبوع الأول، إذ إنّ الأشرطة والتدقيق من الجانب الفرنسي وربما المفاوضات الأخيرة، كل هذه العمليات تتطلب بعض الوقت ولكنْ، في منتصف الأسبوع القادم، في الأول من كانون الأول/ ديسمبر قد يكون الوضع أفضل.

مرّت الأيام التالية، إذاً، دون وقوع أي حدث استثنائي وقد لاحظنا، مع ذلك، تحسناً طفيفاً بمصيرنا من حيث التغذية بنوع خاص. وأصبحنا نستفيد، كل يوم تقريباً، من الشاي أثناء الفطور، في حين كنا قد حرمنا منه منذ عودتنا إلى هذا البيت في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر بعد ذلك، راحوا يحملون إلينا وجبة طعام خفيفة في منتصف بعد الظهر كتفاحة أو كوكا وغير ذلك من الالتفاتات التي كنّا نقدّر مغزاها أكثر مما نقدر ما فيها من غذاء.

انتهى رمضان منذ أيام، ولم يأخذ «الملاك الحارس» المبادرة

بإهدائنا حلوى العيد الطقسية، وهي حلويات مشبعة بالعسل يسيل لها اللعاب لمجرد ذكرها.

على عتبة إطلاق السراح هذا الذي يعدوننا به عاجلاً، نبقى محتجزين مع ذلك. ولا يمكن أن ننسى. ولكنّ نوايانا بالصلاة تتبدّل. فإلى هذا الأحد الأخير الذي كان يجب أن يهي مرحلة الأزمة الحادة، سألنا الله أن يقينا الأخبار السيئة. من الآن وصاعداً نصلي كي يصل خبر إطلاق السراح! وقد وجدنا نوعاً من الصفاء، رغم سعينا إلى أن نبقى حذرين. إن أزمة الدقيقة الأخيرة قد تحدث، ولا سيما أننا نجهل ما وراء المفاوضات. وبظهور الفرنسيين مستعدين للقيام بكل شيء من أجل تحريرنا، ألن يسعى الخاطفون إلى المزيد والانتقال إلى الدرجة العليا واللعب بالتهديدات؟ نحن لا نستبعد أية فرضية. وحتى اللحظة الأخيرة، ورغم الإشارات الإيجابية يبقى القلق مسيطراً.

نحن نعلم منذ تلك السنوات التي أمضيناها في هذه المنطقة من العالم أنّ الغربيين والشرق أوسطيين ليس لهم المفهوم نفسه للوقت. نعم، إنّ الوقت لا يمر بالوتيرة نفسها في باريس وبغداد. عندما كنا نقوم بنشاطنا كصحافيين، كم من ساعة ضائعة ظاهرياً لقول لا شيء تجلت فجأةً غنية بالمعلومات. وعلينا أن نعرف كيف نظهر بمظهر الصابرين. على السلطات الفرنسية أيضاً أن تدخل

في كشف حساب الساعات والأيّام. على أية ذبذبة تجري الاتصالات بين الأفرقاء؟ من يفاوض؟ هناك وسطاء كثيرون يجب أن يتحركوا. وفريق السفارة يتصدر، بلا شك، الصفوف الأمامية، والخدمات السرية تلعب، بكل تأكيد، دوراً أساسياً. أمّا المقررات فتتعلق بالمراجع العليا في الجمهورية التي ترجع إليها باستمرار السلطات الفرنسية في بغداد. إنّ كل هذه السلسلة من المشاورات، يضاف إليها القدرية المحلية الأسطورية قد تجر الوقت إلى خارج الحدود المعروفة له في فرنسا. وبتعبير آخر، ما يبدو عندنا بلا نهاية قد لا يكون كذلك في الشرق!

ونفكر أيضاً ونحن نرتجف بالتصريحات الفرنسية المحتومة حيث تكون كل كلمة محسوبة ويفسرها خاطفونا في ما بعد. من وجهة النظر الفرنسية وحدها، كم من تعقيدات ومصالح دولة ورهانات شخصية تستر وضعنا كمخطوفين في سجن مظلم في الشرق الأوسط.

أين أصبحت تلك القضية، قضية الحجاب الإسلامي؟ هل ستعود لتقف بوجه تحريرنا؟ حتى إذا استمر محتجزونا يحدثوننا عن ذلك، نحن متأكدان من أن الحكومة الفرنسية لن تنحني أبداً في هذه النقطة، باستثناء السعي إلى إيجاد مخرج مشرف وذلك

من خلال تصريح علني للرئيس شيراك أو لرئيس الحكومة للإعلان عن وعد غامض بمراجعة لاحقة.

ليس بوسعنا سوى الانتظار والصبر على ما نحن عليه والترداد أنّ عدم وجود تهديدات جديدة يعني أنّ الاتصالات مستمرّة على ما يبدو.

لم يظهر سعد مرّة ثانية. ولا يزال «الملاك الحارس»، يؤكد لنا ببعض الكلمات التي يهمس بها الخير. تحسنت ظروف اعتقالنا. فعندما يغدو البرد قارساً، يحملون إلينا غطاءً رائعاً جديداً من القماش المجكّر المستورد من إسبانيا، أمّا العلامة التي هي على الكيس الذي يغلفه فوزنها 7,8 كغ تماماً. هو أزرق فاتح مزيّن بورود كبيرة وسحليات مطبوعة يناسب مساحة فراشينا المقرّبين. تفرحنا النية في ذلك بقدر ما يفرحنا الغطاء. إنّ وزنه ودواعيه وألوانه التي قد لا تعني شيئاً كان لها في نظرنا أهميّة لا متناسقة.

بمساعدة الأمل استعدنا التمارين الرياضية وقد وضعنا حدًا فظاً في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر. إنّ السهر على الشكل الجسماني على مشارف الموت يبدو أمراً ساخراً. أمّا اليوم، وقد عادت الثقة إلينا، فقد حلّت عقدة التمرين اليومي. كريستيان أقلّ مني رياضة. أذهب بالجهد، وأنا ممدد على ظهري، حتى ثلاثمئة تدويسة، أضف إليها نحو عشرين مضخة.

مرّت أيامنا بعد ذلك، بالصلوات والتأمل والمناقشات. أمّا في ما تبقى من الوقت، فقد كنا نتكوّر في فراشنا لأن البرد كان يزداد كل يوم.

كان حرّاسنا، أحياناً، إذا انقطع التيار الكهربائي، فتحوا ستار النافذة لكي يعبر شعاع من النور.

تعاقبت الأيام بلا أي خبر جديد، ولكننا لم نفقد الأمل. وتباعدت زيارات «الملاك الحارس» حتى انقطعت. وكنا تعلمنا معرفة جرس هاتفه النقال، وصوته الأكثر خفوتاً من صوت زملائه.

يستمر كشف حسابنا في اليوم الخامس واليوم السادس... وما نحسبه نافذة الفرصة، حوالى اليوم العاشر، لن يتأخر بالانفتاح. في الوقت نفسه، نعلم أنّ غير المتوقع، إن لم نقل التعسفي، سيسود.

يا للأسف. لسنا على خطأ. فأوضاعنا الغذائية تتراجع من جديد. وباتوا لا يحملون إلينا سوى وجبتين باليوم، منهما فطور اقتصادي جداً يقتصر على تفاحة وقطعة صغيرة من الحلوى وبعض الأيّام، يكون هذا الفطور، بالمقابل، كاملاً تضاف إليه ثمرة. فهل قرروا، مرّة أخرى، أن يتلاعبوا بأعصابنا، وأن يبرهنوا لنا بتفاصيل طفيفة أننا لم نتوصل إلى شيء بعد؟ ويعطينا

الحارس أحياناً قطعة من البيتزا السيئة التي لم تخرج من الثلاجة إلاّ منذ قليل. يتحمّل كريستيان بسيكولوجياً، بصورة سيئة، هذه التغيّرات غير المتوقعة وغير المفهومة. وكلما كان الطعام سيئاً رفض أن يلمسه. في أيام أخرى، في المقابل، يحق لنا بأطباق لا يحمرّ منها طباخنا العزيز «اللحام». بيض مع البندورة والبصل والأرزّ، شاي وخبز وتفاحة. ثم لا شيء حتى المساء طبعاً، نحن لا نطرح أي سؤال. ولا نبدي، بنوع خاص، أي شيء.

في ما كنا ننتظر أخباراً عن تحريرنا، سلّمنا حارس، بلا تعليق، عدداً من صحيفة عربية «البيان» يحررها سعوديون في لندن تشكل أفكاراً إيديولوجية جاهزة مرسلة إلى «الإخوان» في الغرب. وقد مزّق غلافها كيلا يُعرف التاريخ. ولكنّ المضمون سيسمح لنا بتحديد تاريخ النشر: ما بين شباط/ فبراير وآذار/ مارس 2004. المصادفة الأولى هي أنّ المقال الافتتاحي يتناول ادعاءات فرنسا الديموقراطية في ما يخص موضوع الحجاب. وهناك رسم يمثل برج إيفل مترنحاً. قرأ كريستيان النص الذي يعرض بعض الآراء لشخصيات مسلمة يؤيد بعضها هذا القانون ويناهضه البعض الآخر. والمصادفة الثانية هي أنّ كاتب المقال الافتتاحي يشدد على ما يسميه العداء للإسلام في وسائل الإعلام الفرنسية ويرجع إلى تحقيق قامت به «الفيغارو» حول المجموعة

الإسلامية الفرنسية يسمح لها بالتأكيد على تغلغل الجهاديين والمتطرفين في هذه المجموعة:

قلت لكريستيان: هذا ما يخلق الكثير من المصادفات. فأكّد هو بدوره:

أنا لا أظن أن هناك حيلة مخبّأة، ولكنها، على الأرجح، مبادرة منعزلة لحارس شاب، هذا كل شيء، هي طريقة لاستفزازنا أو لإقناعنا.

تعمي الصحيفة دعايتها المناهضة للغرب، وهي تنشر الرؤية الإسلامية لما يجب أن يكون عليه الكوكب على الصعيد الديني. وهناك لازمة: إنّ مسلمي العالم كله يضطهدهم شيطان أميركي أكبر وأعوانه الذين يهاجمونهم من جميع الجهات، ولا يزالون يحوكون المؤامرات لزعزعتهم حتى الهند وآسيا الصغرى قد أصبحتا ميداناً لعمليّات ضد الإسلام. وليست أريتاريا سوى قاعدة أميركية مهمتها مهاجمة السودان، وإلاّ لما تعجب المؤلفون لإمكانية بلد صغير من ثلاثة ملايين شخص دعم حرب العصابات السودانية وتهديد السكان. ويستنكر مقال آخر الحرية الوهمية والديموقراطية الغربية المزعومة. ولدعم آرائه، لا يتردد الكاتب بالعودة إلى العصور اليونانية القديمة، إلى الديموقراطية الخاطئة حيث كانت النخبة وحدها تنتخب، ويُستبعد عن الصناديق

العامّة والعبيد. أدّى ذلك إلى شبه يثير الشكوك مع الولايات المتحدة حيث لا يتشارك في الانتخابات أكثر من 40% من السكان، ويشير ذلك إلى أن الرؤساء الأميركيين ينتخبهم 60% من الممتنعين. وهذا ما يلطّخ انتخابهم ويلقي ظلالاً على مفهوم الديموقراطية. وقد حرّر المقالات مفكرون مسلمون مقيمون في السويد وألمانيا ومراكش ومصر... وصحافيون وأساتذة جامعات.

اليوم هو الثامن والعشرون من تشرين الثاني/ نوفمبر، اليوم المئة لاعتقالنا. ونحن نفكر ببرقية الـAFP. لعلّ هذا التاريخ المغضب يوقظ الضمائر في فرنسا. قبل أن يقع تذكّر هذه الرهائن مغطى بموجة الأحداث اليومية. وانسحب الأسبوع الثاني على الانتظار نفسه كئيباً طويلاً ووصلنا إلى الأحد في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر. أي بعد خمسة عشر يوماً من وعود «الملاك الحارس» وتفاؤلات سعد، دون أن يحدث شيء، يغير في مجرى اليأس. وتستطيل الساعات ونحن نضاعف الصلوات.

كان المحتجزون قد عوّدونا أن الوضع لا يتغير إلاّ ببطء وصعوبة. إنّ «الملاك الحارس» قد قام بمبادرة شخصية عندما راح يؤكد لنا. وباتفاق ضمني كنا نتجنب تبادل الأفكار السود التي قد

تراودنا. وأنا أجهل ما يفكر فيه كريستيان. من جهتي كنت أسائل نفسي عن هذا التأخير الذي لم يشرحه لنا أحد. وكان يقلقني كون الملاك الحارس صار لا مرئياً.

مساء الاثنين في السادس من كانون الأول/ ديسمبر، جاءنا الرجلان بوجبة الطعام. وقدّم لنا أحدهما قمقم شامبوان وصابونة صغيرة:

ـ الأخبار جيدة. صبراً. ولكن، للعودة إلى فرنسا عليكما بغسل الشعر والظهور بمظهر حسن!

أمّا زميله بالكلاشنكوف فقد اقترح علينا رؤية باريس. فوضع جنباً على آخر ودفع حنبي سرواله وعرص بفخر زوجاً من الجوارب المزينة بصورة برج إيفل.

ـ آه! ها هي باريس! وقد سر بروح الدعابة.

وكان الانطلاق بخطاب آخر حمل إلينا الأمل والخوف معاً:

ـ عليكما أن تكونا بهندام حسن عند العودة. عند تحريركما، ستذهبان إلى إخواننا المسلمين ليردوكما إلى الهدى. حذار النسيان.

لم نحاول أن نعارضه بشأن هذه النقطة الأخيرة، وشكرناه بحرارة للصابونة والشامبوان.

وأنار شعاع من الضوء الأخضر الغامز. علينا أن نتحمل

ونثبت. فقد هضمنا تهديد الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر قبل شهر، وأصبحنا أقلّ ضغطاً مما كنا عليه، حتى ولو ظللنا حذرين. واسترجاع محاولة الرد إلى الهدى ليس بدون قيمة، بمقدار ما فضّل حارسانا أن نبقى بلا حلاقة:

ـ بوجود اللحيتين، كما عبّر أحدهما، سيكون لكما مظهر مسلمين حقيقيين. وأضاف: إذا شئتما أقصّ لكما شعركما.

فسأله كريستيان: أتحسن، فعلاً، قص الشعر؟

ـ نعم، وأحسن حتى الذبح!

ضحكنا ضحكة صفراء لهذه المداعبة، حذرين من استفزازهم.

ظهر «الملاك الحارس» من جديد، أخيراً، لأول مرّة بعد ثمانية عشر يوماً، يوم الجمعة في 10 كانون الأول/ ديسمبر.

كان المساء وكنا أوينا إلى النوم. دخل، كعادته، بحذر، وأغلق الباب خلفه، وجاء إلينا بصمت. فجثا بالقرب من فراشينا بغية الحديث بصوت منخفض. فسألته على الفور:

ـ أين أصبحنا؟

ـ يمكن أن تُحررا في أية لحظة.

ـ ولكنْ، ماذا عن المفاوضات؟ أصحيح أنها تتقدم؟

ـ نعم. لقد تقاربت المواقف. إني أكرر لكما

يمكن أن تحررا في أية لحظة . ما إن نتلقى الأمر حتى نطلقكما .
ثم خرج كما دخل . وكدنا نرقص فرحاً . مع أن هذا الحوار يعيدني إلى حوار الخميس في الثالث والعشرين من أيلول/ سبتمبر ، الذي ورد فيه : «يمكن أن تُحررا بساعتين ، بيومين ، بشهرين» .

ولطّفت تفاؤلنا بتذكير كريستيان هذه الجمل :
ـ التأكيد أننا نحرر في أية لحظة لا يعني شيئاً .
ـ موافق ، ولكنّ المهمّ هو الجملة . إنّ المواقف قد تقاربت .

بعد خمسة عشر يوماً الميلاد! وهو نوع من الضياء نتعلق به . بالتأكيد نحن نشعر بكآبة عائلاتنا . كيف تمضي العيد بغيابنا! هذه الفكرة تمزق قلبينا . هم هناك ونحن هنا . . . ولكن ، بالتأكيد ، سيقوم الفرنسيون بكل شيء من أجل هذا اليوم الرمزي .

لم تكن روزنامة تحرير الرهائن يوماً محايدة . وتبقى روزنامة تحرير الرهائن في لبنان ماثلة في داكرتنا ، تلك التي جرت بين دورتي الانتخابات الرئاسية عام 1988 . بالنسبة إلينا ، يبقى الأسبوع الذي يسبق الميلاد وقت الأعجوبة . فأدخلنا هذا التاريخ في صلواتنا .

«يا إلهي إصنع ما في وسعك كي نتحرر في أسرع وقت ونمضي الميلاد مع العائلة» .

مرّت الأيّام وظل استرحامنا بلا نتيجة . فخفّضنا ما كنا رفعناه كرمز . فلم يكن ذلك إلاّ يوماً كسائر الأيام . وسيكون الميلاد هنا أو في مكان آخر . . . فتوقفنا عن الحديث عنه وعن العد العكسي الذي لا معنى له في حساب الخاطفين . فأخذنا بدفع الأمل ، وبربطه بأماني الأمّة . وتخيلنا جاك شيراك معلناً في الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر : أعدنا صحافيينا إلى بلادهما . وكنا ، في الواقع ، نخترع أبواباً للمخرج : إن لم يكن تحريرنا في أول رمضان فسيكون في نهايته وإن لم يكن في الميلاد فسيكون في رأس السنة . . .

ويستمر الوقت في دورانه . ولكن على وتيرة تختلف من الخاطفين إلى المخطوفين .

كانت هنالك صورة تفرض نفسها عليّ : أنا في قاعة ذات مسرحين . المسرح الأوّل يحتله الخاطفون والسلطات الفرنسية تفاوضهم تجاه صالة خالية من الحضور . وكلهم يلعبون دوراً بارعاً عجائبيّاً كأن ميكافيلي قد كتبه ، وفيه لا يُسمع إلاّ القليل لأن أبطال الرواية يهمسون .

أما المسرح الثاني القريب الغارق في السواد فيلاحَظ عليه أو تكاد تلاحظ الرهائن منفصلة عن الأقربين والأهل وعلى وجوههم غمّ طاهر . ومن مسرح إلى آخر ، لا أحد يوجّه كلاماً ،

ولكن محتلّي الخشبة الثانية لا ينفكون يحدقون بقلق إلى ممثلي الخشبة الأولى.

ونصلي صباحاً، بعد الاستيقاظ، كي نتأخر ما دامت الحرارة في الغرفة قد أصبحت مثلجة. ثم حفلة رياضة قبل الاستحمام. وقد توقفوا، غالباً، عن إعطائنا شيئاً من الطعام في منتصف النهار، فاعتدنا الاحتفاظ بشيء من الخبز للأيام التي يعذبنا فيها الجوع. صلاة جديدة. كان آخرها مساءً قبل النوم، ولكنها بالسر، تحت الغطاء. رآنا أحد الحراس نصلي:

ما معنى هذه الإشارة التي ترسمانها على جبهتيكما وعلى أكتافكما؟ لا تعيدا رسمها أبداً!

بعد ذلك، كنا حذرين ولم نفعل ذلك إلاَّ سرًا تحت الغطاء.

السبت 18 كانون الأوّل/ ديسمبر.

انفتح الباب وأطل رئيس الاستعلامات، سعد، ووقعت الجملة المنتظرة طويلاً:

ـ صباح الخير. نحن بحاجة إلى صور ختامية. أنتما قريبان من التحرير.

وأشار إلى كلينا لنقف إلى جانب الحائط. فهمنا من مزاجه أن الأمر يتعلق بشريط التحرير. وقد صورنا بشكل قياسي إناسي، جانبياً ومن الأمام ومن الوراء.

ثم أمرنا أن نمشي ولم يصوّر ما إلاّ السيقان. وقد ردد صوت داخلي أننا نسير في الطريق الصحيح، ولكنا لم نُبدِ أية إشارة رضى. ولم يقدم لنا سعد، مرة أخرى، تاريخاً محدداً رغم حساباتنا في رأسنا: سيتسلم الفرنسيون الشريط عداً الأحد، ويحتمل انفتاح المناسبات بدءاً من الاثنين أو الثلاثاء.

ها نحن في الأسبوع الثالث من المرحلة النهائية ولم يحدث شيء بعد.

يوم الثلاثاء، في الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر عند الساعة التاسعة، وصل «الملاك الحارس»، ومدّ يده بمرآة محطّمة اكتشفنا فيها وجهينا. أعدنا تسريح شعرنا، ثم دخل، بعد ساعة رئيس الاستعلامات مع آلة التصوير. فأدرنا شريطنا التاسع. استمر التسجيل طوال ساعة كاملة.

سحب سعد من جيبه ورقة صغيرة واستعدّ للقراءة:

ـ كريستيان، سأطرح عليك سلسلة من الأسئلة. سأقولها لك، وأنت تعطي أجوبتك، ثم يجيب جورج بالإنكليزية.

وهنا بدأ الاستجواب التقليدي.

ـ كيف عاملوكما؟

ـ عاملونا معاملة جيدة وكنا نأكل كل يوم. ولكنّ الأمر دام طويلاً.

ـ ما رأيكما بالحجاب وبموقف فرنسا من هذه القضية؟

ـ نكرر عداءنا لهذا القانون، ولكننا نذكّر أن فرنسا بلد علماني، وهي تتصرف بموجب الرأي العام. نحن نتجنب الدخول في الحجج الدقيقة، ونكتفي بإسماعهم الخطاب الذي يريدون سماعه.

وفيما كان كريستيان يتكلم، استفدت من وقت التأمل لأبني حججي.

ـ في رأيي، إنّ الإرغام القانوني هو حلّ سيّئ كان المطلوب مزيداً من الحوار، أو التطبيق حالة بعد حالة.

ـ ماذا تقصد «بالمزيد من الحوار»؟

في ثقافة محاوري، إنّ الله هو الذي أمر النساء بالحجاب، ولا مجال، إذاً، لأي جدال. ثم سألنا عن المقاومة في العراق وعن موقف فرنسا. فأجبنا للمرة الألف أن فرنسا ضد الحرب في العراق وضد احتلاله.

ـ ولكنكم حاضرون في أفغانستان. أين هو الفرق؟

قمنا بجهد لكي نشرح له أن الفرقة الفرنسية قد خفّضت وأننا قد فتحنا هناك مستشفى لمعالجة الشعب. ونحن سعينا أن نضع هذا التدخل في إطار ما بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر: تكوّن فرنسا جزءاً من المعسكر الغربي ولا تستطيع إلاّ الانضمام

إلى الولايات المتحدة عندما ظنوا أن المسؤول عن المحاولات الإجرامية هو في أفغانستان .

وأضفت أن السياسة الدولية تقضي بأن تتنازل في نقطة ما لكي تربح نقطة أخرى .

وهذا ما أثار سعداً ليجيب :

ـ في الواقع ، تقول لي إنكم ليس لكم مبادئ. تبيعون أفغانستان بالعراق .

وجدنا أنفسنا في ارتباك . على مقربة من تحريرنا ، لم نشأ أن نخسر عناية سعد بنا . ولكنه غيّر الموضوع مرة جديدة .

ـ أيمكنكما أن تساعدانا في الحصول على السلاح؟

وكان هنا دور كريستيان في لعب دور البهلوان .

ـ اسمع ، نحن صحافيان . نحن نعمل بالقلم وبآلة التصوير ، لا بالأسلحة . لا نعرف إلاّ نقل الرسائل ، ولكننا لا نعرف تجار أسلحة .

ـ أنت يا جورج متزوج؟

ـ أنا خاطب .

ـ أتحب زوجتك؟

ـ طبعاً .

ثم تناول سعد أسئلة أقل بساطة ، فسألني عن الفائدة التي اكتسبناها من الاعتقال .

ـ من الصعب التكلم عن فائدة! لقد قاسينا الكثير من الظروف الصعبة. عدم اليقين! أربعة أشهر ونحن في الانتظار وعائلتانا محرومتان من المعلومات. وتذكّر أنك في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر هددتنا بالموت. من الصعب أن ننسى الظروف التي عشناها.

ـ هذا صحيح. كنتما معرّضين للموت في أية لحظة

ـ أخيراً قطعنا تجربة سنخرج منها وقد ازددنا قوة. لقد أُرغمنا على العيش في الوحدة والعوز، محتجزين في غرفة من بضعة أمتار مربّعة. إذاً، بلا شك، إذا شئنا أن نجد مظهراً حسناً لهذا الاعتقال قلنا إننا نخرج من هذه التجربة وقد كبرنا.

ـ هل كانت المرة الأولى التي تُعتقلان فيها؟

ـ نعم. وهو أمر قاس. فهل سُجنت أنت؟

ـ نعم، في عهد صدّام، ولكنْ لفترة وجيزة.

ساد صمت. ثم غادرنا سعد راضياً، على ما يبدو ثم لم نرَهُ بعد ذلك.

لقد اقترب اليوم العظيم، ونحن مقتنعان هذه المرة. قد يكون الآن، وربما غداً. . .

ولكننا نعرف ذلك بحدسنا وبحسّه.

الفصل السابع

الرؤية من فرنسا

أثناء أشهر اعتقالنا الأربعة، تساءلنا عن الآلام التي كانت عائلتانا تعانيها جرّاء قدرنا.

منذ عودتنا إلى فرنسا، شعرنا، في الوقت نفسه، بحجم التحرك الهائل الذي أثاره اعتقالنا وبالأوجاع التي تحملها الأقربون. وتبادلنا شيئاً فشيئاً الأحاديث والمشاعر مع كل منهم: فعشنا غيابنا مجدداً في نظرات الآخرين، وفهمنا بدورنا آمالهم ومخاوفهم. وفيما كنا نروي لهم مراحل يومياتنا، وتلك الأسابيع بمدها وجزرها التي كانت تبدو بلا نهاية، كانوا هم يروون علينا الأخبار التاريخية الموازية المؤلمة والمختلفة إذ نظر إليها من باريس. لذلك قد تظل الرواية ناقصة ما لم تذكر الساعات الرهيبة التي عاشها أقرباؤنا

في تموز/ يوليو 2004، فيما كان كريستيان في عمّان، كنت مع رفيقتي سيلفيا في عطلة في بريطانيا. وكنا نكمل، كما هي الحال منذ أشهر، بناء مشاريع المستقبل: منذ عام، كانت قد تعهدت بناء بيت في منطقتنا الأم، البوربونية. أمّا أنا فقد قررت

أن أستقر بعدما أمضيت حياتي أذرع الشرق والوقت ثابت.

في أوائل آب/ أغسطس، عدت إلى عمّان ثم إلى بغداد، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وحافظنا أنا وسيلفيا على الاتصال هاتفياً. وكان اتصالنا الأخير في 18 آب/ أغسطس. أحسستُ بالتعب، وقد شعرت بذلك سيلفيا كما شعرت والدتي التي سمعتني على الإذاعة في اليوم التالي. وقد عبرت لسيلفيا في ذلك المساء، كما عبّرتُ لكريستيان، عن رغبتي بتخفيف الوتيرة المرتجفة، وأن نتراجع قليلاً. ولكنّ الصحافيين لا يتغيرون. فإذا برزت مناسبة تحقيق ما، تراهم ينطلقون. بعد ست وثلاثين ساعة، ركبنا سيارة محمد وانطلقنا إلى النجف.

مساء السبت في الحادي والعشرين، اتصل أهلي بسيلفيا. واتصلت الفيغارو لتقول لهم إن إدارة التحرير لم تتلقّ أي نبأ عني منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. هذا السكوت ليس من شيمي، وسيلفيا تعرف ذلك. فجالت في خاطرها في الحال فكرة الخطف، وهي فكرة سوداء سرعان ما طردتها: بالرغم من الوضع في العراق، لا يزال الفرنسيون في مأمن أكثر من سواهم. ومع ذلك راجعت بريدها لعلني أرسلت لها رسالة لم تقع عليها. ولمّا لم تجد شيئاً، بعثت إلي برسالة تطلب مني فوراً شيئاً من أخباري.

يوم الأحد في الثاني والعشرين كثّفت الفيغارو نداءاتها. ولكنْ

عبثاً. وبدأ القلق يتضاعف عند أهلي الذين جنّوا منذ الساعات الأولى. ثم تشابكت الأحداث بسرعة. منذ الاثنين اتصلت الكي دورسيه بعائلتينا وراح مندوبوها في بغداد يبحثون في المستشفيات دون أن يقعوا على أثر لنا.

فانتاب أقرباءنا الشعور الذي كان قد انتابنا قبل ثلاثة أيام: الانكفاء الوحشي في عالم آخر. وهكذا نقلت إلي سيفليا أن المشاعر تتداخل: الخوف يتناوب مع أمل خطأ يصحح سريعاً: يخطئ الخاطفون بالتأكيد، لا يريدون شيئاً من فرنسيين! ما دام محاوروهم من الكيه دورسيه يهدفون إلى تسوية سريعة.

من جهتي كذلك، عند آل شينو، ستتخذ الحياة معنى جديداً. إنّ أخي تييرّي، مصور الصحافة، كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع في منزله الريفي في النورماندي. صباح الأحد، وقد استيقظ باكراً، ولم يكن قد استمع إلى الأخبار مساء السبت، سمع عند السابعة صباحاً خبراً عاجلاً مفاده أنّ صحافيين فرنسيين، كريستيان شينو وجورج مالبرونو قد اختفيا في العراق. وكان متأكداً من أنه لم يسمع جيداً؛ ولا سيما أنّ النشرات اللاحقة لم تذكر هذا الخبر. ولكن، الساعة الثامنة عادت القضية مجدداً. فدعا تييرّي، على الفور، رينو برنار الذي يعرفه جيداً، وهو صحافي في الدار نفسها:

ـ لا بدّ أنك تسلمت برقية عاجلة عن اختفاء أخي وجورج مالبرونو في العراق. هل لديك من مزيد؟.

ـ سأهتم بالقضية وسأتصل بك.

ازداد قلق تييرّي واتصل بصحافي آخر من الدار نفسها:

ـ حتى الآن، لا شيء يسمح بالكلام عن الخطف. ربما كان العطل في بطارية هاتفهما، أو كان هنالك عطل تقني آخر.

ـ أنا أعرف أنه في الإذاعة هناك نقاط يجب أن تقوم بها في ساعات محددة من أجل الصحف. فالذي لا يعطي أنباءً منذ ثمان وأربعين ساعة يشكل أمراً غير طبيعي. ثم، هاتفان معطلان في الوقت نفسه... ! وما لبث أن أعاد السمّاعة حتى دعاه رينو مرنار:

ـ لقد تأكد الاختفاء. لا نعلم أكثر من ذلك. علينا الانتظار.

اتصل تييرّي، في الحال، بوزارة الخارجية آملاً أن يعرف المزيد. وبعد بضع دقائق ردّت عليه عاملة القسم التلفوني:

ـ نعم، إنّ دوائرنا على علم، ولكنْ، حتى الآن، لا يملكون أية معلومة دقيقة. اتصلوا بنا بعد الظهر.

وقطعت الخط دون أن تسجل رقم هاتف أخي.

وعلمت بالخبر أمّي التي كانت تمضي عطلتها في ناحية نوار موتيه بواسطة نشرة الساعة الثامنة. فاستنفرت، في الحال،

زوجها وأحفادها الذين ما زالوا ينامون، في هذا الوقت، اتصل بها تييري. وكان مدير إذاعة فرنسا الداخلية قد اتصل به قبل قليل ليقول له إنه فقد كل اتصال معي منذ يوم الجمعة. فحاولت أمي، مدعورة، الاتصال بهاتفي النقال ولكن دون جدوى. ثم بمنزلي بعمّان، ولكن عبثاً، بالطبع.

أمّا أختي آن ماري، فقد كانت تواجه، في هذه المرحلة مشكلة قاسية. فقد تعرض زوجها لحادث كشاف قبل ذلك بأيام، وكانت في ذلك الوقت تواجه مشاكل مع إدارة المستشفيات. فيما كان طفلها ابن الشهر بحاجة إلى وقت وعناية. لذلك، يوم الأحد، في الثاني والعشرين من آب/ أغسطس، عندما ترك لها تييرّي رسالة على مجاوب هاتفها لتتصل به لقضية ملحّة، لم تخطر ببالها قضية أكثر إلحاحاً من زوجها. ولكنها عندما علمت باختفائنا لم يكن بإمكانها أن تصدق: خطف... على يد إسلاميين عراقيين متطرفين!

ستدوم هذه الحيرة عدة أيام ولم يعطِ موظفو الكيه دورسيه إلاّ معلومات غامضة: وانطلقت دوائرهم في كل التحقيقات الضرورية. طلبوا إلى الأميركيين أن يتحققوا من كوننا لم نُخطف خطأً. ظلت عائلتانا غارقتين بالشك: هل جُرحنا؟ هل احتجزنا لصوص؟ هل وصلنا إلى النجف حيث لا يمكننا الاتصال؟

بالنسبة إلى تيري بات الشك غير مقبول. لا يتبخّر صحافيان وسيارة وسائق دون أي أثر، إلاّ استحالة الخطف. رأت وزارة الخارجية، بمرارة، أنه على حق، وبدأت تطرح هذه الفرضية الثلاثاء أو الأربعاء.

يوم السبت، في الثامن والعشرين من آب/ أغسطس، اتصل مسؤول من الكيه دورسيه بعائلتينا ليؤكد لهما الخبر. يبدو أنّ الحل قريب على ما طمأنهم. قد تكون هوية الخاطفين قد عُرِفت: متدينين إسلاميين سلفيين متطرفين. ذاك المساء، للمرة الأولى، تناولت أختي العشاء مع أمّي التي انضمت إليها قبل بضعة أيام في إيفري، وهما تسعيان إلى شيء من الصفاء. أمّا تيرّي فقد عاد بصحبة روجته وأولاده إلى منزله النورماندي فيما عاد أبي إلى بوجيه.

عند الساعة الثانية والعشرين والنصف، أدارت آن ماري وأمّي التلفزيون لمتابعة أخبار جريدة المساء المتلفزة على شاشة فرنسا. أعطى الصحافي الفرنسي الصورة لمندوب الجزيرة الذي أعلن عن البث المباشر لشريط يتعلق بنا، فظهرت أنا على الشاشة، مُلقياً نصّي، كما فعل جورج ذلك بدوره. ثم أثار الصحافي الفرنسي موضوع الحجاب، وهو الموضوع الذي اكتشفنا وجوده بعدما أُطلق سراحنا. واستنتجت أختي وأمّي

بسرعة أنّ فرنسا لن تلغي قانوناً بثمانٍ وأربعين ساعة. يجب العمل وإيجاد حل وتحريض أعلى السلطات في الدولة. طلبت آن ماري الإيليزيه بلا تردد، لتتكلم مع حاك شيراك. كانت المسيرة تبدو بريئة في هذه المرحلة من المغامرة، ولكنْ يجب العمل بلا انفعال. وكانت تعزية تافهة عندما وعدت عاملة الهاتف إيصال الرسالة إلى الرئيس.

ثم اتصلت هاتفياً هلا، الصحافية المصريّة القريبة جداً من العائلة. وهي أيضاً، كانت قد شاهدت الصور على الشاشة وتشوّشت. ثم انضمت إلى أمي وأختي وراحت تترجم لهما باستمرار الأخبار التي كانت تبثها القنوات العربية وتلتقطها آن ماري بواسطة الأقمار الصناعية. ووصل تييرّي بدوره. أمّا والدي الذي دوخته هذه القضية، فقد ترك بوجيه منذ اليوم الثاني لينضم إلى إيفري. سيتابعون كلهم، ساعة بساعة المعلومات الواردة على شاشة قناة فرنسا الداخلية وأوروبا، ويشاهدون الجرائد المتلفزة في انتظار أقلّ صدى.

من جهتي، في ما يتعلّق بآل برونو، إنّ وزير الخارجية لديه الوقت الكافي ليُعلم سيلفيا قبل بث الفيديو، وحالة الإحباط التي أدّى إليها هذا الشريط أثار أزمة قلق عند ابنتها ذات السنوات العشر. جاء والدها، في ما بعد، يبحث عن الطفلة ليبعدها عن

الجو المأسوي الذي كان يرتسم منذ يوم الاثنين، في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس، سألت سيلفيا ربّ العمل أن تتوقف عن العمل؛ وهكذا يمكنها أن تتفرّغ لوالديّ اللذين يسكنان على مسافة خمسة عشر كيلومتراً عنها حيث ستمضي معهم معظم فترات بعد الظهر.

بالنسبة إلى ذويّ وإلى كثير من الأشخاص كان الانتظار ثقيلاً واللافهم كاملاً. رأى أفراد عائلتي ألماً في تبادل الأحاديث فانطوى كلّ على غمّه. كان والداي غارقين في اضطراب تام. وتسلّط عليهما سؤال: كيف يمكن فرنسا أن تفاوض في مثل هذه الأوضاع؟ وها هو المخطوف الإيطالي قد أُعدم لتوّه، وهذا ما يكبح الأمل.

يوم الاثنين، نظّمت آن فيريه، مختارة مونتفيه ـ إن فوريه التي رافقت والديّ في ما بعد لدعمهما وحمايتهما من ضغط إعلامي، تجمعاً لدعم قضيتنا، شارك فيه من ثلاث إلى أربعمئة شخص. انضم إليه والداي مع سيلفيا التي قرأت رسالة موجهة إلى الخاطفين تدعوهم فيها إلى عمل إنساني:

نهاركم سعيد،

أنا اسمي سيلفيا أنا رفيقة جورج مالبروسو. أعرف كريستيان شينو الأقربون من جورج، في عائلته، وأنا نفسي ننقل تعاطفنا العميق

نعبّر على شكر المثلين السياسيين عن كثب لمبادرة التجمع هذه، وممثلي المستويات العليا في الدولة لتحركهم متوافقين، وكذلك الإلحاحات الدينية الإسلامية العالمية لوحدتها في سبيل تحرير صديقينا، وشكراً لمستخدمي جورج وأصدقائه لمرافقتنا في هذه المحنة

كثيراً ما يردد جورج بالعربية "هذا مكتوب"، هذا هو القدر. ولكنّ القصة التي نعيشها اليوم ليست قصة جورج وكريستيان، ولا قصتنا، ولا قصة فرنسا التي لا يمكن الصفية أن تقحم هويتها الديموقراطية.

أنا لست مؤمنة. ولكنني كنت دائماً متأثرة بقدرة الأديان على جمع الشمل تمالك، أستعيث بقدرة الديانة الإسلامية لتتابع التأثير فينا كلنا إيجابياً.

أحرؤ على أن آمل أن يتذكر الخاطفون روابطهم الأولى، روابط الحس البشري.

فسبحتي هي هذا العقد جاء بها لي جورج من بغداد ليست تذكار عطلة، ولا تذكار حرب. إنما هي مادة من منطقة تأثر بها جورج وصديقه كريستيان منذ عدة سنوات.

منطقة وشعب يحترمانهما احتراماً عميقاً

فليستمرا، اذاً، شاهدين!

رسالة سيلفيا، رفيقة جورج مالبروسو، التي قُرئت يوم الاثنين في 30 آب / أغسطس 2004 في أثناء تجمع الدعم.

في ذلك المساء نفسه، كانت العائلة تشاهد التلفزيون مشدودة الأعصاب. فالساعات الثماني والأربعون قد انقضت، وهي تحاف إعدامنا. فجأة، عند الساعة الثالثة والعشرين كان حادث مفاجئ بثت قناة الجزيرة شريطاً ثانياً يؤجل الإنذار. يا له من انفراج! اتصل تييرّي شينو وآن ماري فوراً بالكيه دورسيه الذي لم يهتم بإعلام العائلتين بهذا الشريط المبثوث على قناة عربية.

عند آل شينو يستبد الخوف المؤلم من ألاّ تكون السلطات الفرنسية قد أخذت بعين الاعتبار اضطراب العائلتين. بالرغم من انتظام نداءات وزير الخارجية وصفات بعض المحاورين، ومن بينهم بيار فيمون، مدير ديوان الوزير ميشال برنيه الذي بدا دائماً متنبهاً رقيقاً، لن يختفي الشعور بالحيرة أبداً. مع ذلك، مع شريط 28 آب/ أغسطس، تكثفت الاتصالات. كان تييرّي أو آن ماري على اتصال بمسؤولي الكيه دورسيه مرّة أو مرتين كل يوم. وهؤلاء شرحوا لهما موقف فرنسا والأعمال التي يقومون بها. وأخبروهما عن انطلاق ميشال برنيه، يوم الاثنين، إلى الشرق الأوسط.

بالنسبة إلى عائلة مالبرونو، كان أخي برنار وسيلفيا هما اللذين يتناوبان على إعطاء والديّ معلومات الكيه دورسيه التي يثقان بها. عرف أعضاء خليّة الأزمة مدى اضطراب ذويّ،

فراحوا يتصلون عدة مرات في الأسبوع ويظلون حذرين. فهمت سيلفيا جيداً هذا التحفظ الذي كلفها قلقاً متعباً. كان عالم النفس المكلّف في الكيه دورسيه عوناً لها.

في أسرة شينو، كان أخي وأختي تييرّي وآن ماري في الوضع نفسه: عليهم نقل المعلومات والصلاة كيلا نسمع أنباء كوارث.

بغية استباق الأمور، أصرّ تييري، عدة مرّات، لدوائر الكيه دورسيه:

ـ أمّي وأهلي مسنّون، فلا أحب عند الإنذار القريب، أن أرى أخي على شاشة التلفزيون ورأسه يقطع. حاولوا أن تنبهوني بالأفضلية.

ـ نفهم طلبك جيداً. تأكّد من أننا نعمل دائماً على احترام العائلات.

بعد يومين أو ثلاثة، بثت الجزيرة شريطاً ثانياً: أنا اسمي كريستيان شينو، إلخ. نرفز تييري ففتح الخط وطلب الموظف الكلي الإدراك.

ـ أنت على علم بالشريط؟

ـ أي شريط تقصد؟

منذ الأيّام الأولى لاحتجازنا، أخبر الكيه دورسيه ذوينا عن وجود خليّة أزمة. ولكنْ، ما معنى هذا التعبير؟ هل يعني تعبئة

حقيقية من أناس يتناوبون أربعاً وعشرين على أربع وعشرين ساعة لمتابعة الاستعلامات؟ هل يعني شخصين أو ثلاثة مهمتهم الوحيدة هي أن يرددوا على العائلات أنّ كل شيء على ما يرام وأن يستمروا بالثقة وأنّ السلطات الرسميّة تسيطر على مجرى الأحداث؟ ميراي ـ لي مارسكيه المسؤولة في دائرة «العالم في الإعلام الفرنسي» والمتابعة القضية منذ البدء، فهمت بسرعة سير عمل «خليّة الأزمة» هذه. كل مرة استطاعت، كانت تستعمل شبكاتها الخاصة للمعلومات، وتتصل سفارتنا في بغداد وبمحاورين آخرين. كانت تساعد تييري ما استطاعت في بحثه عن المعلومات. أمّا بقية أسرة شينو فكانت متكتمة لا تريد الظهور في الإعلام لتعرض ألماً يتعلق بالجو الخاص.

علناً، لم يكن الجميع يُظهر التحفظ نفسه لأنّ هذا ينرفز العائلة في الواقع، عداة الإنذار أعلن جان فرنسوا كوبيه في صحيفة الموند أنّ القانون المتعلق بالحجاب لن يُلغى. لماذا يدلي الناطق الرسمي باسم الحكومة بتصريحات تختزن الثقيل من النتائج؟ كان بالإمكان التعبير بمزيد من الدبلوماسية عن وجهة النظر الرسميّة مع تجنّب الرد حرفيًا على إنذار الخاطفين... أمّا آن ماري السريعة بالصعود إلى الشرفة، فاتصلت فوراً بماتينيون لتعرب عن ذهولها للمساعدة الشخصيّة لجان بيار رافارين.

كانت نهاية الإنذار في ذلك المساء نفسه، ولم يكن صب الزيت على النار هو الطريقة الفصلى في مثل هذا الوقت. اتصل رئيس الحكومة نفسه بعد ربع ساعة. أكّد أنه تسلم الرسالة خمسة على خمسة وأنه سيسهر على منع حصول مثل هذا الخطأ ثانيةً. وقدّم جان فرنسوا كوبيه نفسه اعتذاره بعد يومين.

في 13 آب/ أغسطس جرى، في الجامع الكبير في باريس، أول اجتماع دعم أعلنت فيه مختلف الاتجاهات في المجموعة الإسلامية الفرنسية استنكارها لاختطافنا. وبسبب الحماسة للموضوع، حضرت العائلتان صباحاً للمشاركة.

عند آل مالبرونو، كان والداي يتحملان بصعوبة الأحداث. وكان برنار وسيلفيا يمثلانهما. جراء أوقات الانفعال الذي عاشته، ونتيجة الإرعاج الإعلامي الذي تلقته، لم تكن رفيقتي مستعدة لنسيان ذلك النهار. جاءت سيارة المديرية، بمواكبة رجال الأمن، لنقلها إلى بيتها، ولنقل أخي وزوجته إلى باريس بأقل من ثلاث ساعات. بانتظار الرسميين أجلسوهم على كراسي بمواجهة المصورين. كانت عائلة كريستيان أكثر حظاً: وصلت في الوقت نفسه الذي وصل فيه الموكب الوزاري فلم يفطن لها أحد. دومينيك دي فيلبان، وزير الداخلية وممثلو المسجد ألقوا خطابات لم تسمع منها سيلفيا في الصف الثاني إلاّ

القليل. ولم تحفظ إلا الأضواء المهدئة التي كانت تغمر صحن الساحة. ثم دعوا العائلتين إلى عرفة مجاورة حيث استقبلهم الرسميون والمسؤولون المسلمون بالشاي والنعناع التقليدي والحلويات.

في صالة صغيرة، تقدّم والدي جان شينو من دوميبك دي فيلبان كما يتقدم طالب باحترام من أستاذه.

ـ سيدي الوزير، لديّ شيء أطلبه إليك: تعلم أني رجل مسنّ وقد شبعت من الحياة، لذلك اتساءَل إذا كان بالإمكان أن أذهب إلى هناك، وأحلّ محلّ كريستيان.

كانت لحظة تأثر أمام هده البراءة ثم رد الوزير بمجاملة:

ـ أفهم مسعاك يا سيّد شينو. ولكني أخاف أن يكون هذا غير ممكن للتنفيذ فلا تغيّر مبادرتك الكريمة شيئاً في مجرى الأحداث.

كانت عائلتانا تستمعان كمشاهدين عجزين عن السيطرة على الأحداث لا تمارس سيلفيا أية ديانة وليست مؤمنة. لكنها تتعلق بالرموز. لم تكن، في تلك الفترة، تترك العقد الذي جلبته لها من بغداد، وكانت تضع صورتي على وسادتي بالقرب منها عند النوم؛ ولكنها لا تصلّي. وكما فعلت من مكان احتجازي، كانت تعطي نفسها، كل يوم، بعض الوقت للاتصال بي.

في عائلتي، إنّ أفراد أسرة شينو، في المقابل، هم مؤمنون

يمارسون حسب تقليد قديم. صلّت أمّي كثيراً من أجلنا. كل يوم أحد، كانت تطلب قداديس في بوجيه. وعندما علمت أني كنت أصلّي من أجلهم جميعاً، جمعنا التأثر بصورة أكبر.

منذ الأسبوع الثاني لإعلان الخطف، تعمّم التحرك وتضاعفت نداءات الشخصيات الوطنية والعالمية.

فالبابا وعرفات والقذافي وحماس أو الجهاد الإسلامي اتخذوا كلهم موقفاً صريحاً في سبيل تحريرنا. والأقربون ما تراجعوا. وكانت وسائل الإعلام باستمرار تتعاقب على رسائل الدعم، دون أن نعرف أيّ شيء.

واجتمعت فرنسا بكاملها بواسطة اتحاداتها وشخصياتها وسكانها... وأحياناً مع أعمال تبدو لنا اليوم مفرطة كما شعر بذلك ذوونا. اتصل، ذات مساء، روبير مينار، رئيس مراسلين بلا حدود بتييري:

ـ سنعلّق صورتين عملاقتين لكريستيان وجورج على واجهة فندق المدينة Hôtel de Ville de Paris.

ـ فكرة حسنة، وليكن ذلك معتدلاً.

الصورتان هائلتان. تصدمان الرأي العام، على الأقلّ.

بعد فترة، ارتسمت في الأفق عمليّة إعلامية جديدة. سيكون هناك تركيبة يظهر عليها صحافيان، نجما الساعات العشرين،

بشعر طويل ولحيتين طويلتين، وإلى جانبهما شعار: «ما داما رهينتين، فنحن كذلك».

إنّ معنى الرسالة قويّ ولكنّ ذويا رأوه قابلاً للنقاش ومضخماً. ثم وافق كل منهم بسرعة وتوقف الكلام على المشروع

في الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر، استقبل جان بيار رافارين العائلتين في ماتينيون. كل يعتقد بوجوب الدعوة إلى عمل إنساني، وبأن المحادثة لن تطول. وفي الواقع، انسحب النقاش على مدى ساعتين. عرض رئيس الحكومة الصعوبات التي تواجهه لإقامة اتصال مباشر مع الخاطفين ولا سيما في بلاد تسودها الفوضى والبلبلة. ولكنه، شاء، رغم ذلك، أن يضفي في ثقته وأن يبدو متأكداً تجاه ذوينا. حسب معلوماته، لم نكن نعامل معاملة سيئة، وكانت ظروف اعتقالنا صحيحة إلى حدّ ما..

بعد خمسة عشر يوماً، وفيما كانت آن ماري عائدة من زيارة أهلي، تلقت اتصالاً هاتفياً من جان بيار رافارين على هاتفها المحمول، يؤكّد لها فيه أننا نسير على الطريق الصحيح. وليسند معلوماته قال لها إنّ المخطوفين الإيطاليين قد أطلق سراحهما في 28 أيلول/ سبتمبر.


AZZAMAN.COM

شهادة حياة بعد قصية حوليا نسحة من اكبر صحيفة عراقية مؤرخة في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، وعليها توقيعا المخطوفين بيديهما

عشية ذلك اليوم، استعاد القنصل الإيراني حريته. كان يحتجزه الفريق الذي يحتجزنا نفسه. في تلك المرحلة، أصبحت شائعات عودتنا ثابتة، إلى درجة أنّ تييري، في منتصف أيلول/ سبتمبر أقام أسبوعاً في الأردن، حيث يلتقط صوراً لوكالة الصحافة سيبا. والهدف المنشود هو أن مسؤوليه شاؤوا أن يكون مطلعاً على الأمر عن كَثَب، وأن يكون حاضراً لالتقاط صور لنا ولمرافقتنا في طريق العودة، مع الوزير الذي سيأتي، بدون شك، لاستقبالنا في عمّان.

التقى تييري هناك الكثيرين من أصدقائنا، ومن بينهم عالم نفس غريب يستعمله الكيه دورسيه في الأزمات وكان هو أيضاً ينتظرنا. عالم النفس هذا عسكري متعلق بالإدارة، لا يدلي بأحاديث مؤكدة:

ـ ربما يُعاملان معاملة سيئة، ربما سيعودان هزيلين، عليكم أن تستعدّوا.

ـ أن أستعد، إني أفضل الأمل على الأسوأ.

شائعات عودتنا كانت تطير بسرعة بعد أن كرت، وعاد تييرّي إلى باريس.

بعد بضعة أيام انفجرت قضية تحرير فاشلة على مدى آخر. بالنسبة إلى آل مالبرونو كانت سيلفيا هي التي تلقّت الخبر

وهي وراء مقود سيارتها. اتصل بها صحافي من الشرق الجمهوري l'Est Républicain وسألها عن ردّة فعلها على تصريح ديديه جوليا النائب الذي ادّعى أنه سيخرجنا، كريستيان وأنا، من خليّتنا. فلم تفهم شيئاً من الموضوع. وراحت تشرح له عبثاً أنها ليست على علم بشيء، لأنها كانت في اجتماع كل النهار. وقد أصرّ وسألها أن تستعلم لدى الكيه دورسيه، ثم تتصل به وتخبره. عادت إلى بيت أهلي الذين بدورهم تلقوا مكالمات كثيرة بالهاتف من وسائل الإعلام.

جريدة من عشرين ساعة. صور مأخوذة عن العربية... من الشرق الأوسط شرح فيليب برت أنه كان يتأهب لإعادتنا إلى بلادنا. فكيف الركون إلى هذا التصريح؟ بالنسبة إلى أهلي بدت هذه القصة غير جديرة بالتصديق. أمّا سيلفيا فلم تصدّق الرواية فقط، بل تخوّفت منها. لعلّ هذه البلبلة تطيح المفاوضات السرّية على حد قولها.

منذ اليوم التالي. ظهر ديديه جوليا على المسرح. وهذا الثنائي ما كان يروق ذويّ على الإطلاق. إنّ الدوائر السرية، بالتأكيد، لا تتواصل مع العائلات، ولكنّها، على الأقلّ، لا تقع في الإسراف المعاكس لتتبختر أمام عدسات التصوير للعب عرض حقيقة مرّ!

في عائلة شينو، كان تييرّي هو أوّل من أُخبر بواسطة أحد

أصدقائه الصحافيين

هل أنت على علم؟ فيليب برت، رسول جوليا، قد يعيد أخاك جورج.

اتصل تييري بميراي لي مارسكيه، التي لم تصدّق كلمة من كل ذلك.

ولكن الآلة قد انطلقت باحتدام. وكان الهاتف يرن باستمرار. رفاق. أصدقاء...

اتصلت آن ماري بيار فيمون في الكيه دورسيه، فأعلمها هذا الأخير أنّ السلطات الرسمية مطلعة على مجرى الأحداث، ولكنّ القضية قضية مسار شخصي لا تستطيع الحكومة بصورة من الصور أن تضمنه. وأشار عليها ببقاء الأرجل على الأرض. ورغم كل شيء، أرادت أمّي أن تصدّق ذلك. والأحداث المتسارعة غذّت آمالها.

في اليوم التالي، طار ديديه جوليا إلى دمشق عن طريق بيروت. يوم الجمعة، أكد فيليب برت على شاشة أوروبا 1 أنه على مسافة عشرين متراً منا. ثم، بسرعة أعلن ديديه جوليا أن موكب فيليب برت قد اعترضه الأميركيون، وكان تبادل لإطلاق النار...

أصبح السيناريو من الخيال بحيث نفّس تلقائياً.

التاريخ: الاثنين 4 تشرين الأوّل/ أكتوبر؛ الساعة 12 و30 د و32 ث.
من: آن ماري ليبريره
الموضوع نصوص عائلتي شينو مالبرونو
إلى: أود ـ غوبل ـ ديوان جان بيار رافارين.
أود، أشكر لك أن تنقل إلى رئيس الحكومة البريد التالي

بمحبة
آن ماري

إلى جانب السيّد رئيس الحكومة،
نطلعكم على الرسالة التي وجهاها اليوم إلى الـ AFP
نشكركم ونتمنى عليكم أن ترهفوا حسّ الرأي العام لدى مختلف الأحزاب باستعادة الرسالة المبثوثة من أجل الوحدة الوطنية التي يجب أن ترجح في مثل هذه الحال.

بمحبة
آن ماري شينو لي بريره

التاريخ. الاثنين 4 تشرين الأول/ أكتوبر 2004؛ الساعة 12 و21د و33 ث
من: آن ماري لي بريزه
الموضوع: نص عائلتي شينو مالبرونو
إلى: شانتال فاليت AFP
«نتيجة محادثتنا، هذا هو النص الذي نتمنّى بثّه.
بمواجهة الوضع القائم، تسأل عائلتا شينو ومالبرونو مجموعة الشخصيات الممثلة الفرنسية عدم الدخول في مشادات قد تزعزع الإجماع الوطني ويكون لها بالتالي مضاعفات على تحرير كريستيان وجورج ودعوا إلى المسؤولية والكتمان لكي تستأنف المفاوضات في جو الهدوء الذي تحتاج إليه».

بمحبة،
آن ماري شينو لي بريزه

فجأة سيطرت شخصيات عديدة على الوضع. يوم الأحد في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر اتهم فرنسوا هولاند وسيغولين رويال الحكومة بعدم المحافظة على رعاياها. وتوالت التصريحات واستعرت الحرب الكلامية. صباح يوم الاثنين، اتصلت آن ماري بتييري لإيجاد طريقة توقف هذا الانحراف السياسي في قضية اعتقالنا هذا ما أصبح لا يُحتمل بالنسبة إلى العائلتين. كانت كلتاهما تحضران تصريحاً تزنان كل كلمة من كلماته. معنى طلبهما واضح: يجب الظهور بجبهة موحّدة، لأن الحرب الكلامية لا تفيد إلاّ بإضعاف مصير المخطوفين.

وبعد التنسيق مع أسرة مالبرونو، أرسلوا برقية بواسطة الـAFP.

حول هذه المرحلة، من أجل وضع وسيلة اتصالات أكثر اعتدالاً وأكثر فعاليّة وأكثر إنسانية، أوحد زميل لتييري، صديق جورج، المصوّر أندريه ديران، موقعاً على الأنترنت لهذه القضية. وهكذا يمكن كل شخص أن يستعلم مباشرة وأن يبعث برسائل تعاطف. ومن يدري؟ ربما يدخل على هذا الموقع الخاطفون أنفسهم للاتصالات!

ابتداءً من منتصف تشرين الأوّل/ أكتوبر بدأت عائلة مالبرونو

تشبع، أحست سيلفيا أنها وحيدة بالرغم من الدعم الآتي من بيار روسلان من الفيغارو، وجوزف ليماني من غربي فرنسا وفلورانس وفانتان من عمّان، ومن أصدقاء حورج الإنسانيين. كان لديها شعور بأنّها تعطي كل شيء من الوقت والشرح إلى الطاقة والأمل.

لحسن الحظ، لم تستأنف عملها إلاّ بنصف دوام.

في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر، وحد الجيش الأميركي محمد الجندي في الفلوجة. فعاد الأمل إلى النفوس.

ولكن، في ما يتعلق بالكيه دورسيه، فقد كان ينظر إلى الحدث بعين النسبية، لأن الوزارة أوضحت للعائلتين، أنّ محمداً لم يبقَ معنا أكثر من خمسة عشر يوماً.

في أثناء اجتماع باريس الذي أفسح المجال أمام أقربائنا لالتقاء سائقنا والتحاور معه، قدّم لهم ميشال بارنيه شهادة حياة مؤرّخة في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، على الصفحة الأولى من الجريدة المشهورة حيث طلب إلينا حرّاسنا أن نكتب توقيعنا فكانت هذه بارقة أمل بالنسبة إلى ذوينا الذين كانوا، منذ قضية جوليا، يرون الأجواء تكفهرّ.

استعادت سيلفيا قواها شيئاً فشيئاً. لذكرى أيام احتجازنا المئة، في الثامن والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، قررت استجابة طلب فرنسا 3 لإجراء تصريح.

إنّ الشائعات التي كانت تنطلق من هنا ومن هناك مشرة بتحريرنا قبل الأعياد لم تنجح في تهدئتها.

على أثر تصريح جان فرنسوا كوبيه وشخصيات أخرى، كانت للعائلتين ردة فعل، وقد نشتا بياناً يطالب المسؤولين السياسيين بالمزيد من الكرامة. آن ماري شيو أرسلت نسخة منه إلى رئيس الحكومة.

لم تعد تؤمن بفضائل الميلاد أكثر من إيمانها أو بمقدرة ديديه جوليا: هي لا تعتقد بالعجائب! كيف لمسلمين متطرفين أن يأخذوا بعين الاعتبار عيداً مسيحيّاً؟

بعد أن عاشت الأمل طوال شهر أيلول/ سبتمبر، ثم استسلمت للانتظار الصبور خلال تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر، اعتادت فكرة عدم إطلاقنا قبل نهاية السنة.

كانت تفكر بالهدايا لابنتها، وتتمنى، بالطبع، وحلقها مضغوط، أن يسجّل الميلاد العثور علينا.

كانت الرسائل، في ذلك الوقت، على موقع الأنترنت، تصل بالعشرات. كلها تتمنى تحريرنا في نهاية السنة.

بتبادل الآراء مع روبير مينار وأندريه ديران وتييري وآن ماري، كانوا يفكرون بأعمال تحمل رموزاً أكثر من مشاهد:

صلوات يشترك فيها مسيحيون ومسلمون، مع شموع تضاء في النوافذ.

غدا التوتر العصبي غير محتمل. يوم الجمعة في 17 كانون الأول/ ديسمبر، اتصلت آن ماري بميشال أليوت ماري الذي لم يعطها شيئاً من الأخبار الجديدة، ولكنّ جان بيار رافارين اتصل بها بعد عشرين دقيقة

لا تقلقي. كل ما أقوله لك هو أننا على الطريق الصحيح. قرّر الخاطفون إطلاق كريستيان وجورج. لا نعرف حتى الآن لا أين ولا متى ولا كيف، ولكن ذلك وشيك.

لأول مرة تعطي سلطة مختصة أملاً قابلاً للتصديق!

في 21 كانون الأول/ ديسمبر كان تييري في وزارة العدل لجلسة تصوير مع وزير العدل، دومينيك بربين الذي كان يستقبل مسؤولي نوادي كرة القدم للبحث في مسألة العنف على الملاعب. انتهى الاجتماع. جلس تييري بعض الوقت في غرفة الانتظار، تحت الزخارف. رن هاتفه. وإذا بأحد الزملاء من الأسوشييتد برس ينبئه:

ـ وصلت برقية عاجلة. قد تكون رهينتان فرنسيتان قد أطلقتا!

ـ رهينتان فرنسيتان؟ هل معك الأسماء؟

ـ لا، لا يضيف النص أي تحديد.

ـ على كل حال، ليس في العراق من الفرنسيين خمسون رهينة.

انتهى الاتصال. وكان وقت الاتصال بالكيه دورسيه حيث لم يقرأ أحد البرقية العاجلة، ثم رنّ الهاتف ثانية. هذا هو ميشال بويون، مدير ديوان رئيس الحكومة:

ـ أنا حريص على إبلاغكم أنّ أخاك وجورج قد أطلق سراحهما منذ وقت قصير. والنبأ أصبح رسميّاً.

الساعة هي 17 والدقيقة 25 من 21 كانون الأوّل/ ديسمبر لقد زال الكابوس.

في منتصف فترة ما بعد الظهر، اتصلت سيلفيا بـAFP، لتضبط، آن ماري، الرسالة التي تتمنى نشرها بمناسبة الميلاد. اتصل بها محدثها مرة ثانية ليقول لها بنبرة مطلقة:

ـ هناك نبأ على الـ A.F.P. يشير إلى أن الرهينتين قد أطلقتا. هل من جديد وصلك من الكيه دورسيه؟

ـ لا.

ـ هم على علم بذلك.

كم من الشائعات الخاطئة طوال هذه الأسابيع...

لم تعد سيلفيا تثق كثيراً بأسرار الصحافة

أنهت أشغالها وشعلت هاتفها النقّال. عشرون رسالة! كلها من الإعلام، وبنهاية المطاف الكيه دورسيه:

ـ نعتقد أنّك على علم، على كل حال، نؤكّد الخبر الجديد. سيكونان في باريس غداً.

هي مرهقة. عبثاً قد أُعلمت: «عندما يُحرر، سيكون الاستعداد للقتال، حاولي أن تحمي نفسك»، فأحسّت أنها ضعيفة مجرّدة. وصل أخيراً اليوم المنتظر، ويجب أن ينطلق الجهاز. أسرعت إلى أهلها تستعيد ابنتها، فإذا بهم كلهم غارقون بالدموع. فاتخذت وقتاً من الهدنة قبل أن تجيب الصحافيين.

ومضات التصوير ملء العيون، وهي مغتبطة: لقد نجا.

لقد نجيا!



تحقيقنا المضاد

أنهكتنا مئات الأسئلة منذ بداية خطفنا، بعضها نال الأجوبة على مدى أسابيع اعتقالنا، وما انفك بعضها الآخر يطاردنا، تتعلق بطبيعة المساومات التي أُجريت مع فرنسا وكذلك بالأعمال السرّية، وبدور بعض الشخصيات الشرق أوسطيّة، وبكيفية تحريرنا. هكذا، بعد جمع شهادات عائلتينا، انطلقنا إلى ملاقاة كل الذين ساهموا في تحريرنا، لكي نطّلع على الأحداث التي جرت بعيداً عن خلايانا، طوال الأيّام المئة والأربعة والعشرين.

منذ الأيام الأولى لاعتقالنا، فهمنا أنّ خاطفينا ينتمون إلى الجيش الإسلامي في العراق. في ذلك الوقت، كان الرأي الغربي يجهل كل شيء عن هذه الفئة.

من خلال فيلم دعاية وُزّع سرّاً في شباط/ فبراير عام 2004 في الأوساط السلفيّة، أعلن الجيش الإسلامي ولادته. حديث الولادة، نشأ من انشقاق عن الجيش الإسلامي السرّي وهو تنظيم سنّي مسلّح آخر. «هذا ما يشكل شبه اتحاد مسلّح يتمتع باستقلالية محلية»، كما أفاد خبير أمني، ينضوي تحت صولجان أمير ديني

معروف يتمتع بوسائل ماديّة مهمة. وهو بلا شك الرجل الذي قدّمه لنا، رئيس الاستعلامات سعد في الثالث من أيلول/ سبتمبر وهو الذي أمّن لنا دروساً في أصول الإسلام.

من بياناته الأولى، يعلن جيش الإسلام في العراق انحسار التجمعات الغربية عن العراق، ويثبت تصميمه. بعد ولادته بأقلّ من شهرين، جرت عمليّة عنيفة جداً دفعته إلى واجهة المسرح: اغتيال أربعة من رجال الأمن الأميركيين في 31 آذار/ مارس عام 2004 في شوارع الفلوجة.

في رأي أحد رجال الأعمال القريب من المقاومة أنّ «الجيش الإسلامي مؤلف من عناصر من الجهاز الأمني في ظل صدّام: جيش، وحرس جمهوري وضباط استخبارات» على صورة سعد الذي تبعنا من البداية إلى النهاية. ولكونه خبيراً بطرق الاستجوابات، بدا لنا دائماً كواحد من شرطة الدكتاتور السريّة القديمة. هذا المهندس بالمعلوماتية يعمل كقاض تحقيق: يعمل على استجوابات الرهائن الأولى، ثم يحيل استنتاجاته إلى المحكمة الإسلامية التي تبتّ في مصير الأسير.

كل هؤلاء الرجال سرّحهم الأميركيون في أيار/ مايو عام 2003 وحولوهم إلى البطالة. أما اليوم، فلا يحاربون باسم حزب البعث ولا باسم صدام حسين: فقد استعادوا راية الإسلام

الأكثر مؤالفة في العراق، وتسللوا إلى الجيش والشرطة العراقية الجديدة، كما أخبرنا سعد.

ومثل هذا التجنيد غير المتجانس يُفهَم منه، بلا شك، أن تقطع جيش الإسلام العراقي خطوط انشقاق مختلفة. الخط الأساسي يقطع الانفصال بين الوطنيين (البعثيين السابقين) أحلاف الإسلاميين الوطنيين (قدامى نظام المرتدين إلى الإسلام والإسلاميين السريين في ظل صدام) بمواجهة الجهاديين العالميين العاملين بتبعية الزرقاوي وبن لادن، وهؤلاء الأخيرون عناصر تمثل التطرّف. إنّ عودة أمير التنظيم إلى العراق بضعة أسابيع قبل احتجازنا، قوّى، على ما يبدو، معسكر الدوليين، وقسّى ادعاءات الجيش الإسلامي في العراق.

إنّ معظم المجاهدين عراقيون، أمّا المجاهدون الغرباء فيمثلون أقلية زهيدة. تُعد نواة جيش الإسلام الطلبة بعدة مئات من المحاربين، والمتعاطفون ببضعة آلاف. يجنّد جيش الإسلام الكثيرين في منطقة لطيفية والمحمودية والإسكندرية حيث تسيطر قبيلة جنابي القوية.

قطاع اللا قانون منطقة في جنوبي غربي بغداد تشكل خط انشقاق سلفي بين الأقطار الشيعية والأقطار السنية الناس في لطيفية حيث خُطفنا مشهورون ببلادتهم وعنادهم ومناهضتهم

للشيعة الذين يعتبرونهم هراطقة. بالنسبة إلى بعض هؤلاء السُّنة، إن الهدف هو إشعال الحرب الأهلية في المدن المختلطة مثل الحلة.

جغرافياً، ينقسم الجيش الإسلامي في العراق إلى ثلاث مناطق، إحداها في جنوبي بغداد (لطيفية)، وأخرى في الغرب، والثالثة في شمالي العاصمة. فالجيش الإسلامي في الغرب، مثلاً، هو الذي تبنّى خطف المترجمتين الأندونيسيتين اللتين حررتا في خريف 2004.

على الأرض تتحرك خلايا من أربعة أو خمسة مقاتلين غارقين في مجموعة السكان. والفصل بين هذه الخلايا لازم والاتصالات المهمة تتم بواسطة رسل. هكذا التقينا واحداً منهم بزيارة لنا ككشاف قبل أن نلتقي شيخاً كانت مهمته استجوابنا، ولكنّ هذا لم يصل إلينا، على ما رواه لنا أحد سجّانينا، بسبب الكثير من حواجز الجيش الأميركي.

يوجه المجموعة لجنة استشارية (مجلس الشورى) ترئس جناحاً مالياً ولجنة عسكرية ودائرة استعلامات.

ويُكلَّف فريق السهر على معلومات الأنترنت، مُعلماً الإدارة، مثلاً، بظروف العودة إلى المدارس في فرنسا. يريد الجيش الإسلامي في العراق أن يعطي عن نفسه صورة المنظمة المركبة المسلسلة. في أثناء خطف الرهائن، هناك تقسيم دقيق للمهام

يستوجب دواعي أمنية: فريق يخطف وفريق يحرس الرهائن ومحكمة تحكم.

تخضع التصفيات لمعايير تحددها المحكمة الإسلامية للفريق، المؤلفة من مسؤولين قبليين ودينيين. على أثر الحكم، تقسم الرهائن إلى فئتين: فئة يكون تحريرها خاضعاً للمفاوضات، وفئة الذين سيُصفّون. هناك عدل منظم متوحش: عاملان باكستانيان لا تشارك بلادهما في التحالف وعاملان مقدونيان وزميلنا الإيطالي إنزو بلدوني قد تمت تصفيتهم، أمّا سائق الشاحنة الفيليبيني إنجلودين لاكروز والقنصل الإيراني فريدون جهاني ونحن أنفسنا فقد كنا موضوع مفاوضات وأطلق سراحنا في آخر المطاف

هؤلاء، إذاً، هم الرجال الذين وقعنا بين أيديهم في 20 آب/ أغسطس، فوجدنا أنفسنا معتقلين بفظاظة.

لم تتأخر محاولة إطلاق سراحنا الأولى إذ جرت يوم الاثنين في 23 آب/ أغسطس، في اليوم الثالث على اعتقالنا. قام وسيط يحمل رشاشاً وقد اعتاد مرافقة الصحافيين بنقل ورقة صغيرة إلى السفارة الفرنسية في بغداد تحمل اسمينا وتدوين OK للدلالة على أننا بصحة جيدة، وقد ألحقنا بذلك توقيعنا. أُرسل هذا المستند، في الحال، إلى باريس لمسؤولي الإعلام الذين نعمل لهم من أجل التصديق

لكونه قريباً من الجيش الإسلامي في العراق، كان الوسيط، وليس أصله من لطيفية، مكان اعتقالنا، يقيم علاقات مع الخاطفين. ويدّعي أنه كان قد التقى قائد القطاع الجنوبي لجيش الإسلام، الذي يأتمر به الخاطفون.

وهذا القائد المحلي، على حد قوله، مستعد لإطلاق الصحافيين الفرنسيين وكذلك إنزو بلدوني. لم يلتقِ في ذلك اليوم برنار باجوليه الذي ذهب إلى باريس يحضر المؤتمر السنوي للسفراء، ولكنّ فرانك جيليه، الرقم الثاني في السفارة، قد استقبله.

وأعلن الوسيط: أعود لأطلق الرهينتين، سيتم التحرير هذه الليلة، لأنهما فرنسيان ولأن القائد المحلي ليس له من مآخذ عليهما، وهو، بالإضافة إلى ذلك، يريد أن يقوم بمبادرة حسنة تجاه الشعب الإيطالي.

ثم طالب بمبلغ مضحك، ألف دولار كتعويض، وبدلاً من 4X4 واللوحات الدبلوماسية، يريد وسائل نقل أقلّ تنبيهاً للاسترجاع.

اعتبر فرانك جيليه القضية جديّة. اتصل آخر النهار ببيار فيمون، مدير ديوان وزير الخارجية الفرنسي «OK هيّا» كان هذا هو جواب الأخير الذي سيكون المحرّك الأساسي لكل العمليّات

المرتبطة بقضيتنا. يجب أن يكون إطلاق السراح في جنوبي شرقي بغداد، قبل الحاجز الأوّل، ليس بعيداً عن ثكنة عسكرية أميركية. كل الاحتياطات اللازمة قد اتخذت: رجال دائرة العمل في الإدارة العامة لأمن الدولة حاضرون، وكذلك طبيب جاهز للعلاجات الأولى. سينبههم لوصولنا رنين هاتف.

في بادئ الأمر، كان الفرنسيون يخصصون اعتماداً لهذه الوساطة. كان هذا، على الأقل، الرأي المسيطر في 23 آب/ أغسطس عند الساعة 18 عند النقطة الأولى التي تمت في باريس، في وزارة الدفاع، استناداً إلى معلومات جمعها الدبلوماسيون في الإدارة العامة لأمن الدولة في بغداد.

كان الجميع يقولون:

ـ القضية معبأة، سيتم إطلاق سراحكما في الساعات الثماني والأربعين، كما أخبرنا أحد المشاركين.

ولكنْ، عند الساعة الواحدة فجراً تقريباً، كانت الكبوة الأولى: أخبرنا الوسيط بعد مكالمة هاتفية أنّ الخاطفين ينتظرون شريط فيديو تبثه الجزيرة قبل أن يتم إطلاقنا.

في اليوم التالي، يوم الثلاثاء، في 24 آب/ أغسطس بدا الوسيط متوتر الأعصاب وقال:

ـ إنّ خاطفي شينو ومالبرونو يرتابون بي.

يظنون أن الفرنسيين يدفعان لي.

وذكر بياناً سرياً يتبناه الخاطفون قرر اتصاله أن يلتقي فرانك جيليه ورجلاً من الإدارة العامة لأمن الدولة هو M X رئيس المركز في بغداد، الذي كان في عطلة يومذاك.

عند المساء، كان اللقاء في المركز القديم لسفير فرنسا في الحي السكني لعرسات الذي نُهب في الحرب.

تأخر تحريرنا. سيتم ليل الثلاثاء-الأربعاء. وهما أيضاً لا شيء. ولكنْ، بعد ظهر الأربعاء، جدد صاحبنا وعوده:

ـ لقد أُطلقوا، وهم في الطريق، سيتصلون بكم عندما يكونون قد أصبحوا في بغداد.

هذه الأحاديث المتفائلة تتماشى مع ما نقله لنا في اليوم نفسه ثلاثة من خاطفينا. ولكنّ الساعات تمر دون أن تحمل أيَّ حدث جديد، والفرنسيون يرون أنّ هذه الوساطة تقلّ الثقة بها شيئاً فشيئاً في اليوم التالي، شرح الوسيط التأجيل في اتصاله.

ـ كان هناك تصلّب من قبل الخاطفين بسبب وصول أمير جديد على رأسهم، قد يكون قدّم فتوى تدعو إلى قتل جميع الأجانب. ولكنْ، إذا كانت الغيات محطمة فإنّ سيارتي البيجو بخير.

الاستعارة قدرة. كان الرجل يلمحّ إلى أنزو بلدوني الذي ستتم تصفيته، على الأرجح، في 25 وتعلن رسميًا في 26 مساءً

وتثير خوفاً على مصيرنا في فرنسا، إذ إننا ننتمي إلى ملفّ واحد في التحرير. الخميس، وكان صاحبنا يبدو قلقاً على أمنه، وضع حدًا لوساطته ولاذ بالفرار.

ماذا حدث؟ هل تراجع الوسيط لأنه كان يقيم علاقات مع المعتدلين فيما كان الأصوليون يمسكون برمام الأمور في بغداد؟ مهما يكن من أمر، فإنّه، بلا شك، أحرز تقدماً. لم يكن هو الذي يقرر مصيرنا ومصير إنزو بلدوني، بل كان المقررون هم أعضاء المحكمة الإسلامية في الجيش الإسلامي في العراق.

منذ الاتصالات الأولى، يوم الاثنين، كان الفرنسيون مضطربين لسؤال يطرحه الوسيط.

ـ ألديكم شريط الفيديو الذي يعرض الرهائن؟

ـ لا.

ـ إنّ الجزيرة هي التي توقف بثه.

ـ ولكن، بعد اتصال من الكيه دورسيه، نفت إدارة التحرير في الجزيرة، في قطر، أن تكون تلقّت أيّ شريط. في الواقع، كما أفادنا سعد في ما بعد، في 30 آب/ أغسطس مساءً، «كانت قضيتنا محمّدة». بالانقسام ما بين الإدارة المحلية والإدارة المركزية، كان الجيش الإسلامي يتردد بين إطلاقنا ومتابعة المفاوضات من أجل التحرير. كان الاحتمال الثاني هو السائد في

نهاية المطاف.

الأربعاء، في 25 آب/ أغسطس، انغلق المدرج الأوّل لأسباب لم نفهم منها شيئاً في حينه. بدأت القضية تبدو سيئة للغاية. طار السفير برنار باجوليه في اليوم التالي إلى عمّان.

لم يدقّ ناقوس الخطر إلاّ مساء 28، مع بث أوّل شريط فيديو، وهو تسجيل حقق قبل ستة أيام، يوم الأحد، في الثاني والعشرين. بالانسجام مع الإنذار الشهير، إنذار الساعات الثماني والأربعين الذي فُرِض على فرنسا لإلغاء قانون الحجاب، وصل إلى مركز الجزيرة عن طريق مجهول.

وتذكر صحافي من القنوات العربية:

ـ ترك رجل شريطاً لا قيمة له في وكالة إعلام عربي مرئي في بغداد، يحمل شارة قناة جزيرة، ونقل بعد قليل إلى مركز التلفزيون الفضائي في قطر. إن سمير قادر، وهو صحافي أردني في الجزيرة، اكتشف عندئذ، مع مفاجآته الكبرى، الصور الأولى للرهينتين الفرنسيتين.

أعلمت السفارة الفرنسية في الدوحة بواسطة أحد المشاركين الفرنسيين الذي يعمل في إذاعة قطر الوطنية القريبة وكاتبها من مكاتب الجزيرة. من باريس، طلب برنار إيميه، مدير قسم أفريقيا الشمالية والشرق الأوسط في الكيه دورسيه، أن يوقفوا البث

لربح الوقت ريثما يتم إيجاد جواب.

ـ لقد تأخرنا، على ما قالت السمارة، لأنّ الصور قد بثت منذ قليل.

بلغ الخبر رئيس الوزراء جان بيار رافارين أثناء غذاء عائلي في بوردو. وبفضل الناقل الذي حمل له البرقية العاجلة من AFP، كان هو المطّلع الأول على الخبر، قبل الموظّف المتكرّس في مركز القيادة عند ماتينيون. اتصل، في الحال، بمدير الديوان ميشال بوبون الذي كان يتناول العشاء في البيسي الصغير، وهو مطعم في الدائرة السابعة في باريس. ألغى رافارين مشاركته في جامعة الصيف، في لقاء الحزب الراديكالي، ودعا إلى اجتماع يعقد، في اليوم التالي، عدداً من الوزراء، من ضمنهم ميشال برنيه ودومينيك دي فيلبين وريبو دونديه دي فابر. أمّا ميشال إليوت ماري المتنقّلة فستحضر اجتماع بعد الظهر

صرّح موظّف كبير:

ـ إن كل أجهزة الدولة ستعمل في غضون ساعات، وبسرعة لم أعرف مثلها من قبل.

في الواقع، إنّ خبر موت إنزو بلدوني في 26، ورسالة الإنذار من الوسيط في اليوم نفسه، وإنذار الثامن والعشرين أثارت احتداماً في ردات الفعل وقلقاً معمماً. وألقى دومينيك دي فيلبين في أثناء

الاجتماع:

ـ يجب إحداث ضجة، وإظهار فرنسا بمظهر يختلف عن بقية البلدان، أي أنها تبحث عن رهائنها ولا تنقسم بخلاف اليابان أو إيطاليا، وأنّ المسلمين في داخلها غير مضطهدين. يجب أن يعبروا عن رأيهم في هذا الإنذار، وأن يبرهنوا أنّ القضية تهم الفرنسيين كلهم.

حُددت عندئذ أفضليتان: الوحدة الوطنية والتحرك، تقرر تدخل رسمي على الجزيرة يوجَّه إلى الخاطفين. من يذهب إلى المكان؟ فيلبين أو برنيه أو دونديه دي فابر؟ جزم شيراك. لم يكن يتمنّى ذهاب فيلبين، ولم يكن فابر يعرف المنطقة جيداً، لذلك اختير ميشال برنيه. يطير أوّلاً إلى القاهرة لأن مصر كانت قد شهدت الكثير من أعمال الخطف، ولا سيما خطف السائقين، بحيث تمتلك دوائرها الكثير من المعلومات في هذا السياق، مما يسمح بالدخول إلى اتصال مع الخاطفين يبدو مفيداً. وارتُئِيَ أن تكون المحطة الثانية في الأردن. إذ عن طريق مستشفى عسكري في الفلوجة، تستطيع المملكة الهاشمية ذات المحطات الكثيرة في العراق أن تلعب دوراً في الاتصالات التقليدية بالقبائل السُنية. بالإضافة إلى أن دوائر الاستخبارات الأردنية وقائدها سعد الخير «ستظهر الحماسة

والنوايا الحسنة في ما يتعلق بهذه القضية. وأخيراً قرر الرئيس أن يتدخل علناً على شاشة التلفزة أمام الفرنسيين ذاك المساء عند الساعة العشرين».

«اليوم، تجتمع الأمة بكاملها، لأنّ المُعرَّض للخطر هو حياة فرنسيين. هو الدفاع عن حريّة التعبير. هو مجمل قِيَم جمهوريتنا (. . .) أطلب علناً إطلاق سراح كريستيان شينو وجورج مالبرونو.

إنّ ردّة الفعل لدى المجموعة الإسلامية الفرنسية قد أذهلت العالم العربي: فتيحة عجبلي، عضو المجلس الفرنسي للجماعة الإسلامية «اقترحت على الخاطفين أن تحل نساء محجبات محل الصحافيين المخطوفين ورفضت أن ترتدي «حجاباً ملطخاً بالدم».

في وزارة الداخلية، كانت الأفضليّة لتوحيد الجبهة الداخلية لمواجهة الخاطفين، ولا سيما أنّ اتجاهات الإسلام في فرنسا، وبنوع خاص اتحاد المنظمات الإسلامية الفرنسية، تتكلم بصوت واحد، وهذا ما سيتم بعد ذلك بتأثر وخشوع في الصلاة المشتركة بين الأديان في جامع باريس الأكبر بإشراف مدير المعهد دليل بوبكر في 31 آب/ أغسطس. في الوقت نفسه، في عمّان وبغداد وعواصم أخرى من الشرق الأوسط، سعت مصادرنا القريبة من

المقاومة وغيرها من الأصدقاء إلى إيصال الرسالة إلى الخاطفين من أجل عدم قتلنا. من حماس الفلسطينية إلى حزب الله اللبناني ارتفعت نداءات الإسلاميين الأصوليين لمصلحتنا لتشرّع، في ما بعد، مسعى مماثلاً لفئات المقاومة العراقية لتجنّب الأسوأ.

بدا جيش الإسلام في العراق قلقاً وهو يخضع لضغط الفئات المسلحة الأخرى، واستمع، على ما يبدو، إلى التحذيرات التي وجهتها، بنوع خاص، لجنة مجاهدي الفلّوجة بإدارة الشيخ الجليل عبد الله جنابي الذي بعث برسل لمقابلة الخاطفين.

ـ قتْل الصحافيين الفرنسيين حرام (خطيئة).

إذا حدث لهما مكروه، ستقوم أعمال انتقام، وسيقطعون عنكم السوقيّات (الملاجئ، المال، السلاح) وسيصفونكم.

هذه الضغوط التي مورست لم تكن تهدف إلى تحريرنا، بل كانت تسعى إلى حمايتنا من الموت. مُدّد، أخيراً، إنذار 28 آب/ أغسطس، وبعد الأول من أيلول/ سبتمبر، أُعطي الفرنسيون ضمانات بأن حياتنا لن تكون بخطر.

إنّ الاتصالات الأولى مع مختلف الوسطاء أدّت إلى معلومات كثيرة. ظل الجيش الإسلامي في انتظار الجواب عن قضية الحجاب فيما كان زعماؤه قلقين لكثرة النداءات الداعية إلى

تحريرنا، تطلقها أصوات عربية غير إسلامية، لم يكن خاطفونا يسمعونها بوضوح. أمّا الانقسامات الداخلية، وهَمّ إبقاء الملف في أيدي الجيش الإسلامي فقد أخّرت الأمور.

وصل برنار باجوليه إلى بغداد يوم الأحد 29، برفقة هوبير كولين دي فرديير أمين السر العام في الكي دورسيه، وM X رئيس الدائرة في الإدارة العامة لأمن الدولة في العاصمة العراقية. بالرغم من كونه خبيراً بالعراق حيث أمضى أربعة أعوام، لا يعرف هذا الأخير الشيء الكثير عن الجيش الإسلامي. بالمقابل، هو يعرف جيّداً منطقة لطيفيّة حيث اعتاد صيد الخنزير البرّي. ويعرف كذلك القبائل السنية التي تسكنها، ولا سيما آل جنابي، وهي القبيلة التي كان يحد صدّام في قلبها الكثيرين من الأنصار الذين يساعدونه في مهمّات الأمن.

وقال رجل قريب من الملف:

ـ إنّ جهودنا الأولى تنصب على معرفة جيش الإسلام في العراق ومعرفة هوية أعضائه للتقرّب منهم.

كل النوايا الحسنة مقبولة. راح M.X يجمع، بصورة منتظمة، صحافياً ومرتزقاً بالاسلاميين لتبادل المعلومات. ففي بيروت وعمّان ودمشق كانت دوائر الإدارة العامة لأمن الدولة في نشاط دائم وقُدِّرَ، في العراق، تدخّل ميشال برنيه على شاشة الجزيرة.

صرّح صحافي عراقي قريب من الخاطفين.

ـ أخذت بلادكم قضية الخاطفين بجدية، وهذا ما لم تفعله إيطاليا مع إنرو بلدوني إذا أعلن برلسكوني أنه لن يستسلم للإرهابيين.

في الواقع، يوم الاثنين مساء 30 آب/ أغسطس، عندما جاء سعد يهددنا بقصية الحجاب، أعلمنا بالنداء الداعي إلى تحريرنا الذي أطلقه من القاهرة الوزير الفرنسي. يبدو، إذاً، أنّ الجيش الإسلامي في العراق كان راضياً عن ردّة الفعل الفرنسية، مبطلاً بذلك حجة الذين كانوا يعتبرون في فرنسا أنّ هذا الحماس قد صعّد المزايدات؛ فليس هناك، في الواقع، أسوأ من السكوت أو عدم الجواب عن نداء الخاطفين، كما تفعل، مثلاً، الحكومة الإنكليزية.

على مسافة بضعة أيام من العودة إلى المدارس حيث سيدخل قانون حمل الشارات الدينية في المدارس الرسمية حيّز التنفيذ، كان الغليان. في 31 آب/ أغسطس عقد الاجتماع الديني المختلط في جامع باريس الكبير. فهناك، على ما نذكر، في ظل آلات التصوير ومكبرات الصوت، وُلدت فكرة إرسال بعثة تمثل الإسلام في فرنسا إلى بغداد. كان هدفها تحطيم خطاب الخاطفين الديني بموضوع الحجاب وظلم المسلمين المزعوم ضمن النسداسي الفرنسي.

وذكّرت وزارة الداخلية :

ـ إنّ الهدف من البعثة ليس التفاوض ولكنه إطلاق نداء لتحرير الأسيرين بمبادرة رمزيّة في إطار تحريك كل الفرنسيين .

عُيّن ثلاثة مسؤولين من المجلس الفرنسي للمجموعة الإسلاميّة : فؤاد علاّوي ، الأمين العام لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا ، ومحمد بشاري ، رئيس الاتحاد الفدرالي الوطني للمسلمين في فرنسا ، وعبد الله زكري ، ممثل مسجد باريس ، كريستوف فرنو المستعرب ، المستشار الدبلوماسي لدومينيك دي فيلبين ، كان أيضاً أحد أفراد الرحلة المتوقعة في اليوم التالي .

وصل أفراد البعثة إلى بغداد في 2 أيلول/ سبتمبر ، مثل «بهائم فصولية» تقريباً ، على ما ذكره عبد الله زكري . كانت السلطات العراقية تتمنى مقابلة الفرنسيين . كان هذا رفضاً مهذّباً ولكنه ثابت .

ردّ محمد بشاري :

ـ لم نأتِ إلى هنا بزيارة رسمية ، بل جئنا لمقابلة شخصيات دينية عراقية مثل حارث الداري وعبد السلام القبيسي من لجنة العلماء السنّة .

عندما أخبرنا سجّانونا ، في ما بعد ، عن زيارة ثلاثة ممثلين عن مسلمين فرنسيين ، شعرنا أنّ المسيرة أثارت اهتمامهم وأثرت فيهم في آن واحد .

سألنا الجهادي :

ـ لا أفهم لماذا يدعم إخواننا في فرنسا مسيحيّين .

المسيحيون أنفسهم لا يعملون بمثل هذه الحماسة من أجلكما . اشرحا لي هذا التناقض .

تم اللقاء مع الرسل المسلمين الفرنسيين في مسجد أم القرى حيث اجتمعت لجنة العلماء السنّة بكاملها . كان الجو صافياً بين الفرنسيين في زيّهم الأوروبي وربطات العنق وأصحاب المقام العراقيين المرتدين الجلابيب . كانت اللغة العربية الفصحى هي القاسم المشترك . ودام الحوار نحو أربع ساعات .

شرح محمّد بشاري الوضع للجنة :

ـ عملية الخطف هذه ضربة قاسية للمسلمين في فرنسا لأنهم دفعوا سابقاً ثمن 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001 في الولايات المتحدة، وثمن 11 آذار/ مارس 2004 في إسبانيا . هي تضعنا في القلق . إن الحجاب قضية فرنسيّة داخلية . نحن ضد هذا القانون ، ولكننا نحترم شرعية بلادنا .

وزايد عبد الله زكري :

ـ باختطاف صحافيين أخذ الخاطفون ستة ملايين رهينة من المسلمين في فرنسا . لقد ارتكبت المقاومة خطأً . إذا لم تضع وسائل الإعلام إلى جانبها ، بما فيها البريطانيين والأميركيين ، وقعت في النسيان وغشّت صورتها ، وهذا ما يسعى إليه المحتل . في أثناء

حرب الاستقلال الجزائرية كلها، لم يُسمع يوماً عن خطف صحافي فرنسي واحد أو تصفيته.

دوّن أعضاء لجنة العلماء موقف الرسل الفرنسيين، وإن كان بعضهم على حذر، لأنهم اعتقدوا أنهم يتعاملون مع مخابرات، مع جواسيس لمصلحة الفرنسيين.

وأبدى العراقيون تلهّفاً للمعلومات المتعلقة بدفع المسلمين في فرنسا. هل هناك حرية حقيقية لممارسة الإسلام في السداسي الفرنسي؟ هل يتمتع المسلمون بأماكن عبادة كافية؟ أين أصبحت قضية المنديل الإسلامي؟

ثم اقترح عليهم حارث الداري المشاركة في الصلاة قبل دعوتهم إلى الغداء. في هذا الوقت، بلغت همسة أذن محمد بشاري:

ـ المخطوفان بخير ويُعاملاَن معاملة حسنة.

من هذه الجملة المليئة بالأمل، سيولد سوء تفاهم، ولا سيما أنّ أعضاء اللجنة دعوا الرسل الفرنسيين إلى قضاء الليل في بغداد، وهم يوفرون لهم الأمن غمر شعور التفاؤل عندئذ البعثة الفرنسية إذ ظن كل منهم أنّ الخاطفين سيقومون بمبادرة، في اليوم التالي، بمناسبة صلاة الجمعة الكبرى.

قال عبد الله زكري:

ـ الآن أصبحت مقتنعاً، وسأظل كذلك، من أننا نستطيع أن نعود برفقة الرهينتين. أنا، كرفيقيّ محمد وفؤاد، من أنصار البقاء في بغداد.

في باريس التي كانت على اتصال دائم بالبعثة، قال دومينيك دي فيلبين «الأمل بحل سعيد» يغذّي النشوة. أيجب إقامة علاقة النتيجة بالسبب؟ بعد ذلك بثلاثة أشهر، كان وزير الداخلية الكثير الحركة في أيام اعتقالنا الأولى غائباً عن طريق فيلاّ كوبلي لاستقبالنا.

في هذه الأثناء، في السفارة الفرنسية ببغداد، كانوا يستبعدون الحماسة في الزيارة في إطار أمني حسّاس لأن البعثة لم يرسم لها قضاء ليلة مع لجنة العلماء. إذ إن مهمتها كانت إسماع صوت مسلمي فرنسا، لا الدخول في وساطة أو مفاوضات. فأمَرَ هوبير كولين البعثة بالعودة إلى فرنسا كما كان المخطط. مع ذلك، بغية عدم تكرير قابلية التأثر، توقف المرسلون الثلاثة في عمّان للمشاركة في مؤتمر صحفي مشترك مع ميشال برنيه.

قدّر محمد بشاري:

ـ إذا وافقت على أن الهواجس الأمنية لعبت دورها، فإني أعتقد أن رحيلنا مرتبط، في هذا الوقت بالذات بالتصويت على القرار 1559 الداعي إلى انسحاب القوات السورية من لبنان،

وهو القرار الذي تدعمه فرنسا والولايات المتحدة. سياسياً، كانت المرحلة حساسة جداً.

ولكن زيارة المرسلين المسلمين الثلاثة ستعرف قفزة جديدة.

فيما كانوا لا يزالون في لجنة العلماء، سرّب مجهول ورقة إلى عبد الله ركري: مهدي الصميدعي يتمنى أن يلتقيك في جامع ابن تيمية. وأضاف الرسول:

ـ أنصحك بالقبول.

إنّ مهدي الصميدعي طويل رشيق مستهوٍ للجماهير، وهو داعية سلفي ذو عطات ملتهبة يطلقها عالية من مسجد ابن تيميّة في بغداد علمنا، في ما بعد، أنه كان على اتصال بخاطفينا ويرسل إليهم أحياناً رسلاً. في أول الأمر، تجاهله الفرنسيون لمصلحة حارث الداري من لجنة العلماء السنّة ولكنْ، للصميدعي تأثير كبير في قلب المقاومة، عن طريق عبد الله الجنابي، ممثله في لجنة مجاهدي الفلوجة التي أصبحت «مجلس قيادة» الفئات المسلحة.

عبد الله الجنابي: توقّف مصيرنا، بصورة واسعة، على هذه الشخصيّة التي لم تتحقق هويتها جيداً والتي أصبحت زعيم المقاومة في الفلّوجة. اعتُبِرَ الجنابي محطة مهدي الصميدعي في هذا المعقل لحرب العصابات، وكان يرفض باستمرار الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين.

كان بعض أقرباء عبد الله الجنابي يوصلون إلينا رسائل، على حد ما ذكره رسميّ فرنسي: الرهينتان على قيد الحياة، ولن يصيبهما أذى. هذا ما كان يطمئننا، ولكنّ زعيمهم لم يشأ أن يتورط شخصياً، لكي يظهر، ربما، أصولياً أصيلاً. فقد كان يفاوض خفية بواسطة المقرّبين إليه. كما دلّت التقاطات المواصلات الهاتفية على يد الجيش الأميركي.

حسب بعض المحلّلين، قد يكون الجيش الإسلامي يثق كثيراً بعبد الله الجنابي. فهذا الرجل شخصية محورية في المقاومة التي يؤدي الكثير من تشعّباتها إليه.

ـ هو محترم جداً من قبل جيش الإسلام لأنه مجاهد موثوق به، على حدّ قول صحافي عراقي من الجزيرة. كان، في البدء، مجرّد إمام يصلي ويخطب في أحد مساجد الفلوجة المتعددة، ثم ثار على الأميركيين وراح دوره يكبر. ثُم أصبح في نظر الكثيرين الإمام المقاوم.

أمّا الصُميدعي فقد أقام علاقات موضوعية مع سوريّا. كان بحاجة إلى قاعدة خلفية تؤمن له السوقيات (اللوجستية) الداخلية (تموين، تسليح إلخ) وكذلك العلاقات مع الخارج. وأقلقت تحركاته في دمشق الفرنسيين.

قال خبير في قضايا الشرق الأوسط:

ـ إن اللعبة التي تديرها، اليوم، كل هذه الفئات المسلحة، كما تُدار الانتفاضة في فلسطين، محورها دورهم في عراق الغد: كل الذين يكونون قد كبّدوا قوات الاحتلال المزيد من الخسائر يكونون في مركز سياسي أفضل.

من هنا كانت المنافسة الشخصية الدينية السياسية التي تضع الصميدعي في مواجهة الشيخ حارث الداري، من لجنة العلماء. بالرغم من مشاركته في خلق هذه التركيبة السياسية الدينية، فقد ابتعد عنها الصميدعي مفضلاً قيادة تياره الخاص الأكثر أصولية من تيار حارث الداري القريب من الإخوان المسلمين. لم يكن بإمكان المؤمنين أن يتعايشا في التركيبة نفسها. بسبب تورطه في المقاومة، تعرض الصميدعي للتوقيف على يد الأميركيين الذين اكتشفوا في مسجد ابن تيمية التابع له مخزونات من الأسلحة، وهذا ما قوّى شرعيته السياسية الدينية على المسرح العراقي.

عندما عُلمت الدعوة، أعلم المرسلون الفرنسيون، لياقة، أعضاء لجنة العلماء الذين ردعوهم، غاضبين، عن زيارة منافسهم المؤثر الذي لم تكن زيارته متوقعة. فأصرّ المرسلون وتمّت الزيارة. ولم يكن الصميدعي بعد، بعكس حارث الداعي، قد دعا إلى تحرير الرهينتين.

قال للفرنسيين:

ـ أريد، في أول الأمر أن أسمع موقفكم.

فعرف هؤلاء كيف يقمعونه، إذ منذ اليوم التالي، ألقى عظة بمنتهى العنف ضد الخاطفين

إذا لمستم شعرة واحدة من الرهينتين، فاعلموا أنكم لن تجدوا الراحة حتى موتكم، سأبيدكم حتى آخر فرد منكم...

ليس هناك من شيء سهل في الشرق الأوسط. لذلك كلما تقدم ملفنا خطوة تراجع خطوات إنّ المعانقات المتلفرة بين الفرنسيين والعلماء قد أغضبت المتشددين في الجيش الإسلامي. فالعلماء، بدون شك، كانوا شديدي الثقة بهم. في الثالث من أيلول/ سبتمبر، كتبت الإدارة العامة لأمن الدولة، في ملاحظة لها: ليس للجنة العلماء السيطرة على الملف، وليس لها أي اتصال مباشر بالخاطفين الذين لم تحدد هويتهم بعد، ولم يأتِ أي من الوسطاء بشهادة حية. وراح الأمل ينفس ولا سيما عندما استعادت وسائل الإعلام الفرنسية حبراً يتحدَّث عن فدية بخمسة ملايين دولار، وهذا ما زاد في غضب الخاطفين المستائين من مثل هذه التدخلات.

بدا كل ذلك شديد التعقيد. في إشارته الأولى إلى وزارة الدفاع في الثالث من أيلول/ سبتمبر، كتب الجنرال فيليب روندو الذي، بخلاف معلومات الصحف، ظل في بيته في

مورفان يأكل البندورة المحشوة مع نسيبه ستيفان ديس، وهو صحافي من الفيغارو · قضيتنا تهدف إلى تحديد هوية الجيش الإسلامي في العراق مع هذه السلسلة، لنتمكّن من الاتصال بهم. حتى النهاية، تتوقف الصعوبة على إقامة اتصالات مباشرة بإبعاد الوسطاء غير الجديين، لذلك يقتضي عمل هائل على إثبات رسمي للمصادر يقوم به M X والإدارة العامة لأمن الدولة في بغداد.

من أصل ثمانية وخمسين اتصالاً جرت مع الفرنسيين بهدف إيصالهم إلى الخاطفين، تبيّن أنّ خمسة أو ستة كانت قابلة للتصديق، دون التأكّد، مع ذلك، من صحتها.

أضاف الجنرال روندو: «يُخشى من لبننة القضية إذا لم نتوصل إلى إطلاق السراح في الساعات القليلة المقبلة. هذه الحال، ستطول القصة ويجب أن نفكر في طريقة معالجة جديدة. كان يعني «باللبننة» سوء رؤية الموقع أو انعدامها.

بعد الأول من أيلول/ سبتمبر، بدت معاودة الاتصال بأصوليي جيش الإسلام في العراق صعبة للغاية. ولم يبقَ إلاّ المعتدلون من لجنة العلماء بإدارة الشيخ حارث الداري. من مهازل القدر · كنّا قد التقيناه ثلاثة أيام قبل اختطافنا في مسجد أم القرى، وإليه كان إهداء كتابنا الأخير عن مذكرات المترجم الخاص لصدام حسين.

هذا الرجل الصغير النشط، صديق برنار باجوليه، المحب لفرنسا، المعتدل، ساهم، في نيسان/ أبريل، في تحرير ألكسندر جوردانوف من وكالة CAPA. كان يجسّد، إلى حد ما، واجهة المقاومة السنية كان سائقنا قد جمعنا به منذ خريف 2003: محتال قضى وقته في الاستماع إلينا. . . كان يعارض المشاركة في أية عملية سياسية يعمل عليها الأميركيون ما دام انسحابهم من العراق لم يتم. ما كاد برنار باجوليه يصل إلى باريس حتى راح يحرّضه. ولكنْ، ألا يطلب منه الكثير؟ بعض الشهود سيكونون موضوع إثارته: ألم يكن الفرنسيون بترددهم على بابه يعيّنونه، بصورة ضمنية، الحزام المؤدّي مباشرة إلى الخاطفين؟

في منتصف أيلول/ سبتمبر، عندما خفّت حماسة الأيام الأولى، لم تعد السلطات تعرف شيئاً إلاّ أنّ الوضع سيستمر طويلاً. في هذه الأثناء، اكتشفت دوائر الاستخبارات المزيد عن جيش الإسلام، ومناطق نفوذه، وأماكن تموضعه وبعض مسؤوليه. والكثير من هذه المعلومات مصدره الدوائر السرّيّة البريطانية والألمانية، والأميركية والإيطالية. بدا الكثير من هذه المعلومات من الدقة بحيث لم يصدّق، ولكنّ معظمها يفسح في المجال لتكوين فكرة عن الإدارة الجماعية لجيش الإسلام ودور السلفيين فروى أحد أرباب الجاسوسية:

استعملنا منفذين أساسيين لمقاربة الخاطفين: لجنة العلماء وسلفيي مسجد ابن تيمية. رأينا بسرعة أنّ اللجنة تلعب دوراً مزدوجاً فهي واجهة شرعيّة للمقاومة، ويظلون مع ذلك بعيدين عن الوقائع. مع أنّ العملية تطلبت مزيداً من الوقت، فقد بلغنا تقارباً أكبر مع السلفيين. فهم أقلّ سياسة ولكنهم أقرب إلى الأحداث.

بما أنّ شيئاً لم يكن ليثبت قرب حدوث التحرير، ارتسمت عدة علامات استفهام في الدوائر السريّة: أليس هناك من زمرة في لجنة العلماء تغطي فريق الخاطفين؟ ما هو الدور الذي يلعبه الشيخ الصميدعي؟ هل العمليّات الأميركيّة التي انطلقت في الرابع من أيلول/ سبتمبر بريئة؟ إذ إنّ الفرنسيين، منذ أواخر آب/ أغسطس، وجهوا رسالة إلى المسؤولين الأميركيين: «رهينتانا موجودتان في قطاع لطيفية، انتبهوا، لا تقوموا بعمليّات عسكرية واسعة في هذه المنطقة، من فضلكم، كيلا تضعوا حياتهما بخطر».

وافق الأميركيون ولكنهم لم يهتموا للأمر. في الثالث من أيلول/ سبتمبر، نُقلنا لأول مرة وغادرنا قطاع اللطيفية، وبعد خمسة عشر يوماً، يوم كان من المتوقع إطلاق سراحنا، أسرّ إلينا اثنان من الخاطفين:

أعطى الفرنسيون تموضع المزرعة فقصفها الأميركيون، فهم أناس قدرون.

في الرابع من أيلول/ سبتمبر، أغرق تصريح لمسؤول عسكري أميركي كبير باريس في القلق. إنّ القوّة المتعددة الجنسيات ساعدت الفرنسيين على إيجاد محاورين للدخول في اتصال مع خاطفي الصحافيين، وقد صرّح بذلك لانس سميث من الإمارات العربية المتحدة. ولكنّ باريس نفت ذلك.

في الواقع، طوال أشهر اعتقالنا الأربعة، بفضل أجهزة التنصت عندهم، سيكون الأميركيون على اطلاع على معظم الاتصالات بين الفرنسيين والخاطفين بواسطة الأنترنت أو التلفون. وكان بإمكانهم لو شاؤوا تتبّع ذهابنا وإيابنا انطلاقاً من سفارة فرنسا. الأميركيون لم يساعدونا، ولكنهم لم يعيقوا المساومات، على حد ما سيطرح لنا ميشال بارنيه في أثناء عودتنا في الطائرة.

في هذا الرابع من أيلول/ سبتمبر نفسه، اكتشف الفرنسيون الفيديو الذي يظهر محاولة الاغتيال المرتكبة ضد موكب أحمد شلبي، المسؤول العراقي الموالي للأميركيين، وهي عملية تبنّاها جيش الإسلام في العراق.

قال أحد المفاوضين: «هذا يحمّي الجو» عندما اكتشف، بعد

عدة أيام، قطع رأس أحد حرّاس شلبي المحتجز في معتقلنا نفسه.

في هذه المرحلة، أشارت بعض المصادر لسفارتنا في بغداد إلى نقلنا. وتثبت الخبر بواسطة معلومة نقلتها الاستخبارات الأميركية للفرنسيين في السابع من أيلول/ سبتمبر؛ وهذه المعلومة وردت من خلال التنصت لأنّ الأميركيين وهذه هي مشكلتهم ليس لديهم مراسلون يتسللون إلى مواقع الإسلاميين وأعضاء حرب العصابات. المعلومة صحيحة: نُقلنا يوم الجمعة في الثالث من أيلول/ سبتمبر من المزرعة في النطيفية إلى منطقة متنزه سلمان في جنوبي غربي بغداد.

في السادس من أيلول/ سبتمبر، فرض موقع إسلامي ثلاثة شروط لإطلاق سراحنا، وبصورة خاصة دفع فدية والقبول بهدنة اقترحها أسامة بن لادن. وقّع النص من سمّي القائد الأعلى للمجموعات المسلحة. لم تعطِ الإدارة العامة لأمن الدولة لهذا البيان الكثير من الأهمية. وقد لوحظ، في ما بعد، أنّ بعض هذه الشروط كان محتملاً بل قريباً من الحقيقة.

في الأسبوع التالي، أقلقَ الفرنسيين تعدد إشارات الإنذار عندما لم يعودوا يسمعون شيئاً عن الخاطفين.

لقد سيطر علينا الخوف، عندما أعلمتنا دائرة محابرات غربية، في السابع من أيلول/ سبتمبر، أنّ محكمة إسلامية

ستحاكمنا ليلاً، كما أسرّ إلينا جان بيار رافارين. ولا سيما عندما أضاف المصدر نفسه أنّ أيّامنا أصبحت معدودة.

اعتُبرت المعلومة جدّية إذ إنّ هذه الدائرة لا تعطي، عادةً، سوى القليل من المعلومات. في اليوم التالي، اتهم أمير جيش الإسلام جورج بأنه أقام علاقات مع الأميركيين، ويعني بذلك الحكاية المعهودة أي مشاركته في إذاعة صوت أميركا.

في الثامن من أيلول/ سبتمبر، على الموقع المذكور سابقاً، أعلن الخاطفون عن حكم يصدر قريباً عن محكمتهم الإسلامية، كما أعلنوا عن مذكرة بالقبض على أيمن الجندي، ابن سائقنا، وهي معلومات تبدو قابلة للتصديق عند الفرنسيين. إنّ الموقع المذكور قد أقفل في العاشر من أيلول/ سبتمبر. من أوقفه ولماذا؟ بلا شك، إنهم مخبرو جيش الإسلام في العراق، بعد أن تأكدوا من الهجوم الذي كان الموقع هدفه من قبل الإدارة العامة لأمن الدولة.

الثاني عشر وُلد ميدان للنقاش. ولكنْ، أية صدقية تُمنح له؟

هناك شائعات ومعلومات خادعة، والفرنسيون لا يستطيعون إقامة اتصال مع خاطفينا الذين يخافونهم لأمنهم. وقد لخّص أحد المفاوضين ذلك بصراحة: «إنّ الأمور تتعثّر!»

لتعقيد الأمور، تكثفت المبادرات الشخصية. في الحادي عشر

من أيلول/ سبتمبر وصل محمّد بشري إلى بيروت على متن طائرة نفّاثة وضعتها السلطات اللبنانية بتصرفه. وقد أخذت الإدارة العامة لأمن الدولة جانب الحيطة. لأنه أكثر المرسلين المسلمين الثلاثة حيوية. وهو يفلت منهم. تخاف الدوائر الفرنسيّة من أن يكون السمكة المرشدة لدومينيك فيلبين. كان من المتوقع أن يلتقي رئيس الفدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا الرئيس إميل لحّود وأن يشارك، في اليوم التالي، في مؤتمر وطني بموضوع المقاومة المناهضة للأميركيين في العراق. ولم يكن لزيارته علاقة بسفره الحديث إلى بغداد، إلى جانب عضوين من المجلس الفرنسي للمجموعة الإسلامية، حين التقى لجنة علماء السنة. فهي مبادرة خاصة من الفدرالية الفرنسية التي كانت مقتنعة بأنّ سوريا تمسك، خفية، بخيوط قضيتنا

ـ إن رأيي هو إمرار رسائل على المسؤولين السوريين عن طريق السلطات اللبنانية، كما يشرح اليوم محمّد بشري.

ما كاد يصل إلى فندقه، حتى تلقى اتصالاً هاتفياً في غرفته. على الطرف الآخر اتصال من بيروت، كان الشيخ رعد حمداني. الرجل زعيم قبلي عراقي مهمّ. «هذا المساء نتناول العشاء معاً، ستمرّ سيّارة لنقلك، ولم يضف شيئاً إلى ذلك».

ـ وجدت نفسي عندئذ في دارة حيث كان بانتظاري، لا الشيخ

رعد حمداني وحده، بل كان هناك، بالإضافة إليه مهدي الصميدعي، زعيم الخط السلفي الذي كنت قد التقيته في بغداد. ظل هذا الأخير، لمدة ساعة، يحدثني عن قدر المسلمين في فرنسا وفي العالم، أحسست أنه يريد اختبار أمانتي للإسلام، واكتشاف قناعاتي الحقيقية، كما ذكر محمّد بشري.

في آخر اللقاء، أفلت الزعيم السلفي فجأة هذا الكلام:

الشابّان عندنا. لن تتم تصفيتهما وسيحرران. وهذا قرار اتخذته جمعيتنا الاستشارية. ولكنْ، في المقابل، علينا أن نحصل على شيء من الفرنسيين. ما رأيك لو طلبت المقاومة حرية عمل القادة في الحركات السلفية في فرنسا؟

إنّ لعبة المسؤول السلفي المزدوجة واضحة، وهو الذي سنّ قبل عشرة أيام فتوى تدعو إلى تحريرنا.

ردّ محمّد بشري إنّ مطالبته هذه ليست فكرة حسنة. وشرح رئيس الفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا FNMF أنّ الفئات السلفية في المسدس مرتبطة بالعربية السعودية أي النظام الذي لا يميل إليه مهدي الصميدعي.

ـ ماذا تنصحني إذاً؟

ـ أطلب إلى فرنسا ألاّ تغيّر سياستها تجاه العراق. وأن تحترم بأمانة قرارات الأمم المتحدة. هذا ما اقترحه محمد بشري.

وقبل أن يُختتم اللقاء طرح عليه مهدي الصميدعي سؤالاً أخيراً.

ـ ما هي إسقاطات قضية الرهينتين في فرنسا؟

ـ لعلّ في الشرّ خيراً، كما جاء في القول المأثور. بالرغم من الصدمة، اكتشف الفرنسيون أنّ المسلمين يعرفون كيف يظهرون بمظهر المواطنين المسؤولين. ولكنّ هذه النقطة الإيجابية لا يجوز أن يفسدها مخرج مأسوي لقضية المخطوفين. بعودته إلى باريس، أعلم محمّد بشري السلطات الفرنسية بمحادثاته السرية مع الصميدعي.

في هذه الأثناء، من الناحية الرسمية، كان التنسيق بين الدبلوماسيين والجواسيس الفرنسيين في الشرق الأوسط يقع في أخطاء كثيرة حتى تحدث بعضهم عن فوضى الدولة.

في باريس تلقّى بيار بروشان، زعيم الإدارة العامة لأمن الدولة ضغطاً من الإليزه كي يبدّل في معاونيه في بيروت وباريس وعمّان ودمشق وفي بغداد، طبعاً، حيث قُوّي الفريق بصورة ملحوظة. في السادس عشر من أيلول/ سبتمبر، استدعى رئيس الجمهورية ميشال أليوت ماري، وأطلق عاضباً صرخة بأعلى صوته.

ـ لم تصل الدوائر إلى شيء. قال ذلك وهو يرعد.

أحسّ رئيس الدولة أنّه لا يعرف كل شيء عن القضية، بالرغم

من وجود الجنرال جان لويس جورجلين، عينه في خليّة الأزمة.
- إني أرسلك إلى هناك، أيها الجنرال فيليب روندو، كي تتأكد أنّ العمل الذي ينجزونه في بغداد، يتم بتناغم جيّد.

قبل سفره، قام الجنرال بزيارة إلى بيار بروشان، الذي وعده بأن جميع وسائل الإدارة العامة لأمن الدولة هي بتصرفه. وقد وفى بوعده. ثم رسم له لوحة عن الوضع. أما فرضية أن تكون الرهينتان قد صفيتا فسقطت. هل هناك مشاكل تقنية في آلية التحرير؟ هل الخاطفون جاهزون، فعلاً، لإطلاقنا؟ وقبل مغادرته مضيفه، أضاف بروشان:

- قبل ست وثلاثين ساعة، قام اتصال بالبريد الإلكتروني، مع الخاطفين عبر جهة ثالثة. سترى ذلك على الأرض.

دخلنا عندئذ المرحلة الجديدة من الاتصالات، المرحلة التي يسمّونها الخط الإلكتروني. في الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر تلقّت جهة ثالثة في عمان رسالة بريدية عجيبة عنوانها: نحن أصدقاء الصحافيين الفرنسيين. لم تكن الرسالة تشير إلى أي مرجع ديني كيلا تستنفر الأميركيين، ولم تذكر حتى جيش الإسلام قلقاً على السريّة.

الوسط، المعروف بإمكانية الاشتغال، نقلها إلى سفير فرنسا في الأردن جان ميشال كازا الذي نقلها بدوره إلى

الكيه دورسيه وإلى برنار باجوليه في بغداد. ارتضى الوسيط أن يكون علبة للرسائل بشرط أن تكون فقط للسوقيّات (اللوجستية).

هكذا، لأول مرة في تاريخ الاختطاف، راحت المفاوضات تتم عبر البريد الإلكتروني.

سريالية الموقف: حوار مع الخاطفين على الإنترنت. في مجال مفتوح!

كان بإمكان أية دائرة استخبار ولو ضعيفة التجهيز، اعتراض الرسائل، والتشويش على الخط، وقطع خط الحوار! وهو وضع مفارق ظل سرياً محاصراً. كان يدير القصية بيار فيمون، مدير ديوان ميشال برنيه، برنار باحوليه في بغداد ومكتب بغداد

الجواب الفرنسي لم ينتظر طويلاً. منذ السادس عشر من أيلول/ سبتمبر نقلت رسالة إلكترونية إلى الوسيط: نحن مهتمون بالمناقشة معك، ولكننا نريد شهادة حياة للرهينتين. نطلب شريط فيديو يذكر فيه شينو ومالبرونو أسماء والديهما.

بعض أعضاء الكي دورسيه تساءلوا ما إذا لم يكن من الضروري أيضاً أن يطالبوا بأسماء أجدادهما قبل صرف النظر عن المشروع،

لأن الأمر هنا يتعلق بمعلومة لا يعرف عنها الخاطفون شيئاً. لم يطلب الفرنسيون، بالمقابل، ذكر تاريخ التسجيل.

لم يكن من المهمّ كثيراً الإنطلاق من لحظة بداية الاتصال، كما أوضح أحد الفريبين من الملف.

فجأةً، تخثّرت المايونيز، حسب تعبير مفاوض فرنسي.

بعد يومين، على أثر حديث طويل مع قائد سجننا، سجّلنا ما اعتقدناه شريط التحرير، إذ كان قد قيل لنا إن إطلاق السراح سيتم بعد أسبوع. تفصيل مهمّ. ذهب قائد السجن إلى أبعد من الالتماس الفرنسي، وطلب إلينا أن نذكر بالعربية تاريخ اليوم، الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر.

بين الخامس عشر والثامن عشر من أيلول/ سبتمبر، كان هناك نحو عشر رسائل بريدية متبادلة بين الخاطفين وبرنار باجوليه على عنوانه الإلكتروني في وزارة الخارجية. فرض الجيش الإسلامي في العراق ثلاث مجموعات من الشروط لإطلاق سراحنا: أولاً التذكير بعدم شرعية الحرب، ورفض إرسال قوات فرنسية إلى العراق، ثم بنود إدارية لا دعايات عن الاتصالات ولا مال ولا تشهير بالأميركيين، وصمت مع جميع الوسطاء، وهي شروط كانت مصحوبة بتهديد عن حياة الرهينتين إن لم تُستوفَ.

وأخيراً، كان هناك بنود سياسية:

يريد الخاطفون أن يحصلوا على شيء ما في موضوع الحجاب.

إنّ الشريط المسجّل في الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر وصل في الثاني والعشرين إلى عمّان حيث جاء رسول كي يودعه. وذهب إلى باريس في الثالث والعشرين من أيلول/ سبتمبر. كان الفرنسيون من القلق على سلامة الشريط بحيث حمله نقولا نيمتشينوف نفسه، وهو الرقم الثاني في السفارة. كان هندامنا في الفيديو يبدو جيداً، ونبدو مرتاحين إذ كانوا قد أنبأونا، قبل قليل، بقرب إطلاق سراحنا...

في الرسالة البريدية الأولى، كانوا يريدون إثارة موضوع الحجاب، ولكنّ اللغة المستعملة كانت العربية وبصورة غير واضحة. لم يتكلموا على الإلغاء، بخلاف ما حصل في شريط الثامن والعشرين من آب/ أغسطس. لم ندرِ ما إذا كانوا يريدون إثارة الموضوع أو مراجعته كما ارتأى القانون بعد مرور عام. وارتضوا، تدريجياً، بإعادة النظر. ولكنْ، في الوقت نفسه، بدوا غير راضين، مطالبين بالمزيد. كان يُطلب إليهم: كونوا أكثر دقّة في شروطكم. ماذا تريدون؟ ولكنهم ما كانوا يجيبون

حُرِّرت الرسائل بطريقة جعلت الفرنسيين يستنتجون أنهم راغبون في إطلاق سراحنا. لم يطلقوا أي تهديد موجه حياتنا.

فقد ظلت اللهجة تقنية مهذّبة في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر مساءً، في أثناء عشاء مع الجنرال روندو، بدا برنار باجوليه متفائلاً. في بغداد، أكّدت اتصالات الجنرال له أن عملية التحرير معهودة. وتحدثت رسالة بريدية مؤرخة في الرابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر عن المرحلة الأخيرة وتصدّت لطرائق التحرير. في اليوم التالي، أخبرت الجهة الثالثة أنها تتمنّى الانفصال.

ـ قلنا في أنفسنا إنها إشارة جيدة، لا يريد أن يكون متورطاً في التحرير، على حد تحليل أحد المفاوضين.

في بغداد، جهّز الفرنسيون عنوان إنترنت خاصاً ليستطيع باجوليه أن يتحاور مع الذين يحتجزوننا. بدأت الاتصالات المباشرة، الأولى بين الفرنسيين وجيش الإسلام التي هنّأ سعد نفسه عليها، في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر، أثناء انتقال جديد، ولكننا كنا نجهل أنّ القضية تسير بواسطة البريد. في السابع والعشرين، أطلق جيش الإسلام تصريحاً أوضح عن إعادة النظر في قانون الحجاب، وقال إذا أُعلن مثل هذا التصريح فإن تحرير الرهينتين يتبعه. مساء ذلك اليوم، في أثناء تنقلنا على بعد نحو مئة كيلومتر من شمالي غربي بغداد، همس سعد في أذن جورج وهو يجيبه عن سؤال: إنّ إطلاق سراحكما قريب.

في رسالته الإلكترونية، طلب الجيش الإسلامي أن تنضم شخصيات إسلامية إلى لجنة القوانين المكلّفة إعادة تقييم منطوق الحكم في مهلة سنة أوضح برنيه في ذلك اليوم نفسه الوضع من عدة إذاعات، ورد باجوليه، من ناحية، على الخاطفين: «أنظروا إلى تصريحات وزير خارجيتنا، ميشال برنيه، من راديو فرنسا وراديو الشرق الأوسط: إنّ إعادة تقييم القانون ممكنة».

على خط البريد كانت وجهات النظر متقاربة. استوفي الشرط الأوّل بالتذكير بموقف فرنسا ورفضها إرسال جنود إلى العراق. عمّق برنيه المسمار في أثناء الخطاب أمام الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة. في الحال، ردّ الخاطفون بأنهم رافضون بتأكيدات باريس. فلاحظ الفرنسيون أنهم على اطلاع جيّد. في الواقع، ذهب الخاطفون بعيداً فلمّحوا إلى تصريحات الناطق الرسمي باسم الكيه دورسيه، وليس فقط إلى تصريحات الرئيس شيراك أو ميشال برنيه. أمّا في ما يتعلق بالبنود الإدارية، فقد تم الخروج منها بسرعة، وبمفاجأتنا كما ذكّر أحد القريبين من الملفّ. كان من المنتظر أن تتجمد القضية. لا، بالعكس، بل إنّهم راحوا يحذروننا من الوسطاء. وهكذا، لم يكونوا يرغبون في هشام الدليمي. وكانوا يعرفون أنه عرّض نفسه كوسيط في مقابلة مع صحيفة الموند.

بخصوص الشرط الثالث السياسي المتعلق بارتداء الحجاب في المدارس الرسمية، كان الخاطفون ينتظرون الشروح التي سوف تأتي في السابع والعشرين مع التصريحات الإذاعية لوزير خارجيتنا.

«بعد تدخّل برنيه، كنت أنتظر إطلاق سراحكما. لأن الخاطفين كانوا يتحدثون بمنطق التسوية المثبّتة في شريط الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر»، على ما أكّده أحد المفاوضين

بالإضافة إلى ذلك، كانت شروط تحريرنا التقنية، قد درسها أعضاء دائرة العمل في الإدارة العامة لأمن الدولة. استكشفت أمكنة في بغداد لاسترجاعنا. رجال الظل هؤلاء كانوا مقتنعين بأنّ التسوية النهائية يجب أن يكون مسرحها العاصمة، فكل عمليّات الخطف السابقة قد تم حلّها هناك، باستثناء واحدة شهدت جندياً أميركياً عجيباً يظهر في لبنان.

من الناحية الفرنسيّة، كان كل شيء مقبولاً، بما في ذلك إعادة التقييم التي يلحظها القانون في ما خصّ الحجاب. من الناحية العراقية، كان هناك أكثرية في المجلس الاستشاري للجيش الإسلامي قد أبعدت دفع فدية. فكانت القضية، إذاً، تبدو مربوطة.

ولكنّ مفاجأةً سوف تحدث في الأيّام الأخيرة من شهر أيلول/

ستمبر . تلقّى برنار باجوليه ، في الثلاثين ، برقية إلكترونية بلهجة أصوليّة جديدة . «تصريحاتكم غير المسؤولة غير مقبولة . لم يعد العمل ممكناً معكم ، لأنكم غير جديين . إنها أزمة بلا منفذ» . منذ ذلك التاريخ ، كانت الرسائل التي يبعث بها إلى الجيش الإسلامي بلا جواب . هناك تفصيل مهمّ : لم تكن رسالة الانقطاع مشفوعة بأي تهديد يتعلق بحياتنا ، بل كانت مجرّد إنذار بتوقف الاتصال .

كانت «التصريحات المباغتة» من عمل فيليب برت مساء الثامن والعشرين على شاشة تلفزيون العربيّة . أعلن برت «ممثل البعثة الفرنسية» المكلفة المفاوضات لتحرير الرهينتين أن اتفاقاً مع خاطفينا قد تم التوصل إليه ! «أستطيع أن أؤكد أنهما كليهما بصحة جيدة ، ونفسياً كذلك . بعد التقائهما ، تمكّنا من التوصل إلى اتفاق على أمرين» .

وأضاف برت محدداً : «الأمر الأوّل هو إطلاق سراحهما ، والأمر الثاني هو إيداع شريط فيديو يعلنان فيه شخصياً تحريرهما» .

وكان الانذهال في السفارة الفرنسية في بغداد ، فيما عُقد اجتماع أزمة في ماتينيون

ـ أسرجوا خيولكم إلى دمشق ! هذا ما أطلقه الجنرال جان لويس جورجلين لفيليب روندو .

أسرع هذا الأخير في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر بطائرة إلى العاصمة السورية حيث ظل حتى 10 تشرين الأول/ أكتوبر.

في باريس، رُكّبت ثلاثة افتراضات عمل: إمّا الخط الإلكتروني لبرنار باجوليه يستأنف ويؤدّي؛ وإمّا أن يستعيد ديديه جوليا الرهينتين إلى الحدود السورية ـ العراقية، وفي هذه الحال يغطي روندو الجميع في سوريا ويعيد الرهينتين إلى باريس؛ وإمّا أن يكون هناك خداع، ولكنّ الرهينتين، مع ذلك، يتم توصيلهما إلى الحدود. والجنرال روندو يوصلهما إلى باريس، بدون برت وجوليا بالطبع.

المربكة في مكانها. ظل روندو على اتصال دائم ببيار فيمون، مدير ديوان ميشال برنيه، والجنرال جان لويس جورجلين، رئيس مجلس القيادة في أمانة السر عند جاك شيراك، وبرنار باجوليه في بغداد وجان فرنسوا حيرو، سفير فرنسا في دمشق، أمّا جان بيار لافون، مدير شمالي أفريقيا والشرق الأوسط في الكيه دورسيه، فقد كان في عمّان.

في بغداد برنار باجوليه غاضب، ألا يقوم برت وسواه بعمليات خطف لإطلاق سراحنا؟ ولكن، وهو يستنكر «التهريج»، لا يستبعد نجاح خطة جوليا. لماذا؟ لأن بعض المصادر العراقية الأخرى تبيعه الآن خطة سورية غير خطة جوليا.

يشرح السفير في برقية: «إن الموكب الذي يعيد الرهينتين قد يسلك مجرى الفرات. قد ينتقل من قرية إلى قرية في موكب من ثلاث سيارات وقد يتطلب ثلاثة أو أربعة أيام كي يصل إلى سوريا». في الأول والثاني من تشرين الأوّل/ أكتوبر، كان برنار باجوليه يتردد، أمّا في باريس، فقد أطلق بيار رافارين لأحد معاونيه: «ماذا لو نجح جوليا؟ ولو لم يكن هنالك سوى احتمال واحد من ألف لإطلاقهما، يجب أن نحاول».

نعلم اليوم أن مدهر الخربت، رجل الأعمال، هو الذي كان ديديه جوليا يعتمد عليه بنوع خاص من أجل إخلاء سبيلنا، حسب الفيغارو، قد يكون مدهر الخربت طالب «بتفويض رسمي» من دومينيك دي فيلبين للتدخل. طوال مدة اعتقالنا، كان هذا الرجل الذي جمع ثروة في عهد صدّام يدير ديواناً في لوبي فندق أنتركونتيننتال في عمّان. كان يستقبل، طوال النهار، زواراً وصحافيين يزوّدهم أسراره.

ـ لقد حصد الارتباك، كما لاحظ أحد الدبلوماسيين.

في الثاني أو الثالث من أيلول/ سبتمبر، أشاع أنّ الرهينتين سيفرج عنهما.

في رأي أحد رجال الأعمال المقيم في عمّان، أنّ «مدهر الخربت ليس له اتصال بفئات المقاومة. وهو ليس سياسياً بل رجل

مرتش». «هو شخصية لا تُصدّق كثيراً، وتبحث، في رأي رجل أمن، عن رجال مناسبين»، وهذا ما أكّده لنا ديديه جوليا عندما ذهبنا لنلتقيه في مكاتب محاميه، لحاجات تتعلق بتحقيقنا.

عند الساعة الثانية والعشرين والنصف من يوم الجمعة في الثلاثين من أيلول/ ستمبر، وصل فيليب برت إلى دائرة الحدود برفقة خليل جسيم، أحد رجال الأعمال العراقيين. أوعز الرئيس السوري بشار الأسد إلى دوائر استخباراته أن تضع كل وسائلها بتصّرف الجنرال روندو الذي ذهب إلى الحدود لإلقاء الضوء على الوضع. استرجع نسخة عن جواز سفر فيليب برت، أخذتها سلطات الشرطة على الحدود، وقد اجتاز الحدود . . . ولكن بدون الرهينتين.

يوم الجمعة، في الأوّل من تشرين الأوّل/ أكتوبر، بلغ الارتباك ذروته. في منتصف النهار، أعلن فيليب برت، في اتصال هاتفي مع أوروبا 1، «أنه إلى جانب الرهينتين، على بُعد عشرين متراً» وأنه في طريقه إلى دمشق. وأضاف:

ـ أعتقد أنني في خلال عشر ساعات، على الأكثر، يمكنني أن أحدثكم بسرور عظيم. لا أستطيع أن أقول المزيد في الوقت الحاضر. إننا نصع اللمسات الأخيرة. لا أريد أن أعرّض هذه القضية للخطر، التي هي معقدة للغاية.

توازن فيليب برت أذهل الرسميين الفرنسيين الذين لم يصدقوا آذانهم. فتسرّب الاضطراب حتى صفوف الإدارة العامة لأمن الدولة.

ـ خلال يوم ساورتنا الشكوك كما أكّد أحد وكلاء المسبح. ليس ممكناً أن تتوصّل «الأرجل المكّلة» إلى تحريركما فيما نفشل نحن بكل الوسائل التي نظهرها!

لم تدم هذه الشكوك طويلاً. لأنّ الدوائر السريّة الفرسية موضعت بسرعة مكان الاتصال الهاتفي لفيليب برت: فعندما كان يؤكد من أوروبا 1 أنه كان معنا في العراق، لم يكن، في الواقع، إلاّ في ضواحي دمشق!

في الثاني من تشرين الأوّل/ أكتوبر، بالرغم من فشل استعادتنا على يد رجل الثقة لديه، ثابر ديديه جوليا ووقّع.

ـ أثق بصديقي فيليب برت كل الثقة؛ فإذا قال إنه التقى الرهينتين، يكون ذلك أكيداً.

ذهب النائب سين ـ إي مارن إلى أبعد من ذلك فشرح غياب برت من العاصمة السورية بتدخّل الجيش الأميركي لكانت الـ GI استهدفت الموكب المستعيد الرهينتين الموضوعتين في مركبة قد تكون نجحت في العودة على أعقابها بنصف استدارة.

ـ آسف ـ يقول جوليا ـ أن أعلمكم أنّ الفريق الذي يحمي

الصحافيين قد أصيب بستة قتلى، وأنّ البيوت الخمسة التي كان صديقانا يسكنانها قد قُصفت ودمِّرت.

بكل تأكيد، لم نُنقل يوماً في موكب يسير نحو سوريا، ولا تعرضنا لقصف أميركي. وطوال مدة احتجازنا لم نلتقِ أي وسيط فرنسي أو أجنبي. في ما عدا ذلك، كما أوضحنا في الجزء الأوّل من هذا الكتاب، كنا محتجزين احتجازاً مزدوجاً، وكان يحرسنا باستمرار حرّاس مسلحون كثيرون.

الحقيقة هي أنّ خاطفينا لم يؤمنوا بمغامرة جوليا وهم يخشون إسقاطاتها السلبية على المفاوضات المكدّسة.

ـ ماكو ثقة! (لم يعد هنالك من ثقة!) يلعب الفرنسيون لعبة فلا نفهم شيئاً مما يجري. هذا ما قاله سعد وهو آتٍ لتسجيل شريط في الثالث من تشرين الأوّل/ أكتوبر.

قبل ذلك بأيام، عبّر أحد سجانينا عن انزعاجه من أحاديث برت التي يدلي بها من العربيّة.

ـ بإعلان إطلاق سراحكما القريب، يريد الفرنسيون أن يضغطوا علينا. ولكننا نحن الذين نقرّر.

هذا ما تمتم به متذمراً بلا أي شرح آخر.

الإشارة الثالثة التي جاءتنا من مغامرة جوليا ستظهر ذات صباح ونحن ذاهبان إلى المغاسل، إذ قال لنا أحد الحرّاس:

ـ المستر دودي سيعلن تحريركما بعد الظهر .

في جهلنا الكامل لما يجري، ظللنا مرتبكين . كيف يمكن أن يطلق سراحنا ولا شيء يدلُّ على ذلك؟ وهكذا تكوّن المسرح الموصوف سابقاً : يخرجوننا كلينا من الخلية ليضعونا أمام التلفزيون، دون إعلان أي شيء، طبعاً .

إنّ تطغّل حوليا يناقض شروط الخاطفين المعبّر عنها في الرسائل البريدية في الأيام السابقة التي بموجبها يرفضون تدخل أي وسيط : فهم يطالبون باتصالات سريّة مباشرة مع الفرنسيين . ومهمّة جوليا، في رأيهم، لا قيمة لها . بل قد تؤدي إلى تقهقر في أوضاع اعتقالنا .

في الثالث من تشرين الأوّل/ أكتوبر، كان سعد منزعجاً فعلاً . ولكنه لم ينقل، ولله الحمد، أية تعليمات لتجميد أوضاعنا . ولم يحذّر سوى أنّ الاتصالات قد أصبحت بطيئة صعبة، وهذا ما سيؤكده بعد خمسة عشر يوماً في أثناء تسجيل شريط جديد، مما يدل على أنّ جرح جوليا لم يندمل بعد .

على ضوء هذه التضليلات المتعاقبة، ستكون ردة فعل جورج بصورة قاسية عند وصولنا إلى فيلاّ كوبلي . لم يأخذ بهذه الأحاديث تحت تأثير ميشال برنيه . في قراءتنا الصحف بين بغداد وقبرص اكتشفنا قضية جوليا وأكاذيبه قبل أن نلتقي الوزير .

بالإضافة إلى ذلك، كان جورج يعرف فيليب برت وماضيه الكريتي. كما كان يعرف مدهر الخرست، وهو حلقة في سلسلة جوليا، وهو، أيضاً، شخصية مشكوك فيها. كنا قد تناولنا العشاء معه في عمّان قبل سفرنا إلى بغداد بقليل.

رجل الأعمال هذا القريب من برزان أحد الأخوة الأنصاف لصدّام، ومحطة اللوبي الفرنسي الداعم للعراق أسرّ إلينا: «لم أعد أستطيع أن أعود إلى بيتي في رمادي لأنهم يريدون أن يقطعوا رأسي». وانزعج من تصاعد القوة الإسلامية في المقاومة. لا أحد يُكرّم في بلاده، كيف يمكنه الادعاء بأنه يمارس ضغطاً على الخاطفين؟

ولكن، فلنذهب إلى أبعد من ذلك، ما بدا لنا غير مقبول في هذه القضية هو الكذب والوقوف بوجه العواصف في رواية كيفية. لم يكن التحرر على يد برت أو جوليا أو الإدارة العامة لأمن الدولة يعنينا كثيراً، إلاّ أنّ طريقة «الأرجل المنكّلة»، كانت خاطئة من أوّلها إلى آخرها. كان عليهم، قبل كل شيء، تنبيه العائلتين والعمل بكتمان، وهو شرط واجب لنجاح مثل هذه الوساطة.

ـ كنّا نفكر بتنبيه أقربائكما بعد إطلاق سراحكما. هذا ما شرحه لنا ديديه جوليا في أثناء المقابلة.

هناك حديث مضيء بنوع خاص! إن المعطيات التي زودنا بها

عن تموضعنا وعن شريط عجيب كان علينا تسليمه عند إطلاق سراحنا، لا تمتّ إلى الواقع بصلة، الواقع الذي عشناه. ففرض الإيضاح نفسه: لم يكن الرجل يمتلك المعلومات ولا الشكات التي تؤهله للدخول في اتصال مع الخاطفين. وتبدو حكاية تدخّله مؤثرة. لا يمنّ له جورج إلاّ بشيء واحد: إنّك، على الأقل، تغطي رجالك ولا تتركهم في وسط المخاصة!

وكان استنتاج أحد المفاوضين الفرنسيين في هذا الفصل المؤسف:

لقد خدع جوليا شريكاه برت وإيفانو، اللذان عُرفا بعلاقاتهما العراقية. ولكنّ جوليا لا يمكن أن يرضى علناً بهذا الفشل، وبأن يُخدع ليضيع اعتباره.

إنّ وجود «حط سوري» كثيراً ما ذُكر، في أثناء مغامرة برت جوليا كما في مناسبات أخرى. فماذا حدث بالضبط؟

لا أتخيل السوريين بعيدين عن محاولة معالجة القضية، عبر ديديه جوليا، على ما حلّله قريب من الملف. لو أُطلق سراحكما في دمشق لأرغم السوريون الرئيس شيراك على تصريح، ولكان هذا غير مُستحب.

ذكّر هذا المسؤول الفرنسي بالرهائن المحتجزة في لبنان في الثمانينات، والتي ظهرت في العاصمة السورية. كان لدمشق

بالتأكيد مصلحة في التدخّل في الملف، ولكنْ، ليس هناك أي دليل يثبت فرضية أذيّة سورية.

في السادس عشر من أيلول/ سبتمبر، أعلمت الدوائر السورية الفرنسيين أنّها تقوم بمسعى لمحاولة استعادة الرهينتين. «إذا استطعنا مساعدتكم فسنساعدكم». يعرف السوريون الخطوط الحمر التي لا يمكن تخطّيها. كان للجنرال روندو مهمة عرقلة أي خط سوري قد يلوّث قنوات المفاوضين الفرنسيين

في أثناء قمة شرم الشيخ في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، نقل ميشال برنيه رسالة واضحة إلى فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري، حذره فيها من أي تدخل سوري سلبي في قضية الرهينتين. وإلاّ «فلن تقدّر فرنسا. وسوف تستخلص جميع النتائج» كما أسرّ إلينا الوزير في فلكون 900 التي كانت تردنا إلى فرنسا.

إنّ رغبة دمشق في التدخّل قد حركتها استعادة محمد الجندي، سائقنا، وهو معارض سوري في العراق منذ السبعينات. عشية العدوان الكبير على الفلوجة في الخريف، «قامت لجنة استخبارات عسكرية سورية بزيارة سرّية إلى المدينة للتحرّي من أجل قضيتنا». هذا ما أكّده لنا أحد الخبراء الأردنيين العارفين بالمسرح السوري.

أخبرنا قريب آخر من الملف أنّ «السوريين بحثوا عن فئات مسلحة لافتدائكما، ولكن عبثاً. أنا مقتنع من أنّهم لو استطاعوا إزعاجنا بإطلاقكما لفعلوا ذلك». من جهتنا، اعتقدنا أن سوريا كان بإمكانها التورط في قضيتنا عندما أعلمنا سعد، في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر، أنّ المنظمة «ستكون على وشك تسليمنا إلى السوريين أو اللبنانيين».

هناك شيء أكيد: تزامَن احتجازنا مع برودة في العلاقات الفرنسية - السورية، مرتبطة بتصويت الثاني من أيلول/ سبتمبر، في نيويورك، على القرار 1559 للأمم المتحدة، وهو نص كان عرّاباه باريس وواشنطن.

منذ احتجازنا، كانت الإليزه ترى أن مسعى لدى دوائر الاستخبارات السورية واللبنانية لا يزال سابقاً لأوانه. «هذا خطأ، على ما يعتقده اليوم رسمي فرنسي، لأنّ سوريا تتمتع بقنوات واتصالات مع العراق قد تكون مفيدة. بالإضافة إلى محطاتها بين القبائل وبعض هذه القبائل على الأحصنة على الحدود السورية - العراقية، وهي تستقبل على أرضها العديد من بقايا نظام صدّام حسين. والأميركيون يتهمون دمشق بأنها قاعدة خلفية للمقاومة السنية التي تستعمل حدودها النفيذة مع العراق للإنطلاق في حرب العصابات».

أقام البعثيون العلمانيون في دمشق كذلك علاقات غير طبيعية مع الإسلاميين الأصوليين العراقيين، تسمح لهم بالتدخّل في مشاكل الجيران. «وهذا التعاون وسيلة وليس استراتيجية، تدوم ما استفاد المعسكران منها»، كما حلّل مصدر أمني.

بعد مغامرة جوليا ـ برت، كانت جهود الفرنسيين تنصب على إعادة الحوار وإعادة الثقة في الجيش الإسلامي. من تشرين الأوّل/ أكتوبر إلى منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، لم يكن لهم إلاّ القليل من العلاقات مع الخاطفين

حوالى الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، ظهر وسيط جديد، ولكنه بدا بطيئاً في نقل الرسائل. وهو الذي أودع الشريط الذي سجلناه في السابع عشر من تشرين الأوّل/ أكتوبر، بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من العودة إلى ضواحي بغداد، حيث كان من المفترض أن نُحرر في أواخر أيلول/ سبتمبر.

ـ ستوضعان هنا بانتظار إيجاد حل، هذا ما قاله سعد لجورج بغموض. المفاوضات بطيئة وصعبة، وأضاف أن مفاوضاً جديداً قد ظهر وهو بحاجة إلى شريط.

ـ ظل محاور تشرين الأوّل/ أكتوبر صامتاً لبعض الوقت. أما متأكد من أنه كان يلعب لعبة شخصية، ولم يكن قانونياً كثيراً بالنسبة إلينا، كما أكّد مفاوض فرنسي. استطاع أن يأتينا بشهادة

حياة، هذا ما يدل على أنه كان على اتصال بخاطفيكم، ولكنه لم يكن قريباً بمقدار ما يدعي. لم يكن دقيقاً، ويطلق وعوداً لا يفي بها، كان بإمكانه أن يعطي موعداً في ساعة ما بدون الحضور أبداً، أو يقول سيتصل الساعة العاشرة، ثم يكون الانتظار خمس عشرة ساعة لينفّذ.

بعد إطلاق سراح القنصل الإيراني في السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر على يد الجيش الإسلامي، اتصلت السلطات الفرنسية بالسلطات الإيرانية للحصول على عاصر تفاهم.

ـ «الإيرانيون سيعطوننا كل شيء ونقيضه، كما تذكر دبلوماسي في باريس. في بادئ الأمر، اتهموا رئيس الوزراء، إياد علاّوي قائلين. «حصلنا على تحرير الدبلوماسي بعد ذهابنا إلى علاّوي مهددين إياه بوضع الجنوب بالنار والدم...» التقينا، إذاً، وزير الداخلية العراقي الذي أكّد لنا أنه لا يستطيع أن يقدم شيئاً في هذا الموضوع. وهذا صحيح جداً. «ليس العراقيون هم الذين يقفون وراء اختطاف الصحافيين وإنما السوريون»، كما أكّد الإيرانيون.

أخيراً، حاؤوا ليقولوا لنا: «نحن نأسف لإبلاغكم أنّ الرهينتين هما بين يدي الزرقاوي، ولم يعد باستطاعتنا أن نعمل أي شيء». في الواقع، كانت إيران تبغي التشويش على القضية.

في هذه المرحلة، كانت باريس تسائل نفسها عن فرصة إقامة علاقة مع دوائر الاستخبارات العراقية. السلطات الرسمية كانت على اتصال. ونوقشت القضية في قمة الدولة. أخيراً، بعد مناقشات مع ميشال أليوت ماري وبيار بروشان، أسقط الرئيس فكرة أي مسعى من هذا النوع، مع أنه، على ما يبدو، كان يميل، من ناحيته الشخصية، إلى مثل هذا.

ـ نطرح على أنفسنا عدّة أسئلة، على ما تذكّر أحد المفاوضين. ألم توقف دوائر الاستخبارات العراقية الخط الإلكتروني؟ ماذا كانت معرفتهم بالقضية؟ ما كانت فائدتهم من كل ذلك؟ نحن لا نملك إجابات كثيرة عن هذه الأسئلة.

هناك استفهام آخر في وسط المشاغل الفرنسية: هل من فائدة في إعادة تفعيل القنوات المستعملة سابقاً في عمليات خطف رعايا تابعة لبلدان التحالف العسكري الذي يحتل العراق؟ في قمة الدولة طلت الآراء متنوعة. إنّ اختيار مثل هذا المسعى قد يضع حياة الرهينتين في خطر إذا علم الخاطفون بذلك، لكنّ إبعاده يؤدي إلى حرماننا من وسطاء نافعين. أخيراً رجحت كفة الحكمة: إنّ الوسطاء المختارين يجب أن يكونوا قد برهنوا عن مقدرتهم في معالجة عملية الخطف التي كُلفوها، على أن يتم هذا بسرية تامة.

بعد أن يئس الفرنسيون من وسيط تشرين الأوّل/ أكتوبر تمنوا إعادة تشغيل الخط الإلكتروني. هذه هي الرسالة التي أمرّها الجنرال روندو ما بين 10 و13 تشرين الأوّل/ أكتوبر في أثناء اتصالاته السرية بالعراق مع مصدره.

ـ أؤكد له استنكار الحكومة لمبادرة جوليا، في حال وقوع مشكلة، كُلّف باجوليه متابعة الاتصال بكم. إلى جانب ذلك، إذا احتجتم الاتصال بأحد، يمكنكم الانضمام إلى رئيس دائرة الإدارة العامة لأمن الدولة في بغداد. سأطلب إليه أن يُسمح للرهينتين بنقل شيئاً موقّعاً بخط اليد.

بعد إقامته في العراق، أحسّ الجنرال أنّ «شقاق جوليا قد أُصلح».

ـ الجميع من فرنسيين وخاطفين وسوريين قد فهموا.

في الحادي عشر من تشرين الأوّل/ أكتوبر، ادعى مصدر أنه قد رآنا بصحة جيدة، ونقل الخبر إلى الفرنسيين في بغداد. ونقل آخرون الخبر نفسه إلى السفارة. في أثناء أسابيع التردد هذه، ظهرت ثلاثة أو أربعة دروب في بيروت وعمّان ودمشق.

في الرابع والعشرين من تشرين الأوّل/ أكتوبر، نبّه الفرنسيين تصريح من راديو الشرق لفاضل الرباعي، وهو ممثل لجنة عليا تكتنفها الأسرار للقوات الوطنية ضد الاحتلال.

ـ نحن في المرحلة الختامية، هي قضية بضعة أيام، كما عبّر البيان، تُستنكر بعدها المبادرات غير المقبولة لبعض الدبلوماسيين الفرنسيين الذين اقترحوا فدية على الخاطفين.

ولكن، حسب الإدارة العامة لأمن الدولة هذا الرباعي لا يُصدّق.

من جهته، شاء أحد رجال الأعمال اللبنانيين أن يقوم بوساطة انطلاقاً من بيروت. وأخو مرعبي علي، صهر سائقنا، ادعى أنه يمتلك معلومات حول قضيتنا، وكذلك رجل أعمال سوري ـ لبناني. فهم الفرنسيون بسرعة أنّ هذه الخطوط لا تعني الشيء الكثير، ومن الملائم، مع ذلك، تثبيتها، قبل أن «نغطّي الملوثين بدوائر الاستخبارات المحلية التي تحجبها عن المسرح». أمّا برت وفيليب إيفانو فقد ظلاّ في سوريا.

في الحادي والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر، أوقف الأميركيون الشيخ هشام الدليمي، فاستدعى ذلك الفرنسيين. في حين كان الجيش الإسلامي نفى أي دور له بعد أن كان قد عرض خدماته. في هذا اليوم بالذات، أعلم الشيخ حارث الداري برنار باجوليه.

ـ نحن نعلم أنّ الرهينتين بصحة جيدة.

من جهتها، في باريس، بدأت الصحافة تتساءل عن فعّالية

دوائر الاستخبارات التي كانت قلقة لوجود المجاهدين الفرنسيين في العراق.

بفضولية، ظهرت مسألة الحجاب من جديد في مشاغل الخاطفين. كان الفرنسيون يعتقدون أن القضية قد حلّت على أثر رسائل أيلول/ سبتمبر. فالفكرة مستمرة بإعادة نظر في تطبيق القانون بعد فترة سنة.

أعلمناهم أننا لا نستطيع تقديم المزيد، ولكننا نكرر أننا نعدهم باستشارة المسلمين الفرنسيين لإعطائنا رأيهم.

في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر، أعلم سعد كريستيان: «عدم الحصول على شيء في موضوع الحجاب ولا في موضوعات أخرى» وهدّد بقتلنا إذا لم تسوّ حكومتنا الوضع.

بعد عودته إلى بغداد في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، أقام الجنرال روندو علاقة مع شخص يُسمى علي، وهو شيخ أهيف ملتحٍ بزي زري. التقاه ووجهه غير مقنّع، في أثناء لقاء تم بحراسة دائرة العمل في الإدارة العامة لأمن الدولة.

ـ نحن دائماً مستعدون لاسترجاع الرهينتين، كما عبّر روندو، ولكني بحاجة إلى شهادة حياة، ولِمَ لا اتصال هاتفي. إليك رقمي هاتف، بإمكانك الاتصال بالفرنسيين عبرهما.

يوضح الجنرال أنه استقدم هاتفاً وكان على استعداد لإيصال

مكالمة إلينا ولكنّ الخاطفين رأوا في ذلك فخّا. لأن المكالمة، ولو قصيرة، هي شهادة بأن الرهينتين على قيد الحياة. أجاب علي أنّ شيبو ومالبرونو بخير.

- هما في أمان، ولكنني لا أعرف أين، لا أعرف كل شيء، فرئيسي في بغداد. في الوقت الحاضر، تواجه المراسلة الإلكترونية بعض الصعوبات. ولم يضف شيئاً. كان روندو يجهل ما إذا كان عضواً في الجيش الإسلامي، ولكنّ معلوماته بالملفّ فاجأت الجنرال. أمامه، استعاد علي الشروط المذكورة في رسائل أيلول/سبتمبر.

كرّر السيّد الجاسوس حاجته إلى اتصال هاتفي مع الرهينتين. بعد ذلك بقليل، أكّد علي لباجوليه أنّ الرهينتين، بالرغم من المواجهة بين أميركا وعصابات الفلوجة، هما بخير. وظل روندو حذراً.

- قال لنا علي إنّنا قريبان من التحرير، ولكنه لم يعطِ أية شهادة حياة. لم أحصل يوماً على تأكيد صحة هذا الخط، كان الرجل يعرف بوضوح الكثير من الأشياء بدون إعطاء براهين. ولكن هذا الخط هو الذي سيعطيني معلومات عن عملية التحرير التي ستجري في ما بعد. فقد اعتُبرت تثبيتاً للعملية المتوقعة.

عمن يتصل علي في الواقع؟ فالجيش الإسلامي، بلا شك، قد

فوّض وسطاء كثراً، فيما كان الفرنسيون، لعدم العثور على الجوهرة النادرة، يخرجون الكثيرون منها من قبعاتهم. باختصار، كان استقرار الاتصالات يفسح المجال أمام التمنّي . . . وسنعاني من ذلك!

أمّا الخاطفون الفاقدو الصبر فقد صعّدوا في غضبهم:

ـ يجب، الاختيار من بين وسطائكم، تُطلب إلينا الشرائط من جميع النواحي، ونحن لا ندري من نحتار!

كان الفرنسيون، من جهتهم يتلقون رسائل تشير إلى أنّ الفريق قد أُطلقت النار عليه من نزعات مختلفة. في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر، صرّح ميشال برنيه أنّ الرهينتين كانتا لا تزالان على قيد الحياة منذ بضعة أيام، مضيفاً بحذر أنّ المحاورين يشكلون فئات مبعثرة. وتعترف الإدارة العامة لأمن الدولة أنّ أي اتصال مباشر لم يتم بعد مع الخاطفين، وفي هذه الأثناء، كانت تدخلات برت ومصطفى عزيز في دمشق تمضي في تعكير الأجواء.

وتذكّر أنّ حارسنا جاء في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد الظهر، ليرانا ويقول لنا:

ـ سمعت حديثاً في أسفل المبنى بين مسؤولين. هناك حلّ قريب. ولكن، لا تقولا إني أنا الذي أخبركما.

تأكّدت هذه المعلومة المعتدلة بعد أسبوع، حينَ قال سعد، وهو يجيب جورج، بعد أن كان قد هددنا بالقتل:

ـ نعم، هذا صحيح، كانت الاتصالات حتى الآن جيدة حتى إننا ارتأينا أن نسلمكما إلى السلطات السورية أو اللبنانية، ولكنّ المفاوض الأخير لم يكن لبقاً، فطلبنا استبداله.

ماذا حدث في خلال هذا الأسبوع؟ يرجع سعد السبب إلى «رئيسكم» المتصلّب، و«الفرنسيين العنيدين». هل رنّ تصريح لجاك شيراك في آذان خاطفينا رنيناً سيئاً؟ لم نجد أثراً لذلك. عند اكتشاف كريستيان على الشريط مذعوراً وعيناه في الفضاء، تساءل العملاء الفرنسيون: هل من مسلّح وراء المصوّر يهدّده؟

كان الأمر يتعلّق، في الواقع، بالخاطف الذي كان قد بشرنا بقرب التحرير. كان كريستيان يبحث عنه بنظره مذعوراً، في أثناء تسجيل الفيديو . . لم يكن التفاؤل، في ذلك اليوم، لازماً. قبل تخيّل هذه الأشرطة، كان خبراء الإدارة العامة لأمن الدولة يخشون رؤيتنا بثياب برتقالية، كالمسجونين المسلمين في قاعدة غوانتنامو الأميركية. هكذا كان فريق أبو مصعب الزرقاوي يُلبس رهائنه زياً غريباً قبل أن يُعدمها.

إنّ التهديد الذي أغرقنا في قلق يشعل الدم، قد يكون سببه «خصاماً حاداً بين الوسيط الذي ظهر في الخامس عشر من تشرين

الأوّل/ أكتوبر والفرنسيين في سياق مافيوي للتأثير على باريس»، على ما علمنا بعد ذلك دون التوصل إلى أكثر من ذلك. يمكن مع ذلك التكهن بأن الوسيط قد ذهب إلى جماعة الجيش الإسلامي في العراق ليعرض عليها مناورة تكتيكية. «إنّ الفرنسيين لا يريدون أن يدفعوا لي أو أن يسلموا في هذه النقطة، فاضغطوا عليهم بتهديد الرهينتين».

قد يكون الجيش الإسلامي قد أبعده ليحفظ لهذا المسعى قوة مقنعة، ويتجنب اللعبة المزدوجة. وقد تكون وضعت شريط التهديدات في عهدة وسيط آخر.

النتيجة ناجحة: لن يكون هذا الرسول الجديد متفائلاً في بداية مهمته، كما أبلغنا مصدر باريسي.

فهل تغير الوضع في أقلّ من أسبوع وتبددت الأزمة؟ إذ إنّ حارسنا صباح الأحد، في الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، هدّأ من روعنا إذ أسرّ إلينا أنّ المفاوضات لن تنقطع. بعد أسبوع، وعد بتحريرنا «في خلال خمسة عشر يوماً، على الأكثر».

بعد الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، خيّمت الكيه دورسيه على خط دفاعها: لا اتصالات مباشرة مع الخاطفين ولكن مع وسطاء فعّالين. في الواقع، بدأ الفرنسيون يؤمنون

بذلك. فالوسيط الذي بدأ مهمته مع شريط التهديد قد باشر العمل.

ولم تضع سفارتنا في بغداد يدها على هذا الوسيط الجدّي الذي أوصلنا إلى التحرير إلاّ في آخر تشرين الأوّل/ أكتوبر.

المعني هو رجل أعمال عراقي تطوّر في تبعية النظام المنهار، وارتد إلى المبادئ الإسلاميّة المتطرفة في عهد صدّام حسين، يعرفه الفرنسيون ولا يشكون في مقدرته على لعب دور. كان جزءاً من الاتصالات الدبلوماسية المستمرّة. جربته الإدارة العامة لأمن الدولة في قضية أخرى، فبرهن عن جدارة. فربح شيئاً فشيئاً ثقة الفرنسيين.

ـ كنّا نعرف هذا الشخص معرفة جيدة، من التبعية التي تطوّر فيها، ومن أصدقائه السلفيين ومن كفاءاته، كما لاحظ عميل في الإدارة العامة لأمن الدولة.

أكّد هذا الوسيط الجديد أنّ:

الجيش الإسلامي يتمنى أن يكون على اتصال بكما، حتى ولو كانت فرنسا تناهض بعض الأصوليين داخل المجموعة.

هو الذي سيحمل إلى الفرنسيين الكلمة التي سوف نكتبها بالإنكليزية صباح يوم الأحد في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر حسب تلقين «ملاكنا الحارس»: «إلى والدتي وإلى

والدي، نسأل الحكومة أن تسوّي مشكلتنا». وهي الرسالة التي أضفنا إليها توقيعنا في أعلى صفحة الصحيفة اليومية «الزمان»، مشفوعة بالتاريخ.

في حديثه مع كريستيان، تحدّث «الملاك الحارس» عن جهة ثالثة ستحمل البريد إلى الفرنسيين.

ولكن، لماذا لم يستطع تقديم شهادة حياة أكثر صدقية من توقيع بسيط أو من نص، كما كان الوسطاء الآخرون قد فعلوا؟

مهما يقل الفرنسيون فإنّ شريط التهديد في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر يرتبط بأزمة حقيقية في المفاوضات؛ وهي نوع من المسرحيات النفسانية التي تسبق الحل، كما كنا نردد لرفع معنوياتنا.

بعد هذا الوقت، لم يعد الخاطفون يوافقون على طلبات فرنسية ليُعرض عليهم شريط يُظهر الرهينتين على قيد الحياة. كان يجب أن يبقى سيف ديموكليس مصلتاً فوق رأسينا أو فوق رأس واحد منا.

جرت الأمور، في الواقع، حسب هذا المخطط. عندما تسلّم الفرنسيون صحيفة «الزمان» لم يكونوا راضين. طالبوا باتصالاتهم بشريط يظهر الرهينتين كليّة.

هذا هو السبب الذي من أجله، مساء ذلك الأحد نفسه،

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، رأينا سعداً يدخل غرفتنا ليأخذ عنا فيلماً يظهر فيه كريستيان وحده. «نعم، فقط واحد!» قال هذا وهو يصفق الباب. في الواقع، بمواجهة المقلاع الفرنسي الذي يستعمله الوسيط، أراد الخاطفون أن يهدئوا الجو بتقديم شريط بشخص واحد، وهكذا برر الشك في مصير جورج. من هنا كان قلق الفرنسيين المتزايد، قلق يعقد قلقاً. في الوقت نفسه، ادّعت صحيفة كويتية أنّ جورج شرب مياهاً آسنة، فتوجب نقله إلى الخارج.

ـ صار السؤال، فعلاً، يطرح نفسه، على ما روى ميشال بويون. من كان يدير خلية الأزمة في ماتينيون. ألن نسترجع إلاّ واحداً؟ ما العمل في هذه الحال؟

تزايدت الشكوك بسرعة. تشمل عملية إطلاق السراح التي بدأوها الرهينتين معاً.

الناحية الإيجابية من هذا اليوم المضطرب:

احتفظت السفارة بالبرهان على أن طلبها وصل بسرعة إلى الجيش الإسلامي، وعلى أننا، عرضياً لسنا بعيدين عن بغداد. وهذا صحيح.

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر: قوّل مصدر ثقة آخر باجوليه «إنّ الرهينتين هما بخير، وقد وُضعتا في منأى عن

مناطق القتال. أما عملية التحرير فتُحضّر». من المتوقع اجتماعات مع هذا المصدر للبحث في شروط التحرير. ولكنّ الفرنسيين غير متأكدين تماماً. لأنهم لم يتسلموا الشريط المطلوب بعد، ولن يتسلموه قبل الثاني من كانون الأوّل/ ديسمبر. . كل ذلك لتُطبخ القضية على مهل

مع ذلك، كان وسطاء غير موثوق بهم كثيراً، لا يزالون يلوّثون الخط. هناك سائق شاحنة مصري ادعى أنه سمعنا نتكلم في الغرفة المجاورة لغرفته. حقق معه عملاء الإدارة العامة لأمن الدولة في عمّان تحقيقاً غير دقيق.

فإذا به من المولعين بالكذب، أراد أن يعوضوا عليه سرقة شاحنته، ولكنّ شهادته صادق عليها مكتب عمّان الفيديرالي للبوليس في العاصمة الأردنية. فحال النبأ في أنحاء العالم حتى وصل إلى عائلتينا.

في باريس، كان محمّد الجندي، سائقنا، يروي على مسامع الإدارة العامة لأمن الدولة المغامرة الوهمية التي وفّرت له الحرية. اكتشف صاحبنا، في الفلوجة، أنّ عدداً من أعضاء الجيش الإسلامي في العراق كانوا من العسكريين القدامى أو عملاء استخبارات مرتبطين مثله بالنظام القديم. بدت شهادته كثيرة المنفعة في حلّ طلاسم المنظمة المسلحة.

عاد، في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، الجنرال روندو إلى سوريا ولبنان. أغلق الباب السوري بمساعدة دوائر الاستخبارات في دمشق. وأفهمه هؤلاء أنهم سيُخرجون برت وإيفانو من الحلقة، لأنهم يرفضون التدخّل في «المغامرات المشرقية الأخيرة» من أجل تحريرنا.

عاد التفاؤل إلى المخيّم الفرنسي. «أراهنك مقابل زجاجة شمبانيا، على خروجهما قبل الميلاد»، هذا ما أكّده، في أوائل كانون الأوّل/ ديسمبر، عميل في الإدارة العامة لأمن الدولة لأحد أصدقائه في الشرق الأوسط. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ظهر فيها متأكداً إلى هذا الحد. ولكن التفاؤل خُفِّف من غلوائه، مرّة جديدة، في الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر، حين وصلت إلى الفرنسيين معلومات تفيد أنّ فريق الزرقاوي راح يراقب الخاطفين.

ـ كان يمكن اعتقاد التالي: حتى ولو ظلت الإدارة سياسية، أي في مجرى الوضع الفرنسي، فإنّ الذين كلفوا تقنياً إطلاق سراحكما، ينتمون إلى فريق آخر ويتمتعون بنوع من الاستقلالية، على ما قاله لنا جان ـ بيار رافارين.

انطلاقاً من هنا، لم تعد القضية قضية حجاب في الاتصالات الجارية. أصبح البحث يدور حول الطرق التقنية للتحرير. في

السابع من كانون الأول/ ديسمبر، تأكّد نقل الوسيط الرسائل إلى إدارة الجيش الإسلامي بصورة جيدة.

بين الفرنسيين والخاطفين تقاربت المواقف، كما أعلن «ملاكنا الحارس»، مساء العاشر من كانون الأول/ ديسمبر، وهو يجمع قبضتيه، قبل أن يضيف: يمكن أن يحدث إطلاق سراحكما في أية لحظة

في الخامس عشر من كانون الأوّل/ ديسمبر، في باريس، قرّرت الحكومة الحظر على الإعلام. أدار ميشال بويون المرحلة الأخيرة من القضية. في العشرين، عشية إطلاق سراحنا، باح ميشال برنيه بيقينه من أنّ الرهينتين لا تزالان على قيد الحياة. ولم يضف شيئاً. ولكنّ الوزير كان يعرف أنّ القضية مشوكة تقريباً. في العشية السابقة، جاء خاطفونا يسجلون الشريط النهائي الحقيقي هذه المرّة. على الأرض، كان التعرّف إلى أماكن ممكنة للاستعادة تقوم به دائرة العمل في الإدارة العامة لأمن الدولة.

إنّ مونتاج العملية مع تسللنا خارج الأراضي العراقية قد انطلق. التنفيذ معقد مصحوب بمجازفة كبرى كما سيدل على ذلك الحل المأسوي لقضية جوليانا سغرينا.

ما هي النقاط القوية التي نحفظها من هذا التحقيق المضاد الطويل؟ التي دفعها عمل الدبلوماسيين المشترك وعمل رجال

الإدارة العامة لأمن الدولة في بغداد، كان برنار باجوليه المستعرب الممتاز والسفير السابق في الأردن وفي البوسنيا، يلعب دور قائد الفرقة الموسيقية ضاعف اتصالاته المحليّة وعرف كيف يقدر فعّالية الوسطاء، الذين كان بعضهم يأتي ليدق باب السفير.

في الظل، كان M .X رئيس مركز الإدارة العامة لأمن الدولة، يساعده ثلاثة من الضباط المعالجين مولجاً تقييم مسارات المفاوضات وجاء من باريس فريق آخر للدعم لأخذ فسحة بالنسبة إلى المعلومات المجمّعة، ولتحليل المدارج والوسطاء.

في «المسبح» عملت خليّة أزمة مؤلّفة من مئة عميل أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين بما في ذلك عطلة نهاية الأسبوع. وكان هناك 70000 إصغاء تُرجمت وحُلّلت وحُلّت ألغازها. في بيروت ودمشق وعمّان كانت مكاتب الإدارة العامة لأمن الدولة مطلوبة ومدعومة في بعض الأحيان إذ «بالرغم من أهميّة قضيتكم، كان علينا أن نعالج ملفات أخرى»، كما أسرّ إلينا مع شيء من روح الدعابة عميل في الشرق الأوسط.

طوال أيام احتجازنا الـ 124، كانت هرقل130 تابعة للجيش الفرنسي، جاثمة باستمرار على طريق المطار العسكري في مرقا في ضواحي عمّان.

هذه طريقة لوجستية هامة، لأن الجيش الفرنسي لا يمتلك سوى أربع عشرة آلة من هذا النوع. قال أحد الضباط الفرنسيين: «أنا لا أعرف ولا أذكر طلب الهرقل130 لمثل هذه الفترة الطويلة».

إنّ هذه الطائرات التي تستعمل في عمليّات خاصة قد نقلت عدة عربات مصفحة لحراسة تنقلات رجال الإدارة العامة لأمن الدولة في العراق. هكذا، في الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، كان خمسة عشر من رجال الكوماندوس أو المغاوير يشاركون في الفصل الأخير من رواية الخطف. كانوا يتوزعون على عدة 4X4 مصفحة ويمتلكون قوة من النار مدمّرة مع شكّة من الرشاشات وقاذفات القنابل.

وراء الوسائل المستعملة، أفسحت قضيتنا المجال أمام توحيد متقدم بين فرق الإدارة العامة لأمن الدولة ودبلوماسيي الكيه دورسيه على الطريقة البريطانية. في قلب «المسبح» كما شرح لنا بيار بروشان في ما بعد، كان تنفيذ العمل المشترك بين الخبراء التقنيين واختصاصيين الاستخبار يُختبر على مستوى عالٍ من النجاح.

أتاحت النتيجة السعيدة للإدارة العامة لأمن الدولة أن تنسي الناس الفشل في قضية غرينبيس Greenpeace أو في استعادة انغريد بيتنكور في كولومبيا عام 2003. بقوة هذا النجاح، وضعت هذه

الدائرة على الأرض اتصالاً على الطريقة الأميركية حاذقاً متماسكاً.
كان الأول في السجل: قدمت للصحافة تفاصيل عملية تحتفظ بها عادة وراء حدران الـQG في شارع مورتيه في باريس.
وأوّل آخر: خطفنا الذي تم على أرض غير صديقة بلا نقاط استناد محليّة.
ـ في معظم عمليّات الخطف التي كان علينا معالجتها، على ما شرح أحد مسؤولي «المسبح» كان بإمكاننا أن نعتمد على شركاء. ولكنْ، هذه المرّة، كان من المستحيل الاستعانة بالتحالف الذي يدير العراق، لأن في دلك مخاطرة بحياة الرهينتين. وللأسباب نفسها، لم نستطع أن نتوجه إلى الحكومة العراقية.
النتيجة: التقدم كان بطيئاً. وأخذ العمل على تقييم المساعي وقتاً طويلاً. هناك نحو ستين شخصاً يمكنهم الوصول إلى الخاطفين تقدموا أو استدعوا. هذا يمثّل كميّة كبيرة من المواعيد والاتصالات واللقاءات في ظروف صعبة في أكثر الأحيان. كان بعض الغشاشين يتطلبون رسالة من السفارة ليشرعوا بالوساطة، وهذا ما لم يكن مقبولاً.
ـ وحدها شهادة الحياة يأتي بها وسيط تجعل منه أهلاً للثقة، في رأينا، كما أوضح رجل من الإدارة العامة لأمن الدولة.
في البدء، ركّز الجواسيس الفرنسيون أبحاثهم في الفلّوحة،

مطقة نعوذ المقاومة السنية، بسبب جود عبد الله جنابي، الإمام الذي «يبرنط» لجنة المحاهدين في المدينة، أي مجموعة الفرق المسلحة، وهي اندماحة ملفقة ذات مصالح متضاربة متنافسة في أكثر الأحيان، لا يمكن أن تجتمع بمجرد اصطفاف أصابع بسبب خطر محدق. من هنا كان عامل البطء. تدريجاً، مالت الإدارة العامة لأمن الدولة إلى بغداد، مركز إدارة الجيش الإسلامي، ومختلف الجوامع ذات الطاعة السلفية، حيث يمكنها أن تقتبس قنواتها لتصديق الاتصالات.

هناك حاجز إضافي: تأسف الإدارة العامة لأمن الدولة لكون الجيش الإسلامي لم يفوّض يوماً وسيطاً فعّالاً للاتصال بها. «كنا ضحايا هوايتهم في هذا الحقل»، أضاف مرجع عالٍ. إنّ رجال الجيش الإسلامي ما كانوا حضّروا مخرجاً للأزمة. وكان وسطاؤهم، وهم أحياناً من بقايا الجهاز الأمني لصدام حسين، يعملون في أوقات متقطعة. كان بعضهم يتعيبون، ويذهبون إلى سوريا أو إلى الأردن. وكان آخرون يمضون أسابيع قبل أن يقدموا عن الرهينتين شهادة حياة للفرنسيين، حتى الفيديو لم يكن يشكل ضمانة مطلقة: هناك يمكن الحصول عليها في سوق الأشرطة، حتى ولو كانت شبه مفقودة في هذه الحال. وحده الشريط المذكور في الصاندي تايمز كان مستخرجاً من تسجيل سابق. وهي

سوق غزيرة العصارة: قد يذهب الفرنسيون إلى دفع نحو ألف دولار لحامل شريط.

كانت ثلاثة خطوط، بالإجمال، مستعملة، ظهر أحدها قليل الفعّالية، هو خط مصطفى عزيز الذي انتهى بخلافه مع شريكيه المتواطئين إيفانو وبرت. كما لاحظ أحد المفاوضين.

ولكن، رسمياً على الأقل، لم تجرِ يوماً اتصالات مباشرة بين الفرنسيين والخاطفين. إلاّ، بالطبع، في أثناء إطلاق سراحنا حيث تقابل رحال دائرة العمل في الإدارة العامة لأمن الدولة وX M. وجهاً لوجه مع خاطفينا.

للعائلتين المتزايد قلقهما، كان الجواب لا يتغير: «ليس لدينا سوى اتصالات مع وسطاء فعّالين».

ـ كنا نتمنى لو أن هذه الاتصالات تمكنت من الانعقاد على ما قدّر أحد المفاوضين. ولكنّ الجيش الإسلامي كان يعارض بشراسة. خلال الأسابيع الأولى، كان الجيش الإسلامي يرفض الاتصال خوفاً من أن يوازنه الفرنسيون مع الأميركيين. مع ذلك، قال لنا سعد، في ما بعد، في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر، مفتخراً بأنه أقام «مبادلات مباشرة في غاية السريّة مع السلطات الفرنسية». أصبحنا نعتقد، بعد ذلك، أنّ لقاءات بين الجانبين، كانت تتم في مكان ما آمن من بغداد.

كانت القضية قضية اتصالات بريدية. وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، كما نذكر، عندما جاء «ملاكنا الحارس» يطلب إلينا أن نوقّع على صحيفة، بشّرنا بأن عملية التحرير قد انطلقت، وأضاف: أن «فريقاً ثالثاً هو الذي سيحمل الكلمة إلى الفرنسيين».

بالنسبة إلى الفرنسيين، إن إنكار الاتصال المباشر يحفظ ماء الوجه: «نحن لا نتفاوض مع الإرهابيين» حسب القول المأثور الذي أصبح سرًا شائعاً منذ عمليّات الخطف في لبنان. وشرْح هذا اللغز هو بالطبع أبسط. هل كان الوسطاء الفعّالون أعضاء في الجيش الإسلامي دون أن يعرف ذلك أي مخيم، لأسباب أمنية وحفاظاً على العلاقات في المستقبل؟

هناك سر آخر يغشى شروط تحريرنا:

أفدية أم تنازلات سياسية؟ في البيان أعلن تحريرنا، أشار الجيش الإسلامي إلى أنّ «البرهان هو أن الرهينتين لا تتجسسان لحساب القوّات الأميركية»، وأوضح أن إخلاء سبيلنا يستجيب «لنداءات مؤسسات ومنظمات إسلامية وتشدّداتها»، كما يستجيب «تقدير الموقف الفرنسي في ما يتعلق بالقضية العراقية».

من الصعب التصديق أنه اقتضى أربعة أشهر للتثبّت من عدم علاقتنا بمركز الاستخبارات الأميركية CIA. كذلك، في الثامن

عشر من أيلول/ سبتمبر، أشار أحد سجّانينا إلى أنّ استنطاقنا كان خفيفاً على الأرجح، بخلاف استنطاق إنزو بلدوني أو استنطاق القنصل الإيراني اللذين اختُطفا أيضاً على أيدي الجيش الإسلامي. باختصار، بدت التكاليف ضدنا ضعيفة. أُطلِقَ سراحنا، إذاً، بناءً على اتفاق توصل إليه الفرنسيون والجيش الإسلامي، ولكننا حتى اليوم نجهل مضمونه.

إن تاريخ عمليات الخطف يدل على أنّ لمثل هذا الاتفاق مصراعين، أحدهما مالي والآخر سياسي. في حالنا، هل دُفعت فدية؟ لقد ردّد خاطفونا، عدة مرات، أنهم ليسوا سارقين ولا يريدون مالاً، ساعين بهذا الموقف إلى نشر فكرة طهارة قتالهم.

مع ذلك، قبل اختطافنا، على ذمة مصدر ثقة، كنا قد كتبنا أنّ عمليّات الخطف هي بالنسبة إلى بعض الفئات وسيلة لتمويل المقاومة. وذكر هذا المصدر حالة الكوريين الجنوبيين واليابانيين الذين تم تحريرهم بدفع فدية. ولكنّ الفرنسيين كذّبوا خبر دفع أية فدية، مشيرين إلى أنهم لم يتلقوا أي طلب يشير إلى هذا الموضوع... في هذا المضمار، كل جهة تأخذ بلحيتها الصغيرة، ولا تريد أية منهما أن تعترف يوماً بوجود فدية.

لا يأخذ دفعها، مع ذلك، طابعاً غير اعتيادي، في رأينا، وليس، من الناحية الأخلاقية، جديراً بالعقاب.

حسب مصدر أجنبي كان وسيطاً في عدة عمليات خطف، إن سعر الخطف يدور حول نحو مليوني دولار.

مهما يكن من أمر، ومع فرضية دفع فدية، من المستغرب أن تستغرق العملية أربعة أشهر للاتفاق على قيمة مثل هذه المكافآت المالية، حسب لغة الاختصاصيين في قضايا المياه العكرة.

من هنا كان احتمال وجود مصراع ثانٍ، سياسي هذا.

إلامَ يمكن أن يستند؟

في عدة مناسبات، كان الخاطفون يعرضون التأنيبات التي كانوا يوجهونها إلى فرنسا: الحجاب والوجود العسكري الفرنسي في أفغانستان والدرفور.

علامَ حصلوا في قضية الحجاب؟إعادة النظر في القانون يرافقها وعد بمشاركة ممثلين مسلمين بشكل نجهله؟ ولكنْ، قياساً إلى توقع إعادة النظر هذه في النص التشريعي، يبدو السعر السياسي مخفّفاً.

في ما يتعلق بأفغانستان، ينحصر الوجود الفرنسي بمئتي عضو من القوّات الخاصة لتطويق أسامة بن لادن، إلى جانب مماثليهم الأميركيين. لأسباب من السرية أكيدة، سيكون من الصعب تتبع التطور المالي للجواسيس الفرنسيين، ولكن هنا أيضاً، تبدو التنازلات الفرنسية ضعيفة.

يمكن أن نتخيل حاجات أخرى. حرية عمل المسؤولين السلفيين في فرنسا كما طالب بذلك صميدعي من بشري؟ إطلاق سراح مسجونين فرنسيين محتجزين في غوانتنامو قبل نقلهم إلى فرنسا؟ تأشيرات سفر لمسؤولين، وعناية بجرحى؟ ربّما. هناك شيء أكيد: إنّ المقاومة السنيّة تسعى إلى دعائم في أوروبا. منذ خريف 2004 شاعت أن تدخل في اتصال بالحكومة الفرنسية، وزار بعض مسؤوليها بلداناً أخرى في أوروبا مثل بلجيكا وألمانيا والسويد. يمكن أن يكونوا قد تمنوا، مثلاً، أن تؤوي باريس محطة تلفزة تنشر وجهة نظر محاربي العصابات المناهضة لأميركا. رفضت الحكومة الفرنسية كل هذه الطلبات بما فيها لقاء من يقرعون الأجراس للمقاومة. وهذا المطلب الأخير ترك شيئاً من المرارة.

هل دار البحث حول تسليم أسلحة لحرب العصابات؟ في أثناء أحد الاستنطاقات. نذكر أنّ محاورنا سألنا الحصول على أسلحة، وكان جوابنا، كما ذكرنا سابقاً، بالنفي. إن سبل تهريب الأسلحة تعرفها الفئات المسلحة التي تمتلك الأموال، ولا تحتاج إلى فرنسا في مثل هذه الأحوال. في الماضي، كان هناك أجهزة تنصت وإرسال قدمتها بعض الدول مقابل الإفراج عن رهائنها. ولكنّ هذا الوضع أيضاً يبدو غير محتمل هنا.

في الإجمال، ما هو، إذاً، الثمن السياسي؟ ظهرت إشارة

واضحة في خطاب ميشال برنيه، في قمة شرم الشيخ، في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، الموجّه إلى الخاطفين حين قال. يجب أن تُدعى كل فئة إلى المشاركة في العملية السياسية بعد أن تكون قد ألقت سلاحها. أعطِ تُعطَ، بشكل من الأشكال.

للنظرة الأولى، بدا ثمن الإفراج عنا زهيداً. مع ذلك، يبقى أن نصدّق الملاحظة التي أطلقها جاك شيراك عندما وجّه الأمنيات إلى الصحافة، إذ قال لزميل من «غربي فرنسا»: في التاسع من كانون الثاني/ يناير. «هناك ما يُعرف وهناك ما لا يُعرف! وهناك، لا سيما، الثمن السياسي!» إلامَ يلمّح، إذاً، رئيس الدولة، بعد لحظات من تحذيره الصحافيين من الذهاب إلى العراق، وذلك بعد أربعة أيّام من عملية خطف جديدة، خطف فلورنس أوبينا؟ هذا ما لن نعرفه أبداً. هناك شيء أكيد: باختطافهم الفرنسيين، ينوي الخاطفون بالتأكيد تغيير اتجاه سياسة باريس، فيما يلوح في الأفق تقارُب مع الولايات المتحدة



نهاية
بدلاً من ميزانية

أبعد من الأحداث التي عانيناها، ماذا بقي من هذه الأيام الـ 124 التي أمضيناها في سجون الجيش الإسلامي العراقية؟ ما هي المتغيرات، بل ما هي الانقلابات التي أحدثها هذا الاحتجاز فينا؟ ما هي التأملات التي أيقظتها هذه الأسابيع من الانتظار اللانهائي والاختلاط بحارسينا؟

في الحادي والعشرين من كانون الأوّل/ ديسمبر، يوم إخلاء سيلما، هل كنّا ما كنّاه في 20 آب/ أغسطس، يوم اختطافنا؟ وفي اللحظة التي ننهي فيها هذا الكتاب، أية ميزانية يمكن أن نضعها عن هذه الأشهر الأربعة الأخيرة؟

كنّا نتقاسم كل شيء، وبتعبير آخر، لا شيء تقريباً[1] شيئاً من الوقت الفارغ والأمل والخوف. مع ذلك، عرفنا كيف نتجنب حالة الأزمة بفضل تكامليّة سجايانا. بكشف حساب لحظات القلق النادرة بيننا، يحطر ببالنا ذاك الطبق من الرطب (البلح) الذي لم يوزعه جورج بشكل منصف هي هفوة، ولكن يجب القول إن وجبات الطعام كانت تشكل اللحظات الوحيدة للتعزية

وإن الطعن في هذا التوازن قد يُردّ إلى أسباب الحرب. نعيد الكلام على ذلك اليوم:

ـ كانت قضية الرطب (البلح) تشير إلى ضعف عندك، يا كريستيان. كان بإمكانك أن توجه الملاحظة إلي بأسلوب آخر.

ـ بلا شك. وأنت كذلك. كان بإمكانك أن توزع بحصص أكثر تساوياً وألاّ تفكر إلاّ ببطنك!

مرة أخرى، كاد تسرب المياه في المغاسل يوقع بيننا بعض التوتر. هل كان يجب أن نُعلم الحرّاس؟ تضارب الرأيان وتصاعدت اللهجة بصوت منخفض، كالعادة. طالت نيران الأزمة ولم يكن بإمكاننا إلاّ الهمس.

ولكن، تم التوافق أخيراً، ونجونا من الأدهى.

مستحصراً ذهابنا إلى النحف، كان جورج أحياناً يريد تدريبي ولكني أتمتع بموهبة الحكم. وكان بإمكاني أن أرفض اللحاق به بالرجوع إلى الماضي، إني أهنئ نفسي على أن أحداً منا لم يكن وحيداً في الاعتقال. لو بقيت في الفندق، لشعرت، في الحال، بأني مذنب. في تبادلاتنا، كما، في أكثر الأحيان، نطرح السؤال، وكنتُ، كل مرّة، أردد على جورج:

ـ اتخذتُ قراري. إن القدر وضعنا كلينا في حالة يُرثى لها، وسيخرجنا معاً.

ـ هذا الطبع المتفائل عندك كثيراً ما فاجأني في المرحلة الأولى من اعتقالنا، حتى أزمة الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر. كنت أرى في ذلك نوعاً من المرح

ـ هذا لا يمنع أنك عندما كنت تلعب دور محامي الشيطان، وعندما كانوا يطرحون موضوع الحجاب، كان تفاؤلي يسكّن من روعك. إلاّ إذا كان هذا نوعاً من القدرية على الطريقة الشرقية، أي هذا هو المكتوب. وصحيحٌ أنني كثيراً ما فكرت بأن هذا هو القدر.

ـ ربما أنت على حق. كنت أكثر الاثنين قلقاً في تلك المرحلة. وأعترف بذلك الآن، عندما كنت أسمعك تؤكد: بإمكاني أن أستمر شهوراً كذلك، كانت كلماتك تطمئنني. وكنت أغبطك على النوم بذاك المقدار. فقد كنت، في تلك المرحلة، تهرب من الواقع.

ـ كانت هذه هي طريقة للغوص في ما كنّا نحياه لأجد نفسي، بصورة أفضل، مع نفسي، أقرب ما يمكن من القضايا التي كنا نعيشها والذكريات التي لا يمكن أن نتقاسمها والتي تعود إلى الطفولة أو المراهقة، وعندما كنتُ أشعر بالانزلاق إلى منحدر الاكتئاب، وأنت يا جورج تشكك شكاً قوياً، كنت أصلّي صامتاً. لم أكن أفعل شيئاً سوى النوم.

ـ مع ذلك، عندما توتّر الوضع مع سجّانيا، شعرت أنك انسحبت. فتهديدات الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر حطمت ثقتك. أذكر أني قلت لك لأطمئنك: هذا تأكيد على أنهم قريبون من الهدف، ربما كانوا يناورون نفسياً ليرفعوا قيمة المزاد. في الواقع، لم أكن أسعى إلاّ إلى التخفيف من حدة الفترة بالنسبة إليك والي أيضاً.

ـ هذا صحيح. لقد نظرت إلى تهديداتهم بجدية. كانت ردة فعلي عند ذاك قويّة. في الواقع، كنت تسعى إلى رفع معنوياتي، وهكذا كانت ترتفع معنوياتك، في الوقت نفسه. وهكذا كان أحدنا يساند الآخر طوال هذه الأشهر الأربعة.

وكانت قوة من قوانا منصبّة باستمرار على تحليل الوضع لمحاولة فك رموزه.

ـ هناك ظاهرة غريبة أيضاً: تبادلنا الآراء ولكنْ القليل عن أنفسنا. حتى ولو حدثتك عن سيلفيا، وعن أهلي وعن وفاة شقيقتي... لم نذهب بعيداً في المسارّات المتبادلة. هل كان ذاك من الحياء؟

ـ في ما يتعلق بي، وهذه علامة من طبائع آل شيو، أنا متحفظ بعض الشيء، لا أحبّ التحدّث كثيراً عن نفسي. لا أذكر أني أسررت إليك بأشياء حميمة كما فعلت أنت، عندما رويت لي

وفاة أختك الصغيرة، مثلاً. وقد يعود ذلك إلى كوننا ما عشنا مآسي من هذا النوع.

في لحظات الاكتئاب التي عشناها، وجدنا أنفسنا في قعر الثقب. لم يكن هنالك سبب لوجود المسرّات. كانت الصلاة وحدها تحتلّ الزمان والمكان. يوم شَعَرنا بخوفنا الأكبر، في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، حين سمعنا حرّاسنا يدورون في الغرفة المجاورة، يحرّكون أشياء معدنية، ويحضرون ما كنّا نخشى أن يكون تصفيتنا، شبكنا أيدينا وصلّينا معاً. كما روينا هنا، قبل بضعة أيام، كنا قد قرّبنا فراشينا، كما فعلنا ذلك ليلة طُلب إلينا الاهتداء. شعرنا بضرورة قيام كتلة لمواجهة أفضل، ووقوفنا متّحديْن. من جهة أخرى، بقطع النظر عن المخرج القدري، كان أسوأ ما نخشاه هو أن ينفصل أحدنا عن الآخر. عند نقلنا بالسيّارة وقد عصبوا لنا أعيننا، كنت أسأل كل مرّة: كريستيان، هل أنت هنا؟

ـ في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، حين قلت لي: الصلوات أنا لا أعرفها جيداً. علمني، فاجأني طلبك إنّ الصلاة، في رأيي، تتعلّق بما هو حميم في أعماق كل كائن. هنا، أصبحت شأننا كلينا. وفي ما تبقى، كنت أنت الذي يقوم بابتهالاتنا. لقد استحسنت ذلك. تلك كانت المرحلة التي انتذرنا

فيها على أنفسنا الذهاب إلى لورد وروما إذا خرجنا كلانا سالمين . . . والذي يبقى على قيد الحياة يشهد للآخر .

ـ في عائلة مالبرونو ، كان لنا عمّة مسنة ، وكانت راهبة . عشية الميلاد ، عند الساعة الثالثة والعشرين والنصف ، تقريباً ، كانت تحتجب عن العشاء : أنا ذاهبة إلى قداس منتصف الليل وسأصلّي من أجلكم .

ـ يا عمتي ، لا تنتظري منا شيئاً ؛ ولكن ، هنالك ، مع كل ذلك ، عمل ! . هكذا كان يجيبها حتماً أحد البالغين تذكرت هذه المزحة من أيام طفولتي : هذا صحيح . كان هنالك عمل . التقصيرات والأكاذيب والحماقات والخيانات الصغيرة . . . تنظيف كل ذلك ثم الطلب إلى الله ليبقينا أحياء . . .

اليوم أحسّ أنّه قد سُمعنا .

بين الثامن والرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ، كان لدينا إحساس بانعدام القوة بشكل كامل . كانت قوتنا الوحيدة المتبقية ، قداسنا الأخير ، هي ما يتعلق بالحقل الروحاني . من جهة أخرى قلت لربي : «أحس أن صلاتي هذه هي صلاة مناسبة ، ولكني أعترف بلا حيرة ولا مراوغة · يا إلهي ، أنا بحاجة إليك» . إذاً ، الخوف هو الذي يؤدي بي إلى الصلاة . نحن نبحث عن الأمن الوهمي أقل مما نبحث عن الهدوء» .

ـ في خلال هده الأيام القليلة ، كانت لنا تجربة شعور غامض مجهول حتى تلك اللحظات : نحن متأكّدان ، تقريباً ، من موتنا القريب . كنت أتحضّر لـذلك مع مزيج من الثورة والخضوع . كنت أردد أني في الثامنة والثلاثين من عمري ، وأني سأموت من أجل لا شيء . وفي الوقت نفسه ، كنت أرى علامة القدر . هو كذلك . كنت أفضل رصاصة في رأسي وكنت أستعد لطلبها وأتمنّى ألاّ أتخبط كثيراً بصورة يُرثى لها . كنت أقبل قدري . حتى إنني لم أكن أشعر بالحقد تجاه من قد يصبحون جلاّدينا .

ـ بالرغم من اليأس ، لم أستسلم للموت . كنت أتأمل في قرار نهائي جديد ، إخلاء السبيل ، ولِمَ لا؟ معجزة . . . ولكن لا الموت! كنت أُبعِد هذا الاحتمال بكل قواي .

بالرغم من كوني مؤمناً ، لم أطرح السؤال يوماً على نفسي حول الما بعد ، جهنم أو الفردوس . السؤال المطروح كان التالي : أية ذكرى سيحفظها الناس عني؟ أي أثر سأتركه عند أنسبائي وأصدقائي؟ لم أؤسس عائلة ولا تركت خلفاً من آل شينو أمضيت حياتي أشتغل بحميّة . . . ألم أنسَ الأساسي؟ في مراحل التساؤل هذه ، نشعر ، شيئاً فشيئاً بفائدة .

ـ في الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ، حين حمل إلينا

«ملاكنا الحارس» النبأ السعيد، هل تذكر شعاع الشمس الذي كان يتلألأ في غرفتنا؟

ـ نعم، عند الساعة العاشرة والربع.

ـ ذاك الشعاع الضوئي الذي كان يتسرب، وزقزقة العصافير بعمقها الموسيقي... كنا نقول: «هناك أمر ما يحدث، المعجزة بطور الحلول».

وأنا، غير المؤمن، كنت أؤمن بذلك.

ـ نُسأل باستمرار ما إذا انكسر شيء في داخلنا طوال هذه الأشهر. إن النوم قد استعدناه تقريباً. أمّا الكوابيس فقد عانينا منها القليل. أنت، على الإطلاق، أمّا أنا فقليلاً، في خلال أسبوع تشرين الثاني/ نوفمبر الرهيب. تعاودني، في المقابل، وفي أكثر الأحيان، مخاوف الذبح. أتخيل خاطفينا، في اللباس الأبيض مع كاغولاتهم والسيف في زنارهم... دمي ينضح وأرى احتضاري. كان هذا المشهد يتكرر مرة، في الأسبوع، تقريباً.

ـ من جهتي، رأيت هذه المشاهد الكابوسية خلال الأيام الثلاثة أو الأربعة حين بلغ التهديد ذروته، ولكنها اختفت منذ إطلاق سراحنا. في المقابل، إنّ ما يصعب عليّ هو استحصار آلام ذويّ، ولا سيما والديّ. ذبت دمعاً وأنا أقرأ مقالاً ظهر في الباريزيان، في أوائل أيلول/ سبتمبر، بعد الإنذارات. اعترفت أمي بأنّها لا

تتحمل فقد ولد ثانٍ. اليوم، هذه الذكرى السيئة تتلاشى، وبصورة خاصة، لأنها هي الضعيفة تمسك بزمام الأمور في المنزل.

ـ كان لي شعور بالذنب مماثل تجاه عائلتي طوال فترة اعتقالنا. كان والدي قد حذرني من الذهاب إلى العراق، وكان يردد باستمرار: انتبه لعظامك يا كريستيان! أضف إلى ذلك أننا اتخذنا القرار بدون الامتثال لأوامر أي فرد من مستخدمينا. فنحن لا نستطيع أن نحقد على أحد، ولا أن نلقي اللوم على أي كان سوانا.

إنّ الكثيرين من الناس الذين نلتقيهم بعد إطلاق سراحنا يتخذون تجاهنا موقف شفقة يؤثر فينا ويزعجنا بعض الشيء في آن واحد. يأخذوننا بذراعنا كأنهم يتأكدون من حياتنا. بعضهم يبكون وبعضهم يسرّون إلينا أنهم صلّوا من أجلنا كثيراً وأنهم خافوا علينا كثيراً. فقد قلبنا فرنسا رأساً على عقب بالرغم منّا، وهو إحساس يصعب تحمّله أحياناً. من هنا، كان الواجب الذي يتحتّم علينا في الحفاظ على موقف العرفان بالجميل تجاه هؤلاء الأشخاص الذين ساعدونا مساعدة كبيرة.

كانت العلاقات بخاطفينا معقدة. كثيراً ما استعدنا صور «الجزّار» و«الملاك الحارس»، أو وصفنا تعابير سعد الملتبسة. كيف ننسى، مثلاً، أحاديثنا مع المجاهد الذي قال لنا إن المسيحيين

ما كانوا يتحرّكوا من أحلنا، أو إنّ المسلمين حاضرون على جميع الجبهات، وهو يتقدم لنا الشاي تحت تهديد «الجزار» حاملاً الكلاشينكوف موجهاً إلينا، على خلفية من الأناشيد التي تمجّد بن لادن؟

بعضهم يتعجبون اليوم كيف أننا لا نطلق ضد سجانينا أحاديث انتقام أو إدانة بلا جدوى.

فإن دكرنا موقف حاطفينا بدماثة فالسبب هو أننا لم نلقَ معاملة سيئة. إن الحرمان من الحرية والشك في المستقبل يدمغان، بلا شك، الضمائر، أمّا الإرهاب فيترك آثاراً أعمق على الأجساد وفي النفوس بصورة لا تُمحى. فمنذ المساء الأول، في أثناء التسجيلات الأولى ساد نوع من المناخ الجيّد. وكل هذه الإشارات الإيجابية، عن حق أو عن باطل، أبعدت عن تفكيرنا التهديد بالموت. عندما أصبحت هذه الإشارات أكثر ارتجاجاً، عرفنا كيف نحرّك تجاربنا كصحافيين كي نفهم ونستبق.

لذلك كنا موزعين بين مشاعر متناقضة: الرغبة في أن ينتهي كل ذلك، والحاجة، مع ذلك، إلى التكيّف مع الوضع الذي كان يُفرض علينا، تكيفاً غير إيديولوجي، ولكنه حسّي بارد. خلال هذه المدّة، بقينا شهوداً متحفظين، قدر الإمكان. لم نكن يوماً مغفلين عن لطافتهم أو عن تلك الوحدة الثقافية التي جعلتنا

نتقاسم بعض المشاعر : معرفتنا هذه البلاد وشعبها واللغة العربية . مهما كانت مشاعرنا تجاه سجّانينا في أثناء احتجازنا فإنها لم تغيّر مواقفنا إزاء الصراع في العراق .

نُدين، بلا تحفظ ، الصراع الذي يقوم به الجهاديون في أية نقطة من هذا الكوكب . نؤمن بعناصر أساسية في هذا الشرق الأوسط ، أكثر من أي مكان آخر كمنطقة لكل النسبويّات . كم عراقياً اليوم في السجون؟ كم مدنياً ماتوا فيها منذ بداية هذه الحرب؟ نحن نُدين الإرهاب بلا تحفّظ ولكننا نميز بينه وبين المقاومة . لا شك في أنّ الحدود بين النظرتين دقيقة . عندما يطلق المقاومون الصواريخ على القواعد الأميركية لا نُصدم لا من الناحية الأخلاقية ، ولا من الناحية السياسية . وعندما يأخذون المدنيين كرهائن أو يقتلونهم فإنهم يفرّطون في استعمال الطرائق الإرهابية من أجل الدعاية التبسيطية في أكثر الأحيان . هناك لُبس في الأنواع . ونحن نحترس من المشاركة في حفر الهوة ما بين الشرق والغرب .

فإن استُحسِن هذا أو لم يُستحسن ، فإن المقاوم الإسلامي المتطرف هو مقاوم . من هذه الناحية ، موقف فرنسا واضح يتماشى مع أخلاقية . إذا شئنا أن نحافظ على احتمال توحيد هؤلاء المقاتلين في عملية سياسية عاديّة فلنتجنّب تعريضهم للسخرية . أضف إلى ذلك أنّ هذه هي التعليمات الوحيدة التي

أوصتنا بها الإدارة العامة لأمن الدولة بعد إطلاق سراحنا: «لا تشتموا خاطفيكم. فكروا في عملية الخطف التالية» لم تخطئ. واحسرتاه!

إنّ التذكير بمثل هذه المبادئ أو توضيح أن بعض خاطفينا كانوا إنسانيين تجاهنا لا يعني أننا سقطنا، بصورة أو بأخرى، في تزامن ستوكهولم.

هناك مسألة أخرى كثيراً ما ناقشناها في ما بيننا، وقد طُرحت علينا مراراً وأجاب عنها جاك شيراك بصورة مطابقة لما كنا نفكر فيه: هل يجب، اليوم، القيام بمغامرات كتلك التي قمنا بها للذهاب إلى العراق أو إلى أفغانستان أو إلى أيّة مناطق حرب أخرى بدافع وحيد هو حق الإعلام؟

فلنحترس من المزيج والملخصات السريعة.

بكل تأكيد، لو لم يجازف روبير كابا بوجوده على شواطئ النورماندي في السادس من حزيران/يونيو عام 1944 لما عرفنا صوره. ولكنْ، ماذا يحدث عندما تصبح ظروف الصحافي، إلى جانب المخاطر التي يجتازها، غير ملائمة للقيام بعمله؟ إنّ التفاوت بين المجازفة والأوراق المقدمة، في أثناء الحرب العراقية مثلاً، يجب أن يدعونا إلى التفكير. النتيجة تبدو دقيقة سواءً من نوعية الإعلام أو في تأثير فعل

المبيعات في الكشك، عدما قد تكون المعلومات مستقاة من منطقة متاخمة لا من فندق في بغداد حيث ظل معظم الصحافيين الإنكليز والأميركيين محتجزين.

أضف إلى ذلك أنّ الوضع في العراق ليس بشكل من الأشكال كالإبادة الجماعية في رواندا. ليست القضية قضية صراع حيث يصبح السكّان في خطر لأنّ الرأي العام العالمي لم تدركه المأساة الجارية.

في مثل هذه الأوضاع، ماذا تصبح مهمتنا؟

نقدّر أنه، يجب في الوقت الحاضر، الاحتياط بآخر درجات الحذر لعدم المجارفة بخدمة عمّال البرق الذين يستعملون الصحافة بلا علمها. أمّا لعبة الوساطة فالخاطفون هم الذين يهتمون بها أكثر من الصحافيين.

على الصعيد الشخصي، ماذا تغيّر؟

عانينا هذا الاعتقال، ولكنه لم يهدمنا. عشناه، منذ الأيام الأولى كتجربة استطعنا أن نقوى عليها.

لأننا عرفنا كيف نحذر أيّ تشاؤم قد يؤدي بنا حتماً إلى السقوط. هناك أمل ما دامت هناك حياة. هذا ما كان كريستيان يردده ردًا على لارمتي: «لا حديد، إذاً، الأخبار جيدة».

اكتشفنا إلى أية درجة يمكن لجسم الإنسان أن يتكيّف مع

الظروف. النوم بملابسنا، وابتلاع البرغش لنا وعدم تمكننا من أن ننظف بالفرشاة أسناننا، أو أن نغيّر البياض، كل ذلك لم يمنعنا من أن نعيش كان الوضع بعيداً عن أن يضعفنا، بل على العكس قوّانا. وانتهى طرح الموضوعات اليومية بسرعة.

في المقابل، اكتشفنا، المهمات غير المعروفة حتى ذاك الوقت. عندما كان انشغالنا الوحيد هو التفكير أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين، كنا نغوص عميقاً في ذاكرتنا حتى أيّام الطفولة الأولى. كان كريستيان يتذكر رفاق المدرسة ويحاول جاهداً تذكّر أسمائهم. كانت هذه الذاكرة، أحياناً، تنسحب، بصورة غريبة، على تفاصيل حديثة العهد. كنا نبحث، مثلاً، عن اسم فندق كنا نعرفه جيداً ولكن النتيجة كانت الإخفاق. عندما عرضنا ذلك على عالم نفساني أكّد لنا أن كل شيء طبيعي. فهي غريزة البقاء يقوم تدرّج في مهمات العقل، فتتركّز الطاقة كلها في ما هو فطري وفي المهمات الحيويّة.

قريباً، سنخرج من مرحلة الغبطة التي غمرنا بها إطلاق سراحنا: نستعيد حياتنا المهنية والخاصة الطبيعية ونتخلى عن كنية الرهينتين السابقتين.

طبعاً، سنظل صحافيين مطلقين مشبوبي العاطفة. ولكنّا نعرف أيضاً أن لا شيء يساوي الحياة، وأنّ حب الذين نحبهم يشكّل قيمة من قِيمها المقدّسة

تشكرات

Luc de Barochez *(Le Figaro)*, Nicolas Beytout *(Le Figaro)*, Christophe Boltanski *(Libération)*, Dominique Von Burg *(La Tribune de Genève)*, Olivier Carton (maire du Vieil-Baugé), Jean-Paul Cluzel (Radio France), Serge Dassault *(Le Figaro)*, Guy Delépine (maire de Baugé), André Durand et les initiateurs du site Internet chesnot-malbrunot. com, Jacques Esnous (RTL), Didier Eugéné *(Ouest-France)*, Jean-Marc Four (France Inter), Didier François *(Libération)*, Pierre Ganz (RFI), Geneviève Goetzinger (France Inter), Ana Gonzalez Santamaria, Hussein Hanoun, Hayat Attiyeh Howayek *(Al Destour)*, Michel Kick (Al Jazira), Jean-Philippe L., Joseph Limagne *(Ouest-France)*, Mireille Lemaresquier (France Info), Robin Leproux (RTL), Robert Ménard (Reporters sans frontières), Abou Mohammed, Francis Morel *(Le Figaro)*, Pierre-André Périssol (député-maire de Moulins), Michel Polacco (France Info), Matthieu Prézelin (Comité de soutien de Baugé), Pierre Rousselin *(Le Figaro)*, Louis Rufficux *(La Liberté)*, René Sarthe (RTL), Gilles Schneider (France Inter), Antoine Schwartz (RFI), François-Régis Hutin *(Ouest-France)*, Michel Vagner *(L'Est Républicain)*, Jean-François Verdonnet *(La Tribune de Genève)*, Anne Verner (maire de Montaiguet-en-Forez).

Et aussi : Isabelle, Fatiah, Noria, Murielle, Alain, Patrick, Laure, Florence et Vincent Arnaud.

Les membres de la cellule de crise au sens large : Bernard Bajolet, Renaud Baylet, Pierre Brochand, Michel Boyon, Hubert Colin de Verdière, Franck Gelet, le général Jean-Louis Georgelin, le général Philippe Rondot, Pierre Vimont, M. X et l'ensem-

ble du personnel de l'ambassade de France en Irak, Jean-Michel Casa, Bernard Émié, les hommes de la DGSE à Paris, à Bagdad et au Moyen-Orient ainsi que les diplomates en poste dans la région.

نريد أن نشكر كل الأشخاص الذين استقبلونا لتنويرنا في تنفيذ هدا التحقيق المضاد. شكراً لاستقبالهم وجهوزيتهم، لأنهم يؤثرون التستر ولأن بعضهم يضطلعون، في الوقت الحاضر، بوظائف رسمية، لا نستطيع أن نسميهم كيلا يُعرفوا.

الفهرس

عويدات للنشر والطباعة 1087/ 2005



Christian CHESNOT
Georges MALBRUNOT

MÉMOIRES D'OTAGES

Traduction Arabe

Hussein HAIDAR Joseph MANSOUR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

20 آب/ أغسطس 2004 ـ 21 كانون الأول/ ديسمبر 2004. طوال 124 يوماً، عاشت فرنسا على إيقاع إنباءات يومية تردّد اسمي كريستيان شينو وجورج مالبرونو في هذه الأيّام الـ 124 نفسها، في عراق ممزّق، كان الرجلان يتألّمان، متأرجحين بين الخوف والأمل محاولين أن يستخرجا من عيون حرّاسهما وصوتهم القدر المعدّ لهما. طوال أربعة أشهر، بارتحاح من مخبأ إلى مخبأ، ستعيش الرهينتان تجربة مؤلمة فريدة.

في هذا الكتاب، يبوحان بالانفعالات والمشاعل الحميمة في أسرهما. وبحرصهما على قول ما لم يُعثَر عنه حتى الآن إلا قليلاً، يعالجان الموضوعات المتعددة التي تُطرح هل يكفي استرجاع الحريّة والانضمام إلى الأقربين للانتهاء من حالة الخطف؟ ما هو ثمن الحريّة الذي يتكبده الصحافي المتحوّل؟ ما هي حدود ترامن ستوكهولم الشهير؟ كيف تتمّ العودة إلى هذه الحياة التي تُسمّى عادية؟ هل يعود المرء معافى بعد صدمة نفسانية مثل هذه؟

لكنهما تجاوزا تاريخهما الشخصي، رغم قوته، وحرصا، منذ عودتهما الى فرنسا على اجراء تحقيق مصاد بمساعدة الفاعلين الاساسيين في الظل

في هذا المؤلف يكشف لنا كريستيان شينو وجورج مالبرونو بواسطة الصحيفة عن المفاوضات الخفية، وعمل الدوائر المختصة، وعمل السياسيين، واسرار العملية التي ادت الى اطلاق سراحهما.

كريستيان شينو: صحافي، مختص في الشرق الأوسط، من راديو فرنسا

جورج مالبرونو: صحافي، مختص في الشرق الأوسط، من الفيغارو

الوضع في العراق، دفع المؤلفين الى كتابة كتابهما الاول معاً صدّام حسين، صورة متكاملة (منشورات رقم 1 2003) نشرا بعد ذلك بالتعاون مع مترجم الرئيس الخاص، سمعان عبد المجيد سنوات صدّام (مايار 2003)

